موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية

القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية

الرُّوحُ الْقُدُسُ

تعريب وتقديم/ دكتور چورچ حبيب بباوي

مع مقدمة تاريخية بقلم نيافة الأنبا يؤنس مطران الغربية المتنيح

www.coptology.com

Coptology

ⲣⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية

الرُّوحُ الْقُدُسُ

مع مقدمة تاريخية بقلم نيافة الأنبا يؤنس مطران الغربية المتنيح

تعريب وتقديم

دكتور چورچ حبيب بباوي

٢٠١٤

طبعة ثانية، مزيدة ومنقَّحة

www.coptology.org

إهداء

إلى أبي وأستاذي العالم الجليل الأنبا يوأنس أسقف الغربية مدير الكلية الإكليريكية.

إلى طلبة وطالبات إكليريكية طنطا، إلى شعب إيبارشية الغربية.

عرفان وتقدير وشكر على المحبة والتكريم والعطاء الذي رأيناه في نيافة الأسقف وشعب إيبارشية الغربية الذي احتضن الكلية الإكليريكية طلبةً وطالبات وأساتذة وقدَّم في محبة أكثر مما طلبنا.

الطبعة الأولى

٧ بشنس ١٦٩٧

١٥ مايو ١٩٨١

ذكرى نياحة البابا أثناسيوس الرسولي

د. چورچ حبيب بباوي

القديس باسيليوس الكبير

جدول المحتويات

مقدمة تاريخية بقلم الأنبا يؤانس أسقف الغربية ٩

أسرة القديس: ١٠

ثقافته: ١٢

العودة للوطن: ١٥

تكريس حياته: ١٦

حياته النسكية: ١٧

في ميدان الخدمة العامة: ٢١

القديس باسيليوس رئيس الأساقفة: ٢٣

الصعاب التي واجهته في أسقفيته: ٢٥

محاولة نفي القديس باسيليوس: ٢٨

الاضطرابات في السنوات الختامية: ٢٩

نياحة القديس: ٢٩

صفاته: ٣٠

باسيليوس والكتاب المقدس: ٣١

نشاطه الرعوي: ٣٢

باسيليوس في نظر معاصريه: ٣٢

كتابات باسيليوس: ٣٣

كتاب القديس باسيلويس عن الروح القدس ٣٤
الطبعات الأساسية: ٣٦
الترجمة العربية اللبنانية: ٣٧

محتويات الكتاب ٣٨

الموضوع الأساسي: ٣٨
ما هو التسليم الرسولي: ٤٠
التفسير حسب النص، والتفسير حسب التسليم الرسولي: ٤٤
التسليم غير المكتوب: ٤٦
الكتاب المقدس والتسليم: ٤٧
الروح القدس في كتاب باسيليوس: ٤٨
الأقنوم والمواهب، وماذا يمكن أن نتعلم من القديس باسيليوس؟ ٤٩
علاقتنا بالله لا تخضع لقواعد الإعراب والحروف: ٥٠
هل تقيِّدُ الألفاظُ النعمةَ؟ ٥١
التزييف: ٥٢
الأقنوم، أي الشخص والمواهب: ٥٤
مثال عن القوة الشخصية أو الأقنومية: ٥٥
التقديس وعمل الروح القدس في الإنسان والكنيسة: ٥٦
القداسة: ٥٧
تقديس القوات السماوية: ٥٨

الجوهر والقوة: ٥٩
ملاحظات على الترجمة الحالية **٦٠**
التقليد والتسليم: ٦١
نصوص الكتاب المقدس: ٦١
الفصول والفقرات: ٦٢
كلمات "القُدُس" – "الشركة" – "الذكصولوجية": ٦٢
القديس باسيليوس وحالة الكنيسة الحاضرة: ٦٢

الفصل الأول:..................................... ٦٣
الفصل الثاني: ما هو أصل اهتمام الهراطقة بالألفاظ؟**.................. ٦٦**
الفصل الثالث: الجدل حول استخدام الألفاظ مأخوذٌ من الفلسفة الوثنية**.......٦٨**
الفصل الرابع: لا قيدَ على استعمال حروف الجر في الكتاب المقدس**.......... ٧٠**
الفصل الخامس: حرف الجر "باء» يُستخدَم للآب، و من» تُستخدَم للابن و الباء» و من» للروح القدس**... ٧٢**
الفصل السادس: نبذة ضد الذين يعلنون أن الابن ليس مع الآب **........٧٨**
الفصل السابع: ضد الذين يقولون إنه لا يليق أن نقول: مع الابن، بل بالابن **..٨٣**
الفصل الثامن: الحالات التي نستعمل فيها «به» ولماذا نفضِّل استعمال «معه» **٨٥**
الفصل التاسع: مبادئ ثابتة عن الروح، هي دعامة تعليم الكتب المقدسة **......٩٣**
الفصل العاشر: ضد الذين يقولون إنه ليس من الصواب أن نحسب الروح القدس مع الآب والابن **.. ٩٦**
الفصل الحادي عشر: الذين ينكرون الروح بقوة **.................... ٩٩**

الفصل الثاني عشر: ضد الذين يدَّعون أن المعموديةَ باسم الآب وحده، كافيةٌ **١٠١**

الفصل الثالث عشر: شرح السبب الذي يجعل بولس يضع الملائكة
مع الآب والابن **... ١٠٣**

الفصل الرابع عشر: الاعتراض بأن البعض اعتمدوا لموسى، وآمنوا به، والرد على
ذلك، مع شرح الرموز **.. ١٠٦**

الفصل الخامس عشر: المعمودية، والرد على الاعتراض بأننا اعتمدنا بالماء **........ ١١١**

الفصل السادس عشر: الاعتقاد السليم هو أن الروح القدس لا يمكن فصله عن
الآب والابن **.. ١١٥**

الفصل السابع عشر: ضد الذين يقولون إن الروح القدس لا يُحسب مع الآب
والابن،**... ١٢٢**

الفصل الثامن عشر: ما معنى اعترافنا بالأقانيم الثلاثة **................ ١٢٧**

الفصل التاسع عشر: ضد القائلين بأن الروح لا يُمجَّد**...................... ١٣٣**

الفصل العشرون: ضد الذين يقولون إن الروح ليس في مرتبة العبد أو السيد،
بل من الأحرار **.. ١٣٨**

الفصل الحادي والعشرون: براهين من الكتب المقدسة
على أن الروح يُدعى الربُّ **.. ١٤١**

الفصل الثاني والعشرون: تأكيد شركة الروح مع الآب والابن **............ ١٤٤**

الفصل الثالث والعشرون: تعداد صفات الروح القدس هو تمجيدٌ له **........ ١٤٦**

الفصل الرابع والعشرون: براهين على غباوة الذين يرفضون تمجيد الروح **....١٤٨**

الفصل الخامس والعشرون: تَستَعمِل الأسفارُ المقدسة حرف الجر "في"، أو حرف
الجر "الباء"، بدلاً من "مع"**.. ١٥٢**

الفصل السادس والعشرون: استعمالات حرف الجر "في" تُناسِب الإيمان الصحيح بالروح القدس **١٥٦**

الفصل السابع والعشرون: أصل استعمال حرف "مع" **١٦١**

الفصل الثامن والعشرون: المقاومون لا يقبلون الكلمات التي تستخدمها الأسفار المقدسة عن البشر الذين يملكون مع المسيح **١٦٧**

الفصل التاسع والعشرون: مشاهير رجال الكنيسة الذين استخدموا "مع" في الكلام عن الروح **١٧١**

الفصل الثلاثون: حالة الكنائس في الوقت الحاضر........................ **١٧٩**

مقدمة تاريخية

بقلم

نيافة الأنبا يوأنس

أسقف الغربية

«تعالوا أيها الشعوب الأرثوذكسيين لنسجد للرب يسوع المسيح.. فإن الأصوات الصادقة التي للأنبا باسيليوس العامود المعظم قد ملأت كل العالم.. فمَن يقدر أن ينطق بالقوات العظيمة والعجائب الكثيرة التي للأنبا باسيليوس؟ وأي لسان جسداني يستطيع أن يتلو كرامته ونسكياته؟. مرحباً بقدومك إلينا في هذا اليوم يا معلم التقوى ومؤدب كل المسكونة.. الأنبا باسيليوس الأسقف».

بهذه الكلمة تقدم كنيستنا مديحاً –في الدفنار– للقديس العظيم باسيليوس الكبير رئيس أساقفة كبادوكية في تذكار نياحته الموافق ٦ طوبة من كل عام، وهذه العبارات ناطقة ولا شك بمكانة هذا القديس في الكنيسة الجامعة، وكنيستنا على وجه الخصوص، لما اشتمل عليه من التقوى والفضيلة والعلم الديني الغزير. وجميع كتاباته معتمدة ومعتبرة، والكنيسة القبطية تذكره في قداسها الذي تصلي به على مدار السنة، بل إنها تصلي القداس الذي يحمل اسمه.

أسرة القديس:

في السنوات القليلة التي تلت انعقاد المجمع المسكوني الأول، وُلِد أكبر آلة فعَّالة في الكنيسة بعد القديس أثناسيوس الرسولي، استطاع أن يناضل ضد الأريوسية، ويقف أمام معتنقيها ومؤيديها من أساقفة وأباطرة ومن إليهم. فقد ولد باسيليوس –على أرجح الآراء– سنة ٣٢٩م منحدراً من دم مسيحي طاهر نقي، وهو ينتسب إلى أسرة ضمت بعض الشهداء. كان جده لأمه من كبار مُلَّاك الأراضي في بلاد بنطس، وكانت جدته لأبيه القديسة ماكرنيا *Macrina* تلميذة وفية للقديس غريغوريوس العجائبي. وقد قاسى هذان الأهوال خلال الاضطهاد الذي أثاره مكسيمينوس الثاني، وظلا يهيمان على

وجهيهما هرباً في الغابات والجبال لمدة سبع سنوات فقدا فيها معظم أملاكهما كما يخبرنا بذلك القديس غريغوريوس الثيئولوغوس في مقالته العشرين، وبقى من بينهم اثنان هما غريغوريوس وباسيليوس، صار الأول أسقفاً على إحدى إيبارشيات كبادوكية. والثاني أبو القديس باسيليوس، ويدعى أيضاً باسيليوس، حاز شهرةً عاليةً في كل بلاد بنطس كمحام عن الفضيلة ومعلم حاذق للبلاغة (البيان)، كما كانت شخصيته معتبرة جداً في الكنيسة نظراً لاستقامته وتقواه. تزوج هذا بامرأةٍ فاضلة يتيمة تدعى إمليا *Emmelia* كان أبوها قد احتمل العذاب والموت لأجل اسم المسيح، وكانت هي الأخرى مثلاً رائعاً للمرأة المسيحية الفاضلة.

هذه التقوى الثابتة اتحدت في زواج باسيليوس الأب وإمليا، فأنتج هذا الزواج الموفق عشرة أطفال خمسة بنين وخمس بنات، ويبدو أن أحد هؤلاء الأبناء مات وهو بعد طفل. وكان أكبر التسعة الأحياء ابنة تدعى ماكرينا على اسم جدتها، أما أكبر الذكور، فكان باسيليوس صاحب السيرة والثاني نقراطيوس، والثالث غريغوريوس، أما الأصغر ويدعى بطرس فقد ولد قبيل وفاة والده بزمن قصير. ومن بين هذه المجموعة الممتازة نذكر الكبرى، وهي ماكرينا كقديسة في حياتها التي دونها شقيقها غريغوريوس، فمات نقراطيوس في شبابه المبكر حوالي التاريخ الذي رُسِمَ فيه باسيليوس أغنسطسا (قارئاً). أما الثلاثة الباقون فقد رُسِموا أساقفة: باسيليوس على قيصرية، وغريغوريوس على نيصص، وبطرس على سبسطية.

أما عن مكان مولد باسيليوس، فقد ذُكِرَت مدينتان: قيصرية كبادوكية وقيصرية الجديدة *Neocaesarea* في البنطس، ولا نستطيع أن نجزم بأيهما أصح لعدم وجود الدليل الكافي، وذلك لأن الكلمة πα‎ντης اليونانية كانت تطلق على مكان المولد كما على مكان الأقامة والتملك، وكان والدا باسيليوس لهما ممتلكات ومصالح في البنطس وكبادوكية. ولكن لعدة اعتبارات يمكن اعتبار قيصرية كبادوكية هي مسقط رأسه.

فيأتي مولد باسيليوس حوالي الوقت بعد النصر الذي حققته الكنيسة بستة عشر عاماً[١]. ولد بعد أن انتهى المجمع المسكوني الأول (بنيقية) من وضع الصيغة الرسمية للمعتقدات الإيمانية الأساسية، تلك الفترة التي كانت فيها للشرق الأهمية الكنسية واللاهوتية أكثر من الغرب. وهكذا تحدر باسيليوس في فترة هامة وخطيرة في تاريخ الكنيسة. تحدر من أسرة اجتمع لها أصالة الإيمان والتقوى والجاه والشرف والثراء، تقدست بدم شهدائنا وتدعمت بتقوى أفرادها من شهداء أساقفة ورهبان وراهبات.

ثقافته:

ليس مبدأ تعلم باسيليوس هو الوقت الذي أرسل فيه إلى مدرسة قيصرية كبادوكية أو مدرسة قيصرية الجديدة كما يزعم البعض. وليست هي الفترة التي تتلمذ فيها على يد والده العظيم. ليس هذان هما المكانان اللذان ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بأيام باسيليوس المبكرة، لكنها قرية معروفة قرب قيصرية الجديدة حيث تربى على يد جدته ماكرينا. كانت للأسرة ممتلكات لا بأس بها في تلك المنطقة التي أقام فيها بعد ذلك... كانت ممتلكاتهم في أنيسي *Annesi* على نهر الايرس *Iris* «الآن Jekil-Irmak» والمناظر إلى جوارها ذات جمال خيالي، وكانت خلوة باسيليوس فيما بعد على الضفة المقابلة لذلك النهر، ذات المناظر الطبيعية الشاعرية.

في أنيسي شيدت أمه أماليا هيكلاً على اسم الأربعين شهيداً الذين استشهدوا في سبسطية، ونقلت إليها ذخائرهم المقدسة. ويحتمل أن يكون باسيليوس قد حضر صلوات التدشين التي كانت تستمر طوال اليوم. في ذلك المكان الهادئ تلقى باسيليوس من جدته ووالده مبادئ الدين. هنا تلقن الإيمان الأرثوذكسي. ويروى أن الفضل الأول في توجيهه التوجيه الديني كان لجدته كما كان أيضاً لأخته الكبيرة ماكرينا.

---

(١) المقصود بذلك منشور ميلان الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين سنة ٣١٣ م، والذي يبيح فيه للمسيحيين أن يمارسوا شعائر دينهم كدينٍ معتَرفٍ به في الدولة.

أُرسل في سن مبكرة إلى مدرسة في قيصرية كبادوكية. وتعرف هناك بأشخاص من بينهم غريغوريوس النيازينزي. كما أعجب إعجاب الأطفال برئيس الأساقفة ديانيوس *Dianius* ويروي لنا غريغوريوس أنه حتى في تلك الفترة المبكرة حاز باسيليوس على شهرة عظيمة لسموه العقلي فضلاً عن شخصيته التقية. فكان فيلسوفاً بين الفلاسفة وخطيباً بين الخطباء، حتى قبل أن يدرس هذين الفرعين في العلوم دراسة منتظمة. وفوق كل شيء كان ككاهن بين المسيحيين قبل أن ينال رتبة الكهنوت. وهكذا لفتت شخصيته الأنظار مبكراً.

ثم انتقل باسيليوس من قيصرية إلى القسطنطينية، حيث درس البيان والفلسفة بنجاح، ويقول المؤرخان سقراط وسوزمين إنه تلقى الدرس على يد ليبانيوس في أنطاكية، ولكن يبدو أنهما خلطا بين باسيليوس الذي نحن بصدده وباسيليوس صديق القديس يوحنا ذهبي الفم الذي أهدى إليه كتابه «الكهنوت»، وليس هناك ما يثبت إقامة باسيليوس في أنطاكية، ويحتمل أن يكون قد حضر بعض محاضرات ليبانيوس سنة ٣٤٧ في القسطنطينية وليس في أنطاكية، وعلى أية الحالات، فإن معلوماتنا عنه في سني إقامته الخمس في القسطنطينية ضئيلة.

ارتحل باسيليوس إلى أثينا سنة ٣٥١ طبقاً لما كان متبعاً آنذاك بالنسبة إلى الذين يريدون أن يتموا دراستهم العليا. كانت أثينا من أشهر المدن الجامعية في العالم. لقد ركزت رومة والقسطنطينية لذاتيهما الثروة والسلطان الإمبراطوري، ولكن أياً منهما لم تفلح في أن تزحزح أثينا عن مركزها في دنيا الآداب والمعارف، ذاك الذي حازته بواسطة التقليد الأدبي والتعليمي منذ ثمانية قرون خلت. فكانت أثينا بصيتها الذائع القديم وتقاليدها التاريخية من ناحية، وأساتذتها الممتازين في الفلسفة والبلاغة من ناحية أخرى، ما تزال تجذب إليها الجمهرة من الطلاب من كل أنحاء البلاد، بلاد اليونان، بل من مقاطعات آسيا النائية أيضاً.

أمضى باسيليوس قرابة خمسة أعوام في المدينة العتيقة أثينا، ولدينا محصول وفير من المعلومات عن حياته هناك مما كتبه صديقه غريغوريوس النيازينزي الذي كان قد سبقه إليها، يقول غريغوريوس أن شهرة باسيليوس كانت قد سبقته إلى أثينا، فانتظره كثير من الشبان وتنافسوا على صداقته. وكانت العادة بين الشبان أنهم يفاجئون الطالب القادم ببعض الأمور الهزلية حتى يعجموا عوده ويعرفوا شيئاً عن شخصيته. لكن باسيليوس لم يتعرض لهذه التجربة ممن هم أقدم منه في الدراسة.

أما من جهة الشابين الكبادوكيين، فقد عملت كل الظروف على توطيد أواصر الحب بينهما، ذلك الحب الذي ربطهما حتى الموت، فقد جمعتهما أهداف روحية مسيحية مقدسة، حتى قيل عنهما أنهما كانا روحاً واحدة في جسدين، وغدت صداقتهما فصلاً رائعاً في تاريخ الآباء. وهكذا لم يكن للشعر والفصاحة –والحالة هذه– قدرة على إضعاف ميولهما الروحية وحياتهما التقوية. لقد عاشا سوياً، دفع كل منهما صديقه للاستفادة من كل فرص التعليم التي أتاحهما لهما ذلك المكان. امتنع الشابان كلية عن كل اللذات التي تتفشى عادة بين الشباب، وفي ذلك يقول غريغوريوس: «عرفنا شارعين في المدينة: الأول وهو الأحسن كان يؤدي إلى الكنائس وخدام المذبح والآخر –وكنا لا نعتبره كثيراً– كان يؤدي إلى المدارس العامة ومعلمي العلوم. أما الشوارع التي تؤدي إلى المسارح والملاعب والأماكن غير المقدسة فقد تركناها لغيرنا... كانت القداسة هي شغلنا الشاغل، وكان هدفنا أن ندعى وأن نكون بالحقيقة مسيحيين، وفي هذا وضعنا كل مجدنا»[1].

والحق أن الإقامة في أثينا وقتذاك والانشغال بالدراسات الكلاسيكية (القديمة) – بالنسبة إلى الشاب غير المؤسَّس جيداً في المسيحية– كانت فرصة مليئة بالتجارب، وكان من السهل أن يشعل الحماس للوثنية، وإن كانت قد فقدت حيويتها، مثل واضح على ذلك، فقد لازمهما في الدراسة في أثينا الأمير يوليانوس ابن عم قسطنطيوس الامبراطور

(1) Greg.Naz. Oration 43.

الحاكم آنذاك. وكان الأمير الشاب تربطه بباسيليوس صداقة قديمة جداً، وقد اعتاد أن يدرس معه الكتاب المقدس ويعدد المقارنات بين تعاليم الكتاب السامية ودروس أساتذته الوثنيين، ومع كل هذا فإن يوليانوس تأثر تأثُّراً عميقاً بالوثنية، حتى أنه حينما صار إمبراطوراً فيما بعد ارتد عن المسيحية وصار يُعرَف في التاريخ باسم يوليانوس الجاحد أو المرتد. لكن باسيليوس وغريغوريوس كانت تحدوهما نصيحة قُدِّمت إليهما بالسعي حثيثاً نحو الهدف المقدس -الحياة الأبدية- التي كل المسرات وأمجاد العالم تعتبر بالقياس إليها كظلال وأحلام. فكانا حذرين في الاستفادة من مواد دراستهما، ليأخذا منها فقط ما يعينهما في خدمتهما المقدسة فيما بعد. فكانا -والحالة هذه- كالإنسان الذي يحترس من الأشواك وهو يقطف الورود، وكالنحلة التي لا يلهيها لون الزهرة وأريجها عن امتصاص رحيقها...

تلألأت عبقرية باسيليوس الدراسية في أثينا. ويخبرنا غريغوريوس بأن اجتهاد صديقه وتركيزه ومثابرته كانت عظيمة. وكان بارعاً في كل فرع من فروع العلم كما لو كان متخصصاً فيه وحده. كانت أحب المواد إليه الفصاحة والبيان والفلسفة والفلك والهندسة والطب. لكن كل سموه العقلي يتضائل إذا قورن بنقاوة حياته وطهارة سيرته. أما أشهر أساتذته الذين تتلمذ لهم في أثينا فكان بروهارسيوس المسيحي الأرمني، وهيميروس الوثني البيثيني.

العودة للوطن:

وأخيراً حان الوقت لتنفيذ ما عقد عليه الصديقان العزم من ممارسة الحياة النسكية بعد عودتهما إلى وطنهما بأكثر قوة. وحل يوم الرحيل. وحاول أصدقاؤه أن يحجزوه بالعناق والعبرات، لكن باسيليوس تعلق بغرضه وتغلب على جهود رفاقه لتعويقه في أثينا، وقد تأثر غريغوريوس كثيراً في نفسه من معاملة زملائه وأساتذته الذين ازدحموا حوله. أما باسيليوس فشرح لأصدقائه أسباب رحيله وتركهم حزانى، ومضى. ولكن غريغوريوس أذعن لهذه المحبة الفياضة غير أنه لم يبق طويلاً.

وهكذا عاد باسيليوس بمفرده إلى وطنه سنة ٣٥٦م. عاد ليجد أن والده وجدته ماكرينا قد توفيا أثناء غيبته، وأن أمه إماليا قد استقرت في أنيسي، المكان الذي تدرب فيه وهو بعد صغير.

رحبت قيصرية كبادوكية بباسيليوس كأحد أبنائها المتازين. وكانت شهرته في أثينا قد سبقته إلى كبادوكية. عُرضت عليه وظيفة مدرس للبيان بقيصرية، فقبل واشتغل بالتدريس لمدة عامين تقريباً بنجاح عظيم. وكانت المدن الأسيوية في القرن الرابع تحتفظ بأفخر تقدماتها لفلاسفتها الناجحين الذين كان من بينهم باسيليوس ولا شك. وفي خلال السنتين القصيرتين في التدريس أحرز باسيليوس شهرة عالية حتى أن قيصرية الجديدة أرسلت وفداً يلتمس منه الاشتغال بالتدريس في مدينتهم – ولكن عبثاً حاولوا استمالته بالوعود السخية.

ويبدو أن حماسته للحياة النسكية –التي كان عقد العزم عليها مع صديقه غريغوريوس في أثينا– قد فترت إلى فترة وجيزة، وسط جو الإعجاب والمديح الذي أثارته ثقافته. ويبدو أيضاً أن باسيليوس، في تلك الفترة قد داخله نوع من العُجْب والكبرياء الأدبي وتطلع إلى المراكز العالمية العالية التي يشغلها أمثاله. كما يخبرنا بذلك أخوه القديس غريغوريوس أسقف نيصص، بل عُرضت عليه وظيفة علمانية ذات مركز عظيم.

تكريس حياته:

هنا –في تلك الفترة العصيبة من حياة باسيليوس– تدخلت أخته التقية ماكرينا التي أزعجها أن ترى أخاها باسيليوس غائصاً في درس العلوم الطبيعية والبشرية، يكاد تيار العالم أن يطويه في لجحه، فحثته على طلب العلوم التقوية التي تغرس البر في القلوب، وشرعت تذكر له بُطلان أمجاد العالم. وبواسطة نفوذها تيقظت فيه ثانيةً مثاليته ونجحت أخيراً في إقناعه كموسى جديد يفضِّل العبرانيين على خزائن مصر، كما يخبرنا بذلك أيضاً القديس غريغوريوس أسقف نيصص.

في هذه الفترة (سنة ٣٥٧) تعمَّد باسيليوس. وبعدها بقليل سيم أغنسطساً (قارئاً) بيد الأنبا ديانيوس أسقف قيصرية.

وقد اتخذ القديس غريغوريوس النيازينزي من سيامة باسيليوس أغنسطسا سبباً في إظهار الأسى على السيامات التي كانت تتم بسرعة في زمانه، والتي عن طريقها نال كثيرون الكهنوت بدون التدرب اللازم حتى خشى أن تصبح أكثر الرتب قدسية هي أكثرها هزءاً. فقال: لا يدعى أحدٌ طبيباً أو رساماً إلَّا بعد أن يكون قد درس طبيعة الأمراض أو خلط الألوان ورسم الأشكال. لكن الكهنة يقامون ارتجالاً. يُحمل به ويُولد في آنٍ واحد، كالمارد في القصة الخرافية! إننا نصير قديسين في يوم واحد. فالذين ليس لديهم أي استعداد روحي ولا يعرفون شيئاً عن الكهنوت سوى الرغبة في الحصول عليه، هؤلاء يطالبون الناس أن يكونوا قديسين ومتعلمين! ولكن باسيليوس لم يكن هكذا فهو الذي كان يمارس أدنى وظيفة في الكنيسة وهي قراءة الأسفار المقدسة للشعب لمدة طويلة، قبل أن يتقدم للقسيسية والأسقفية...».

وهكذا استيقظ باسيليوس كما من حلم، وتطلع إلى نور الإنجيل المجيد فرأى تفاهة حكمة العالم التي توصِّل إلى لا شيء. وبعد أن ناح على حياته الشقية، بحث عن شيء يرشده ويقوده إلى طريق البر. كان تواقاً إلى إحداث تغيير في حياته العملية بعد أن طال انزعاجه نتيجة اتصاله بأهله، ويقول في بساطة ظاهرة: «لذلك لما قرأت كتابي المقدس، ووجدت فيه أنه عون عظيم على الكمال أن نبيع كل مالنا ونوزعه على الأخوة الفقراء، حتى نكون بلا هم في أمور هذه الحياة ونقمع شهواتنا حتى لا ننشغل بحب أي شيء هنا، حينئذ وددت لو أجد أخاً اختار هذا الطريق في الحياة حتى بالتعاون معه يمكنني أن أقضي غربة هذا العالم القصير...».

حياته النسكية:

هكذا أفاق باسيليوس على صوت أخته ماكرينا، وكرس حياته لمن أحبه. بل

أكثر من هذا، اختار لذاته طريق الوحدة، طريق الكمال المسيحي، الأمر الذي كان قد توافق عليه مع صديقه غريغوريوس.

ويبدو أنه من الأمور التي حركت فيه كوامن نفسه ودفعته دفعاً لتنفيذها، مسلك أمه وأخته ماكرينا. فبعد أن استراحتا من أعبائهما العائلية بعد أن كبر أصغر الأولاد، حولتا منزل الأسرة في أنيسي على نهر الايرس ليكون منسكاً في وسط تلك الربوع الهادئة، وأقامتا هناك في حياة نسكية. وسرعان ما جذب هذا المنسك إليه -على الرغم من خشونة الحياة فيه- عذارى من كبرى العائلات في كبادوكية.

ونحو سنة ٣٥٨م، حينما كان باسيليوس دون الثلاثين من عمره، ترك قيصرية ليبحث عن النساك المشهورين ليحتذى بهم. فزار منطقة الأسكندرية وصعيد مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين. وقد أثار إعجابه شدة زهد وتقشف هؤلاء النساك الذين قابلهم، خاصة في مصر وفلسطين. أثار دهشته فيهم ضبط النفس واحتمال النسك ومقدرتهم على الصوم والسهر واحتمال العري والبرد. والطريقة الخارقة للعادة التي يعاملون بها أجسادهم كأنها مأوى غريب يقيمون فيه لفترة ما، وقد سجّل إعجابه هذا بعد ذلك في إحدى رسائله[١]. وهكذا ظل يدرس لمدة سنتين تقريباً التقاليد الرهبانية المثالية التي ترجع إلى القديس أنطونيوس الكبير أب الرهبان[٢]. وكان ما رآه في حياة الرهبان والمتوحدين خلال رحلاته حاثّاً له على الإسراع في الحياة النسكية، فباع ما يخصه من أملاك ومقتنيات ووزعها على الفقراء والمحتاجين، وبدأ يفكر في أنسب الأمكنة لتوحده.

فكر أولاً في تأسيس دير في إقليم تبرينا بجوار أرينانزوس موطن صديقه غريغوريوس، ثم عاد فاختار بقعة في البنطس تسمى أيبورا على نهر الأيرس، لما تمتاز به من

([1]) Basi.I,EPPs. 207,223.

([2]) Bass.EP 223.

جمال طبيعي خلاب وهدوء شاعري وربما فعل هذا حتى يستميل صديقه غريغوريوس إلى التوحد معه في البنطس. كان هذا المكان على مقرب من المنسك الذي تعيش فيه أمه إماليا وأخته ماكرينا مع بعض العذارى التقيات المثقفات.

وكتب إلى صديقه غريغوريوس يقول: «لقد أرشدني الله إلى منطقة تتفق تماماً وطريقتي في الحياة. إنها حقاً ما كنا نتوق إليه في أحلام يقظتنا. إن ما كان الخيال يظهره لي بعيداً أصبحت أراه الآن أمامي. جبلٌ عال تكسوه غابةٌ كثيفة، ترويها في الشمال جداول دائمة الجريان، وعند سفح الجبل يمتد سهل فسيح كثير الفاكهة نتيجة للأبخرة التي ترطبه. أما الغابة المحيطة حيث تتنوع الأشجار وتزدحم، فهي تعزلني عن العالم كما في قلعة حصينة. والبرية محاطة بواديين ضيقين عميقين. على أحد جانبيهما ينحدر مجرى الماء بقوة من الجبل مكوناً حاجزاً من الصعب عبوره. وعلى الجانب الآخر حافة فسيحة تجعل الاقتراب منه أمراً صعباً ويقع كوخي على القمة، وبذا أُشرِف على السهل الفسيح كما على طريق الأيرس... هل أحدثك عن الطيور المغردة الجميلة والنباتات الغنية بأزهارها؟ لكن ما يبهجني أكثر من كل ذلك هو السكون الذي يخيم على المكان، لا يقطعه إلَّا بعض الصيادين الذين يأتون من وقت لآخر لصيد الماعز البري والأيائل التي تكثر في البرية. كيف استبدل هذا المكان بآخر؟!».

هذه الصورة الخيالية تشير إلى أن تلك الحياة النسكية كان لها جانبها المثالي والشاعري بالنسبة إلى العقول المثقفة. بل إنها تكشف لنا عن إحساس باسيليوس المرهف وتذوقه للفن وجمال الطبيعة، في ذلك مع المسيحية التي ترى في الطبيعة وما فيها من جمال كتاباً مفتوحاً تقرأ فيه عن قدرة الخالق وحكمته وإنعامه.

والحق أن القديس باسيليوس كان يعشق الطبيعة، وله تأملات كثيرة في السماء، والنجوم، والطيور وأجناسها، والأسماك والحيوان، والنباتات وغيرها. كان يصفها وصف عالم عاكف على دراستها. وكان يرى حكمة الله وراء جميعها، يقول: «إذا كنت في حدود الليل تتأمل الجمال الآخاذ الذي للنجوم. فإنك ترى الفنان الذي صمَّمها وزيَّن

السماء بهذه الورود. وإذا كنت في الصباح المبكر، تتعلم عن عجائب النهار، وخلال الأشياء المنظورة – تصل إلى غير المنظور».

في تلك البقعة الهادئة، اعتقد القديس –وقد تحرر من كل اهتمامات الحياة العالمية ومعطلاتها وتشتت الفكر فيها– إنه يستطيع أن يخدم الله حسناً. يقول: «ما هو أكثر غبطة من مشابهة الملائكة على الأرض؟! في بدء النهار ينهض الإنسان للصلاة وتسبيح الخالق بالتراتيل والأغاني الروحية. ومع شروق الشمس يبدأ العمل مصحوباً بالصلاة أينما ذهب مملحاً كل عمل بالتسبيح. إن سكون الوحدة هو بدء تنقية النفس، والعقل إن لم يضطرب لأي شيء ولم يتشتت عن طريق الحواس في أمور العالم يرتد إلى ذاته، ويرتفع إلى التفكير في الله». هناك في الوحدة وجد في الأسفار المقدسة –كما في مخزن الأدوية– العلاج الحقيقي لعلته.

بدأ في خلوته في البنطس نظاماً نسكياً شديداً يبدو أنه تسبب في ضعف صحته ضعفاً شديداً، الأمر الذي شكا منه مراراً كثيرة في رسائله، ولكن من الإنصاف للحقيقة أن نقول إنه تحدث عن ملازمة المرض له منذ طفولته.

أما عن طعامه، فلم يكن يتناول أكثر مما كان ضرورياً فعلاً ليسد رمقه من أفقر الأطعمة، وبعض الأحيان لم يكن ذلك الطعام شيئاً سوى الخبز والماء[١]. وحتى بعدما أصبح رئيس أساقفة، ما كان يطهي لحماً في مطبخه. كان يملك ثوباً خارجياً وآخر داخلياً فقط، وكان يرتدي في الليل مسحاً من الشعر ينام به، ولم يكن يرتديه بالنهار لئلا يبدو متظاهراً بالنسك. وكان ينام قليلاً. وكانت الشمس مدفأته في تلك المناطق التي يشتد بردها بعنف[٢]، ويقول عنه شقيقه القديس غريغوريوس أسقف نيصص إنه كان يقمع جسده ويستعبده كقول الرسول بولس، بل أنه كان يعامل جسده كما يعامل سيد

([1]) Greg. Naz. Or 20.

([2]) Greg. Naz. Or 20.

غضوب عبداً هارباً، وهكذا أضنى جسده من صرامته النسكية، فذوت صورته، وكان ذلك بمثابة بذور الأمراض التي أودت بحياته كشهيد في أواخر حياته. ويصفه صديقه القديس غريغوريوس النيازينزي في تلك الحال فيقول «كان بلا زوجة، بلا قنية، بلا لحم، ويكاد يكون بلا دم»(١).

وسرعان ما عُرِفَ باسيليوس في حياته الجديدة وذاعت قداسته، فأصبح نواة تجمع حوله نساك البنطس وكبادوكيا. ولم يكن هو أول من أدخل الحياة الرهبانية إلى البنطس، فقد سبقه إلى ذلك يوستانيوس الذي من سبسطية، الذي سجل باسيليوس إعجابه بشخصيته النسكية، لكن نظام الجماعات الرهبانية أو نظام الشركة في تلك الاصقاع، يُعزى إلى القديس باسيليوس فضل إظهاره، ويعتبر هو المؤسس له هناك دون شك، وما لبث أن انتشر مثاله، فتأسست جماعات من النساك العمالين من الجنسين من جميع أنحاء البنطس، وكان كل منها مركزاً فعالاً في التبشير بمعتقد مجمع نيقية المقدس والدفاع ضد الأريوسية.

وقد نجح القديس باسيليوس في جذب صديقه غريغوريوس إليه، وواظبا معاً على الصلاة والدراسة والعمل اليدوي، وجمعا مختارات من كتابات أوريجانوس عُرِفَت فيما بعد باسم الفيلوكاليا *Philocalia*، وأخذ من كتاباته مادة لتدعيم الإيمان الأرثوذكسي ضد الأريوسية.

في ميدان الخدمة العامة:

وحتى ذلك الوقت لم يلاحَظ أن القديس باسيليوس اشترك في نشاط عام، بل كان قابعاً في خلوته في البنطس بالصورة التي ذكرناها، ثم ترامى إلى سمعه أن ديانيوس رئيس أساقفة قيصرية قد قبل قانون إيمان أريوسي يدعى أريميني *Ariminum* فترك

---

(1) Greg. Naz. Or 19.

القديس خلوته ومضى إلى ذلك الأسقف ونبهه إلى زلته، فرجع وقبل الإيمان النيقاوي وهو على فراش الموت. وتنيح ديانيوس وخلفه أسابيوس.

أقنع غريغوريوس النزينزي صديقه باسيليوس بالذهاب إلى قيصرية لمعاونة أوسابيوس، فذهب إلى هناك ورُسِمَ قساً بيد أوسابيوس سنة ٣٦٤م بعد تمنع شديد نتيجة لشعوره بعدم الأهلية لتلك الرتبة السامية. وحوالي ذلك التاريخ كتب كتبه ضد يونوميوس *Eunomius*، وربما كان عمله هذا هو الذي زكاه لدى أوسابيوس.

وصار باسيليوس الشخصية ذات الأثر الأكبر في كل الإيبارشية، وكان هذا عاملاً على إظهار ضعف شخصية أوسابيوس، الأمر الذي أدى إلى فتور العلاقات بينه وبين أسقفه. وسرعان ما زاد هذا الفتور حتى انتهى إلى القطيعة، فعاد باسيليوس إلى منسكه يصحبه صديقه غريغوريوس، وهناك أمضى الصديقان ثلاث سنوات في الوحدة عكف خلالها على الكتابة ضد الامبراطور يوليانوس الذي ارتد عن المسيحية مصاباً بنكسة هيلينية.

ولما ارتقى العرش الامبراطور فالنس الأريوسي، حاول بكل سلطته أن ينشر هذا المعتقد الفاسد. وفي هذه الأزمة طالب الشعب بعودة باسيليوس، فحاول أوسابيوس أن يستميل غريغوريوس ليكون بجانبه، لكن هذا الأخير رفض العودة بدون باسيليوس، وكان مما كتبه إلى أوسابيوس قوله: «أتكرمني بينما تهينه؟ إن هذا يعني أنك تربت عليَّ بيد وتلطمني بالأخرى. صدقني، إن عاملته كما يستحق فسيكون لك فخر. وأنا سأتبعه كما يتبع الظل الجسم» وأخيراً –بفضل مجهودات غريغوريوس أيضاً– تم التوفيق بينهما. وعاد باسيليوس إلى قيصرية على أهبة الاستعداد للتعاون بكل إخلاص مع أوسابيوس مستخدماً كل فصاحته وعلمه لإحباط الأريوسيين، وقد نظم المقاومة الأرثوذكسية ضد الأنوميين الذين كانوا جادين في نشر معتقدهم في كل آسيا الصغرى، وكرس جهوده في إزادة قوة الإيبارشية مؤيداً سلطة أوسابيوس رئيس الأساقفة معاملاً إياه بما يليق بمركزه وسنه من إكرام. وأثبت باسيليوس بذلك أنه –على حد تعبير غريغوريوس– غدا عكاز

شيخوخة، ودعامة الإيمان الأرثوذكسي، وأكثر الأصدقاء وفاء وأكثر الخدام كفاءة(١).

ولم تكن الاحتياجات اللاهوتية وخدمة الكنيسة في زمن باسيليوس لتمنعه من تكريس جزء كبير من طاقته لأعمال الرحمة. فمن المحتمل أن المؤسسة العظيمة التي أقامها في ضواحي قيصرية لعلاج المرضى وإراحة المسافرين والفقراء، قد وضع تصميمها -إن لم يكن قد بدأ فيها- في أواخر سني قسيسيته. وقد عُرفت هذه المؤسسة أخيراً باسم باسيلياد *Basiliad*، وكانت بمثابة المؤسسة الأم، وسرعان ما قامت مؤسسات أخرى مشابهة في المناطق القروية للإقليم يشرف على كل منها خوري أبسكوبس.

ومن أبرز الحوادث في تلك الفترة، المجاعة التي اجتاحت كل الإقليم سنة ٣٢٨م، وفي خلالها كان باسيليوس مثال الخادم الذي يضع نفسه من أجل مخدوميه. فلم يكتفِ بحثِّ الأغنياء والتجار الجشعين على الرحمة، وإنما باع ممتلكاته التي كانت قد آلت إليه مؤخراً بعد انتقال أمه ووزعها على المحتاجين، وخدم بشخصه احتياجات المتألمين. وكان الخدم يحضرون إليه أكواماً من الأطعمة يوزعها بيديه بينما يعزِّي بكلماته المتضايقين ويشجع المتألمين.

القديس باسيليوس رئيس الأساقفة:

نحو منتصف سنة ٣٧٠م توفى أوسابيوس رئيس أساقفة قيصرية، وبانتقاله أصبح الكرسي خالياً اصطلاحاً، لأن الشخصية التي شغلته من الناحية الرعوية كانت ما زالت على قيد الحياة. وكان واضحاً أن نصرة الأرثوذكسية في كل آسيا الصغرى هي في أن يشغل باسيليوس هذا المنصب.

ولكن، أي طريق كان على باسيليوس أن يسلكه؟ هل ينسحب في هدوء أو يرشح آخر دونه، وفي ذلك ما فيه من إضرار بقضية الإيمان؟ وإذ أراد أن يتخلص من

(1) Greg. Naz. Or 20.

هذا المأزق، أرسل إلى صديقه غريغوريوس يلح عليه في الحضور بحجة اعتلال صحته، وإن كان قصده في الحقيقة ترشيحه لذلك المنصب، وأسرع صديقه قاصداً قيصرية ليكون إلى جواره، ولكنه شعر أن هناك شيئاً غامضاً في الموضوع، وإن المسألة ليست مسألة مرض باسيليوس، فقطع رحلته وعاد ثانية إلى نيزينزا.

وقد قام غريغوريوس الأسقف (والد غريغوريوس النيزينزي) وكان شيخاً وقوراً بدور هام في هذا الموضوع. فقد أملى على ابنه غريغوريوس خطاباً إلى الكهنة والرهبان والحكام والشعب في قيصرية يدعوهم إلى اختيار باسيليوس. كما أرسل خطاباً آخر إلى الأساقفة الذين لهم حق الانتخاب يحضهم فيه ألا يجعلوا ضعف باسيليوس الصحي حائلاً دون انتفاع الكنيسة بمواهبه وتفوقه الملحوظ في الروحيات والعلوم الكنيسية. وكان أكثر الأساقفة نفوذاً هو أوسابيوس أسقف ساموساط، فكتب إليه غريغوريوس العجوز مقنعاً إياه بضرورة زيارة قيصرية وأن يأخذ على عاتقه توجيه الرأي العام لهذه المهمة.

وكانت قيصرية منقسمة إلى معسكرين: كان جميع الناس الأخيار مع الكهنة والرهبان يؤيدون انتخاب باسيليوس بحماس كبير. أما معارضوه فكانوا يتألفون من الأساقفة الأريوسيين، وبعض ذوي الغنى والمراكز ممن كانوا يعيبون عليه إنكاره لذاته وزهده، وبعض الأشرار والفجار لمقاومته لهم وتوبيخه إياهم. أما بالنسبة إلى شعب قيصرية فقد كان باسيليوس الرجل الروحاني ذا المقدرة العظيمة الذي يستطيع صد تيار الهرطقات. وقد استطاع أوسابيوس بنفوذه أن يتغلب على كل الصعاب. وانتهى الموضوع بوصول الشيخ الوقور غريغوريوس، الذي حالما علم باحتياج باسيليوس إلى صوت واحد ليحصل على النصاب القانوني لانتخابه، غادر فراش مرضه محمولاً على نقالة إلى قيصرية مخاطراً بنفسه، واشترك في رسامة باسيليوس وإجلاسه على كرسيه، وكان ذلك سنة ٣٧٠م.

كان لرسامة باسيليوس رنةُ فرحٍ في كل العالم الأرثوذكسي، حتى أن البابا أثناسيوس الرسولي بطل الإيمان أرسل من الأسكندرية مهنئاً كبادوكية بهذا التوفيق. أمّا في

القسطنطينية، فقد قوبلت رسامته بمشاعر مختلفة، إذا شعر الإمبراطور فالنز أنها صدمة خطيرة له وللأريوسية؛ لأن باسيليوس لم يكن خصماً يستهان به. فهو –فضلاً عن قوة شخصيته– كان نفوذه كرئيس أساقفة قيصرية يمتد إلى ما وراء حدود المدنية ذاتها. فكان رئيساً على أساقفة كبادوكية كلها، وله نفوذه في بلاد البنطس وفي أكثر من نصف آسيا الصغرى، وكانت تنضوي تحت لوائه نحو إحدى عشر مقاطعة، وكانت أنقرا وقيسارية الجديدة وتيانا وأسقفيات أخرى تعتبره الرئيس الكنسي لها.

الصعاب التي واجهته في أسقفيته:

أولاً – الأساقفة:

كان هناك فريق من الأساقفة قد رفضوا الاشتراك في رسامته، وهؤلاء تحولوا من العداء المكشوف إلى المقاومة السرية، وكانوا يعاملونه باستخفاف، مظهرين رغبتهم التامة في مشاركته في كل خططه، وقد شكا هذه الحالة أوسابيوس الساموساطي وكان هذا المسلك غير المخلص من جانبهم سبباً في ازدياد مرضه. لكنه تمكن على أية حال من التغلب على معارضيه في سنوات قليلة بالحزم الممتزج بالعطف.

ثانياً – تقسيم كبادوكية:

صممت حكومة الإمبراطور على تقسيم كبادوكية إلى إقليمين، وكان المقصود من ذلك إضعاف مدينة قيصرية، أو بالأحرى إضعاف باسيليوس وقد اختيرت مدينة تيانا لتكون العاصمة الجديدة للإقليم الثاني.

فطالب أنثيموس أسقف تيانا بتقسيم كنسي يتبع التقسيم الإداري، وبأن تتمتع تيانا بامتيازات المدينة العاصمة كما تتمتع قيصرية. أما القديس باسيليوس فعوَّل على مقاومة ذلك المطلب إلى النهاية، وحدث نزاع بينه وبين أنثيموس ولكي يقوى موقفه سام صديقه غريغوريوس على سازيما وهي قرية مغمورة تقع عند مفترق الطريق الذي يؤدي

شمالاً من تيانا إلى دورا ثم ينحني غرباً إلى نيزينزا. كما سام أسقفاً على دوراً. وسام أخاه غريغوريوس على نيصص. ولم يثبت في أسقفيته من هذه السيامات الثلاثة غير أسقف نيصص الذي بعد أن طرده منها الأريوسيين، تمكن بشهرته وقوته من العودة إليها. أما سازيما فأعيدت إلى أسقفية تيانا، واعتزل غريغوريوس أسقفيتها بمرارة وسبب له ذلك الحادث جرحاً لازمه حتى نهاية حياته. أما في دورا، فقد طرد أيضاً الأسقف الذي سامه باسيليوس.

ثالثاً – الإمبراطور فالنز:

لم يمض على القديس باسيليوس أكثر من اثنى عشر شهراً في أسقفيته، حتى جاء إلى صدام علني مع الإمبراطور فالنز الذي كان يعبر آسيا الصغرى مصمماً على ملاشاة الإيمان الأرثوذكسي وإحلال الأريوسية محله. وهو الآن يقترب من قيصرية مصمماً على إخضاع بطل الأرثوذكسية في تلك الجهات. وكان تقدمه مظهراً من مظاهر انتصاره، فقد ضعف أمامه كثيرون، وقاومت بثينية فصارت مسرحاً لمآسٍ مرعبة. أما غلاطية المترددة فقد استسلمت دون مقاومة. وكان مصير كبادوكية يتوقف على باسيليوس. نصحه البعض أن ينحني أمام العاصفة، ويهدئ من روع الإمبراطور بخضوع وقتي. ولكنه رفض مشورتهم بإباء تشوبه الغيرة المقدسة.

دخلت حاشية الإمبراطور على القديس باسيليوس بتهديدات شديدة، وكان أشدهم وقاحة ديموستينيز رئيس المطبخ الذي هدده بالسكين. فقابل القديس تهديداته بصرامة هادئة.

ثم تلاه مودستس حاكم برايتوريوم. وقد أرسله فالنز إلى القديس باسيليوس يخيره بين أمرين: إما العزل وإما الاشتراك مع الأريوسيين. فاستدعاه مودستس وباسم الإمبراطور طالبه بالخضوع، وباسم الله رفض القديس الأمر، فهدده مودستس بمصادرة أملاكه وبالتجويع والنفي والتعذيب والموت. فكان رد القديس على هذه الإهانة أن لا شيء من هذه التهديدات يرهبه، فليس له شيء يصادر سوى قليل من الخرق وبعض الكتب. أما

النفي فلا يمكن أن يبعث به إلى ما وراء أراضي الله، إذ الأرض كلها دار غربة بالنسبة إليه. أما التعذيب فلا يخيف جسماً مات بالفعل. أما الموت فإنه يكون كصديق يأتي ليصحبه في آخر رحلة إلى الوطن الحقيقي وينقله للحال إلى الله الذي يحيا له. وما أن سمع مودستس هذه الإجابة حتى صاح في دهشة ممزوجة بكبرياء معلناً أن أسقفاً لم يكلمه قط بمثل هذا الكلام. فأجابه القديس في هدوء: «ذلك لأنك لم تقابل أسقفاً حقيقياً». ولما لم يفلح مودستس في تهديده أخذ يعده بكرامات وبصداقة الإمبراطور وبتحقيق كل مطالبه. لكن شيئاً من كل ذلك لم يُلِن عزيمة باسيليوس الحديدية. فأسرع مودستس إلى سيده ورفع تقريره الذي قرر فيه «أن الوسائل المتبعة في الإرهاب بدت غير قادرة على تحريك هذا المطران الباسل. والشدة هي السبيل الوحيد الذي يتبع مع ذاك الذي لم يُجدِ معه التهديد والملاطفة على السواء، لكن فالنز -ككل المخلوقات الضعيفة- تذبذب بين الإرغام والإذعان، ورفض استخدام العنف ضد باسيليوس وجعل طلبه منه متوسطاً، أن يسمح للأريوسيين بالاشتراك معه. وهنا أيضاً لم يَلِن باسيليوس ولم يتراجع عن موقفه، ولكي ينفذ الإمبراطور ما أراد، قصد إلى الكنيسة الرئيسية في قيصرية يوم عيد الظهور الإلهي سنة ٣٧٢م بعد بدء الخدمة. فوجد الكنيسة زاخرة بالمصلين، تتجاوب أصداء تسابيحهم كالرعد، لم يقطعها دخول الإمبراطور وحاشيته، وكان القديس باسيليوس واقفاً في الهيكل ووجهه نحو الشعب، يحيط به الكهنة وخدام المذبح في شكل شبه دائري. وكان جو الكنيسة سماوياً أكثر منه أرضياً. وكان حماس العبادة المنظمة أليق بالملائكة من البشر. كان الموقف رهيباً حتى أن الإمبراطور اضطرب. وحين حان الوقت ليقدم تقدمته، تردد الخدام في قبولها لأنة هرطوقي، فلما لم يتقدم أحدهم لأخذها، اهتز الإمبراطور وكاد يسقط لولا معاونة أحد الكهنة. ويبدو أن باسيليوس تراءف على ضعف خصمه، فقبل التقدمة من يده المرتعشة.

وفي اليوم التالي زار فالنز الكنيسة أيضاً، وأصغى باحترام إلى عظة القديس باسيليوس. وبعد نهاية الاحتفال ناقشه القديس في الإيمان الأرثوذكسي. وبدأ أنه مال أن يكون صديقاً لباسيليوس، ومنحه أراضي تُوقَف لنشاطه الخيري.

محاولة نفي القديس باسيليوس:

كان الوفاق ظاهراً بين فالنز وباسيليوس، فالقديس لن يسمح للأريوسيين بالاشتراك معه، والإمبراطور لن يطيق الرفض، وحينما ظل القديس مصمماً على رفض قبول الأريوسيين في شركة الكنيسة، لم يجد هؤلاء كبير عناء في إقناع فالنز أن نفي باسيليوس ضروري لسلام الشرق.

استسلم الإمبراطور للمشورة وأمر بنفي باسيليوس. وأعد القديس عدته للرحيل، ورتب أن يكون ذلك ليلاً تجنباً لأخطار الاضطرابات الشعبية. كانت المركبة في انتظاره على الباب، وإذا بأمر النفي يُوقَف! لقد مرض غلاطس ابن فالنز الوحيد مرضاً مفاجئاً وخطيراً، وعزت أمه دومينيكا مرضه إلى الأمر بنفي القديس، فأرسل الإمبراطور اثنين يتوسلان إلى القديس أن يصلي للطفل المريض الذي لم يكن قد تعمَّد بعد. فاشترط القديس قبل ذهابه أن يعمِّد الطفل -بعد شفائه- على يد كاهن أرثوذكسي وأن يلقن الإيمان القويم. وشفي الطفل بصلاة القديس، ولكن الإمبراطور حنث بوعده وعمَّد الطفل على يد أسقف أريوسي، فساءت حالة الطفل ومات في تلك الليلة[١].

ومرة أخرى استسلم فالنز لضغط أعداء باسيليوس، ولكن في تلك المرة رفض القلم أن يطاوع الإمبراطور، وقُصِفَ أكثر من مرة في يده المرتعشة، مما جعله يمتلئ خوفاً ورعباً، فعدل عن عزمه، وبقي القديس سيد الموقف[٢].

وبالإضافة إلى محاولات النفي، تعرض القديس لإهانات كثيرة من الحكام الإقليميين. أما مودستس عدوه القديم، فقد أصيب بمرض خطير قصد القديس باسيليوس ليصلي عليه، وفعلاً نال الشفاء وصار صديقاً. وازداد نفوذ القديس جداً بسبب ذلك

([1]) Theod, iv, Greg. Or. 20.

([2]) Theod.iv,Eghr U.S.P.65.

حتى أن الناس كانوا يأتون من مسافات بعيدة طالبين وساطة القديس لديه.

الاضطرابات في السنوات الختامية:

كانت سنو حياة القديس الأخيرة مظلمة –ليس فقط بالمرض– ولكن أيضاً بوفاة بعض أصدقائه وحلفائه الأساسيين، ففي سنة ٣٧٣م انتقل القديس أثناسيوس الرسولي. وفي سنة ٣٧٤م انتقل الشيخ الوقور غريغوريوس أسقف نيزينزا، ونفي أوسابيوس الساموساطي.

ورفع الأريوسيون رؤسهم ثانية. عقدوا مجمعاً في أنقرا أدانوا فيه أصحاب عقيدة المساواة في الجوهر! واتخذوا إجراءات كيدية ضد القديس غريغوريوس أسقف نيصص، كان الغرض منها جرح باسيليوس في شخص أخيه، وانتهوا إلى عقد المجمع في نيصص ذاتها حيث حُكِم بإدانة غريغوريوس وعزله، ونفي بعد ذلك بوقت ليس بطويل.

نياحة القديس:

لم يعد جسمه قادراً على تحمل الأعباء، فقد مزَّقه العمل المتواصل والمرض، وكانت توجد في كبده حالة مزمنة كانت مثار ألمه وشكواه دائماً، كما كانت قسوة الشتاء تحجزه أحياناً كثيرة كسجين في منزله، بل وفي حجرته.

في سن الخامسة والأربعين دعا نفسه عجوزاً. وفي السنة التي تلتها خلع أسنانه. وفي شتاء سنة ٣٧٨م اقترب إلى الموت. وانتشر النبأ، ووصل الأساقفة إلى قيصرية. كان يعالَج بحمامات ماء ساخن، ولكن فائدتها كانت ضئيلة. وأخيراً لم يعد العقل الجبار ولا الحماس الملتهب نحو الواجب قادراً على تحريك طاقات ذلك الهيكل الضعيف. وأحاطت الجموع بالمكان الذي كان يرقد فيه. لتصلي بحماسة لكي يبقى معهم وكانوا مستعدين أن يعطوا حياتهم لأجله.

وفي يوم أول يناير سنة ٣٧٩م سُمِعَ يخاطب الله قائلاً: «بين يديك أستودع روحي». وللحال انطلق الروح العظيم... وكانت جنازته مشهداً لمشاعر القلوب الجياشة والوقار الذي يذهل العقل. شغلت الجموع كل فسحة، كل دهليز، كل نافذة، واشترك الوثنيون واليهود مع المسيحيين في تشييعه وغطت أصوات البكاء والعويل موسيقى التراتيل الدينية. ودفن القديس في قيصرية، وانضم إلى أبائه.

صفاته:

من أبرز صفات القديس باسيليوس «المحبة»، المحبة في شتى صورها لله وللكنيسة وللآخرين... كتب مرة إلى أسقف صديق يقول: «إننا نشعر بجوع متزايد نحو الحب... إننا في حاجة إلى أخوة أكثر مما تحتاج يد إلى أخرى». وكان استلامه رسالة من صديق بمثابة «الماء لجواد السباق المتعَب" كما عبَّر هو عن ذلك. ويقول في إحدى رسائله: «إن الشخص الذي يفكر في نبذ صديق، عليه أن يفكر طويلاً ويمضي الليالي قلقاً بدون نوم، يطلب إلى الله بدموع أن يرشده إلى الحق» (Ep. 223).

وعلى ضوء هذه المحبة، يمكننا أن ندرك مقدار الحزن الذي سببته حالة الكنيسة في أيامه إلى روحه المملوءة حباً وتقوى. وقد كان قصده بالإضافة إلى رد الكنيسة إلى المعتقد القويم –أن يسود عليها روح المحبة نتيجة لوحدتها، وقد أثر مسلك الكثيرين الخاطئ على صحته.

+ أما عطفه على الفقراء والمرضى، فكان عظيماً. لقد عاش فقيراً باختياره متشبهاً بسيده، ومن ثم أحب الفقراء. وكان يشكو المرض معظم وقته، ولذا أحب المرضى، وعطف عليهم وليس أدل على ذلك من مستشفاه العظيم الذي أسسه بجوار قيصرية، والذي عرف باسم باسيلياد وكانت تُبذل فيه عناية خاصة بالمجذومين الذين حُرِموا من العناية في كل تلك الأصقاع، والذين لم يأنف من تقبيلهم أحياناً إظهاراً لحنانه العظيم عليهم.

+ أما عن «زهده وتقشفه»، فعلى الرغم من مرضه الطويل ومن عمله المضني، لم يكن يتناول غير وجبة واحدة في اليوم من الخضروات والخبز والماء.

+ ولعل من أبرز صفاته أيضاً «شجاعته» النادرة، وقد عرضنا فيما سبق لوقفاته المشرفة أمام الامبراطور الأريوسي فالنز وحاشيته، وسبقتها وقفات أيضاً ضد الامبراطور يوليانوس المرتد، وكيف كرس وقته في وحدته لتصنيف الكتب ضده. عرف الناس فيه هذه الصفة، فلجأوا إليه واحتموا به من الحكام.

+ وهناك ناحية متميزة في طبيعته الفكرية وهي: حرصه على إتمام كل شيء. كان عدواً بطبيعته لأي شيء غير مكتمل. وهذا الحب الشديد للكمال هو السر فيما خلَّف لنا من تصانيف.

+ وقد تميز أيضاً بالفصاحة سواء كخطيب منبري أو كاتب بليغ، كان يتابع الفكرة بكل قوة العاطفة السامية، وسحر البيان، واقتناع المختبر، وفي يسر هائل، وحين كان يعظ كانت كلماته ذات تأثير عجيب. وقد أقر بفصاحته محكِّمون أكفاء ورفعوا منزلته أكثر من خطباء اليونان المشهورين.

باسيليوس والكتاب المقدس:

على الرغم من أنه تأثر بالعلامة أوريجانوس أكثر من أي معلم آخر، إلَّا أنه لم يتبع الطريقة الرمزية في التفسير، تلك التي كان أوريجانوس أستاذاً لها. أما طريقته فكانت الفهم الحرفي للكلمات. والمواضع التي استخدم فيها التفسير الرمزي نادرة من أمثلتها (مز ٢٩: ٦)، حيث فسر «وحيد القرن» بأنه يرمز إلى الرب يسوع المسيح الوحيد في طبيعته والواحد مع أبيه. وكان القديس باسيليوس يمضي أوقاتاً طويلة في دراسة الأسفار المقدسة ويدعو المسيحيين إلى الإكثار من قراءة الكتاب المقدس وخاصة العهد الجديد.

نشاطه الرعوي:

كان تحت رئاسته خمسون أسقفاً[١]. وعلى الرغم من صحته المعتلة، ومشاغله الكثيرة وكفاحه المتواصل، وتصانيفه العديدة، كان دائب النشاط في افتقاد إيبارشيته وتوابعها. وقد كشفت زياراته الافتقادية عدداً من المخالفات الكنسية والأوضاع غير القانونية. وحتى يعالج هذه المشاكل من أساسها، جعل ذاته –بقدر إمكانه– المسيطر على الانتخابات الأسقفية، ورفض بحزم أن يسيم أي شخص غير جدير بهذه الرتبة السامية. فطارت شهرة معاونيه حتى أن الأساقفة الآخرين أرسلوا يطلبون منه رعاة ليكونوا مساعدين لهم (Ep.81.). وقد حافظ على الاتصال المستمر بكل مرؤسيه ومعاونيه وأصدقائه الخصوصيين عن طريق الرسائل، وكان هؤلاء على أتم استعداد لتنفيذ كل تعليماته. وقد مد نشاطه الرعوي إلى حدود أرمينيا. أما نشاطه في الوعظ فكان عظيماً جداً، ليس في قيصرية والمدن الكبيرة فحسب، بل حتى في قرى الأقاليم.

باسيليوس في نظر معاصريه:

كان القديس باسيليوس –باستثناء البابا أثناسيوس الرسولي– أقوى من أيٍ من معاصريه الذين شغلوا مناصب في الكنيسة. وقد طارت شهرته إلى ما بين النهرين حيث كان مار أفرام السرياني فاشتاق ذاك أن يراه. وفيما هو كذلك رأى يوماً عموداً من نور وسمع صوتاً يقول: «هذا هو باسيليوس الكبادوكي». فازداد شوقه إلى رؤيته والتبرك منه، فقام وذهب إلى قيصرية ودخل الكنيسة يوم الأحد، وكان القديس باسيليوس يقوم بخدمة القداس الإلهي. وفي أثناء العظة شاهد كلمات القديس خارجة من فمه وكأنها ألسنة نارية صغيرة تستقر في قلوب السامعين. وفي أثناء القداس رأى فمه كأنه ملتهب ناراً، كما أبصر حمامة جالسة على منكبه اليمين. أما القديس باسيليوس فعلم بالروح بوجود مار

---

(1) Schaff: vol.3.p.900.

أفرام في الكنيسة فأرسل إليه شماساً واستدعاه وتبارك كل من الآخر.

وقد مدحه آباء كثيرون، منهم ثيؤدوريت الذي قال عنه إنه «القديس العالم، نور العالم وليس كبادوكية وحدها"، وصفرونيوس الذي وصفه بأنه مجد الكنيسة. وتكلم عنه إيسيذوروس الفرمي كإنسان موحى إليه من الله. أما صديقه القديس غريغوريوس النزينزي (الثيؤلوغوس) فقد أفرد له مديحاً طويلاً جاء فيه «... لقد ناظر بطرس في غيرته، وقوة بولس وإيمانه، والنطق السامي الذي لابني زبدي، واعتدال وبساطة جميع الرسل. ولذا فقد أؤتمن أيضاً على مفاتيح الملكوت... وهو لم يُدعَ -لكنه أصبح- ابن الرعد، وإذ اتكأ في حضن يسوع، جذب من هناك قوة كلمته وعمق أفكاره. وفي فضائله المتعددة الجوانب فاق كل رجال عصرنا...».

كتابات باسيليوس:

أولاً: العقيدية:

أ – ضد يونوميوس: وهي خمس كتب مدحها القديسان جيروم وغريغوريوس النزينزي.

ب – عن الروح القدس: في ٣٠ فصلاً مرسلة إلى أمفلوخيوس حسب طلبه، وهي المنشورة في هذا الكتاب.

ثانياً: التفسيرية:

أ – الأكسيماروس *Hexameron*: وهو من أشهر كتبه، ويشمل ٩ مقالات كانت عبارة عن عظات عن ستة أيام الخليقة.

ب – ١٧ مقالة عن المزامير: الأول عن المزامير عامة ترجمها روفينوس إلى اللاتينية، والبقية التي وصلت إلينا عن المزامير: ١، ١٧، ١٤، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨،

٥٩، ٦١، ١١٤.

جـ – تفسير الـ ١٦ أصحاحاً الأولى من سفر إشعياء.

ثالثاً: المقالات:

وتشمل ٢٤ مقالة في موضوعات عقيدية، وأدبية، ومديح.

رابعاً: الرسائل:

وتشمل حوالي ٤٠٠ رسالة في موضوعات تاريخية، عقيدية، أدبية، تعليمية، تفسيرية، قانونية، ورسائل للتعزية، وأخرى عادية.

خامساً: الليتورجية (صلاة القداس):

توجد ٣ ليتورجيات تحمل اسم القديس باسيليوس، إحداها هي الليتورجية المستعملة في كنيستنا.

سادساً: النسكيات:

وتشمل مسائل عامة وقوانين كنسية. وقد قام دير السريان بوادي النطرون بنشرها في مجلد سنة ١٩٦٠.

يوأنس

بنعمة الله أسقف الغربية

كتاب القديس باسيليوس

عن الروح القدس

كُتِبَ حوالي ٣٧٥م أي قبل انعقاد المجمع المسكوني الثاني سنة ٣٨١م الذي ناقش الانحرافات الخاصة بالروح القدس، وأُكمل الجزء الخاص بالروح القدس في قانون الإيمان النيقاوي ٣٢٥م، ولذلك يجيء هذا الكتاب الهام في سلسلة متكاملة للدفاع عن الإيمان الرسولي، فقد سبقته رسائل القديس أثناسيوس لسرابيون عن الروح القدس، ثم كتاب ديديموس الضرير، وبعده كتاب باسيليوس، ثم كتاب أمبروسيوس، والذي اعتمد فيه على ما سجله باسيليوس لا سيما «التسليم الرسولي غير المكتوب».

من زاوية تاريخية بحتة يصبح الإدعاء بأن إلوهية الروح القدس اختُرِعَت في المجمع المسكوني الثاني ٣٨١م من الأخطاء الفادحة التي يروجها ضعاف العقول، الذين لا يعرفون شيئاً عن تاريخ الكنيسة أو اللاهوت المسيحي.

لقد كتب الكتاب دفاعاً عن الذكصولوجية التي كانت تُستَعمل في كنائس آسيا الصغرى، ويهمنا أن نسجل أن هذه الذكصولوجية كانت تُستعمل في الصلوات وفي اجتماعات الكنيسة وبشكل خاص في الإفخارستيا.

وشاعت في الكنيسة شرقاً وغرباً الذكصولوجية القديمة: "المجد للآب والابن والروح القدس"، وهي أكثر الصيغ المعروفة في الشرق، ومع ذلك فقد عرفت الكنيسة في

الشرق أيضاً الصيغة التالية:

المجد للآب بالابن في الروح القدس.

διά τού υίού εν τῷ άγίω πνευματι

وهي صيغة سليمة تماماً ولا غبار عليها.

أما الذكصولوجية سبب كتابه هذا الكتاب فهي:

"المجد للآب مع الابن مع الروح القدس".

μετα τού υιού σύν τώ πνεύματι αγίῳ

وقد أكد باسيليوس أن هذه الصيغة قديمة مثل الصيغ الأخرى، وأنها سليمة تماماً لأنها تؤكد وحدة الجوهر للثالوث القدوس مع تمايز الأقانيم.

الطبعات الأساسية:

بجانب النص اليوناني الذي نُشِرَ في مجموعة الأباء اليونانيين مجلد ٣٢ عامود ٦٢ – ٢١٧، توجد طبعة هامة جداً حققها العالم الإنجليزي «*C.F.H. Johnston*» صدرت عام ١٨٩٢ في أوكسفورد، ثم طبعة أخرى عام ١٩٤٧ في السلسلة الفرنسية «الينابيع المسيحية S C مجلد ١٧ بذل فيها المترجم الفرنسي جهداً خارقاً لنقل أفكار باسيليوس إلى الفرنسية.

ويجب أن نعترف بأن النص اليوناني عويصٌ جداً، فقد كَثُرت فيه الجمل الاعتراضية، كما لجأ باسيليوس إلى استخدام مصطلحات يونانية من الفلسفة والأدب اليوناني القديم، وفصاحة باسيليوس لا مثيل لها إلَّا فصاحة كيرلس السكندري، ورغم صعوبة النص اليوناني إلَّا أنه تميَّز بالدقة الشديدة.

وتعد مقالة الأب «*Pruche*» وهو ناشر الترجمة الفرنسية من أهم الدراسات التي صدرت حتى الآن وهي بعنوان:

L'originalité du traité de Saint Basile Sur le Saint Esprit.

وقد نشرت في مجلة:

Revue de Sciences Philosophiques et Theologiques, Vol.32 pp. 207 - 221. Paris 1948.

الترجمة العربية اللبنانية:

بعد إعداد هذه الترجمة، صدرت ترجمة عربية في لبنان ١٩٧٩ وهي وإن كانت قد طُبِعَت قبل الترجمة التي أعددناها، إلَّا أننا عند المراجعة والمقارنة، ظهر أن ما قدمناه هو أكثر التصاقاً بالتعبيرات اليونانية.

محتويات الكتاب

الموضوع الأساسي:

يبدو بشكلٍ واضح أن الموضوع الأساسي هو الدفاع عن إلوهية الروح القدس، وعن حقيقة اشتراكه في جوهر اللاهوت. وقد لاحظ علماء الآباء جميعاً أن القديس باسيليوس قد تجنب الكلمة اليونانية المشهورة «*OMOOUSIOS*»، رغم أنها إحدى الكلمات الأساسية لفترة ما بعد نيقية، وهذا كان عن عمد، لكي لا يحاول التقرُّب من البدعة الأريوسية، وإنما الدفاع عن الإيمان النيقاوي بطريق غير مباشر، وإثبات صحة الإيمان النيقاوي بدون الاعتماد على اللفظ المشهور "الواحد مع الآب في الجوهر – *OMOOUSIOS*».

هذا الذكاء الشديد، جعل القديس باسيليوس يستخدم كلمة يونانية أخرى تعطي المعنى، بل تؤكد إلوهية الروح القدس، ولكن بشكل عملي واضح. هذه الكلمة هي «*TIMEOUSIOS*» التي تفيد الشركة في القوة والمجد والعمل والجوهر. هذا الأسلوب الخاص بالقديس باسيليوس كان مقصوداً لكي يثبت وحدة جوهر الثالوث عن طريق دراسة الأعمال التي يقوم بها الروح القدس بالإشتراك مع الآب والإبن، وهذا الأسلوب أقرب إلى عقول الناس وإلى إدراكهم لحقيقة الإيمان، ويجعل هذا الكتاب نموذجاً للكتابة اللاهوتية الجيدة التي تهدف إلى الدخول إلى عقل القارئ وقلبه عن طريق الممارسة أكثر من الكلام عن النصوص وشرحها. من هذه الزاوية، يمتاز هذا البحث الجميل عن رسائل أثناسيوس عن الروح القدس التي كتبها إلى سرابيون[١]، في أنها لا تحشد النصوص الخاصة

---

(١) ترجمها القس مرقس داود، ونشر الرسائل الأربع الأول، ونشر مترجم هذا الكتاب الرسالة الخامسة في مجموعة مقالات عن الروح القدس بعنوان "الروح القدس في بعض كتابات الآباء". وفيما بعد قام المركز الأرثوذكسي للدراسات

بالروح القدس من العهدين القديم والجديد، وهو الجهد الخارق الذي قام به أثناسيوس، وعن عمدٍ أيضاً، لم يسلك باسيليوس نفس طريق أثناسيوس لعدة أسباب واضحة وأهمها:

(أ) كان الجدل الخاص بالروح القدس قد تطوَّر كثيراً عن زمن القديس أثناسيوس، ولم تعد نصوص الكتاب المقدس بعهديه كافية لإقناع المجادِلين.

(ب) كان الجدل قد تناول عدة نقاط دقيقة مثل استعمال حروف الجر، أو صيغة الإضافة لإثبات الفروق بين الأقانيم، ولذلك لم تعد النصوص المباشرة عن الروح القدس كافية للرد على هذا الاتجاه بالذات.

(جـ) على الرغم من أن مجمع نيقية كان قد حكم على الأريوسية، إلَّا أن مجمع نيقية الذي عُقد سنة ٣٢٥م كان قد ترك موضوع علاقة الروح القدس بالابن دون تحديد؛ لأنها لم تكن قد طُرحت بعد للبحث، وعلينا أن لا ننسى أن كتاب باسيليوس يجيء بعد حوالي ٥٥ عاماً من انعقاد مجمع نيقية وفي ظروف جدلية مختلفة.

ومع كل هذا، فإن الأساس اللاهوتي الذي بنى عليه باسيليوس، لا يختلف مطلقاً عن الأساس اللاهوتي لرسائل أثناسيوس عن الروح القدس، فكلاهما يعتبر أن القضايا الآتية هي أساس التعليم الأرثوذكسي السليم:

١– عمل الروح القدس في المعمودية، فهو يقدِّس ويكمِّل كل الذين يُقبِلون إلى الله.

٢– لأن "الآب يعمل كل شيء بالإبن وفي الروح القدس"، هذه عبارة لا تقِلُّ في أهميتها عن قانون الإيمان النيقاوي نفسه.

الآبائية بالقاهرة بترجمة هذه الرسائل ترجمة جديدة ونشرها في عدة طبعات.

كما أن طريقة بناء الشرح اللاهوتي نفسه واضحة جداً، فكلاهما يستخدم:

(أ) التسليم الرسولي.

(**ب**) نصوص الكتاب المقدس.

ما هو التسليم الرسولي:

لكي ندرك أهمية هذا السؤال، علينا أن نلقي نظرة على طريقة الآباء في شرح العقيدة الأرثوذكسية. فالتسليم ليس تياراً موازياً أو منفصلاً عن الكتاب المقدس. وهذا يظهر من طريقة شرح الآباء.

كيف شرح الآباء العقيدة؟

لا يحشد الآباء أكبر عدد من نصوص الكتاب المقدس لشرح عقيدة معينة، فهذا في الحقيقة ليس منهج الآباء مطلقاً. وإنما طريقة الأباء تقوم على عرض الأساس اللاهوتي أولاً الذي يفسِّر الكتاب المقدس، وهو الإطار اللاهوتي الذي تُجمع حوله كل نصوص وكلمات الكتاب المقدس. ولكي تظهر هذه النقطة بوضوح، يمكننا أن ندقق في حقيقة الموقف الأريوسي نفسه الذي رفض الإيمان بلاهوت الإبن، ثم تطور الرفض إلى جمع نصوص الكتاب المقدس لكي تخدم الهرطقة نفسها. فلا يحاول الأباء بالمرة أن يجمعوا بدورهم نصوصاً أخرى تؤكد العكس، وهذا ما يخطئ البعض في التعرف عليه، وإنما ما يفعله الأباء هو أكثر عمقاً ودقة من ذلك، فهم يشرحون الإيمان أولاً، وبعد ذلك يشرحون خطورة الهرطقة على الإيمان نفسه، ثم على الحياة الروحية. هذا ما نراه في هذا الكتاب، حيث يشرح باسيليوس علاقة الروح القدس بالابن، وكيف أن إنكار شركة الروح القدس في جوهر الآب والابن يعني في النهاية إنكار عمل الابن نفسه. عندما يظهر هذا بوضوح، يصبح من السهل التعرف على معاني نصوص الكتاب المقدس.

لقد شرح القديس إيريناوس هذه النقطة بتشبيهٍ جميل عن فنان قام بعمل صورة جميلة من الفسيفساء للملك، ووضع فيها الكثير من الذهب والأحجار الكريمة. ولكن شخصاً آخر قام بفك الصورة وأعاد ترتيب القطع، وحوَّل نفس صورة الملك الجميلة إلى صورة كلب أو ثعلب (ضد الهرطقات ١: ٣ و ٨). ولذلك يلاحِظ إيريناوس أن كثرة الاقتباسات من الكتاب المقدس ليست برهاناً على صحة إيمان المؤلف، فالنصوص مرتبة حسب أهواء الهراطقة، والسبب هو هدف الهراطقة، فهم مشغولون بإثبات أن الصورة ليست مَلِكاً وإنما كلباً أو ثعلباً، بينما المؤمنون مهتمون بالكلام عن الملك وضرورة صورته للتعرف عليه هو شخصياً. **هذا هو الفرق بين الإيمان والهرطقة، فهو فرقٌ في الهدف، وفي النموذج. أما الهدف فهو الخلاص، وأما النموذج، فهو وسيلة البلوغ إلى الهدف.** فاستعمال صورة الملك، أي الهدف، ليس مثل استعمال صورة كلب أو ثعلب. وهنا نرى بكل وضوح أن النموذج والهدف هما في الواقع موضوعٌ واحد. فالعلاقة بين الإيمان أو العقيدة والخلاص هي مثل علاقة الروح بالجسد، لكن كيف يمكن أن نتعرف على النموذج والهدف؟ الرد هو: صلوات الكنيسة، لا سيما الصلوات الطقسية، فالهدف الواضح للإيمان، هو شركة الإنسان في الله عن طريق تجسد ابن الله، وسكنى الروح القدس، وبدون ذلك لا يمكن أن نتعرف على الله. الليتورجية إذن تجمع النموذج والهدف في وحدة واحدة. وهذا يعني أن أي تغيير في النموذج يعني تغييراً مباشراً في الهدف، وأن أي تغيير في العقيدة معناه تغيير في الخلاص، وهو بدوره يقتضي تغييراً في ممارسة الليتورجية، ليس فقط في الصلوات نفسها، بل فيما تقود إليه هذه الصلوات.

الحقيقة الواضحة، أننا لا نستطيع أن نتعرف على العقيدة والخلاص، أو النموذج والهدف إلَّا في نسيج واحد، وهو نسيج الليتورجية. لذلك لا نستطيع أن نتكلم -بشكل سليم- عن التجسد، ونخطئ في الكلام عن الروح القدس، أو الأسرار، أو وحدة جوهر الثالوث.

ما اهتم الآباء جميعاً بشرحه، هو أن النموذج، أي العقيدة وحدة متكاملة، وهذا هو هدف إيريناوس من الكلام عن الفسيفساء، فهي قطعٌ صغيرة متماسكة تصنعُ صورةً

واحدة، ولكن معالم الصورة تضيع لو امتدت يدٌ إلى جزء صغير من العقيدة لكي تغيِّر معالمه. وعندما تتغير أحد ملامح الصورة، فإن هدف التغيير يصبح واضحاً جداً من الاستعمال نفسه. لذلك، الليتورجية ليست مجرد كلمات أو صلوات. والطلبات ليست مجرد حديث عن الله أو مع الله، وإنما هي العلاقة الكيانية بين الإنسان الساقط الذي نال الخلاص، والله الذي خلَّصه بواسطة الابن المتجسد وبالروح القدس. فالليتورجية والصلاة، هي المجال الذي يكتمل فيه خلاص الإنسان بالابن وفي الروح القدس. وهذا المجال يظهر بشكل بارز في المعمودية والإفخارستيا، فكلاهما استعلان الثالوث، وكمال الخلاص، عندما يعطي الله في سر المعمودية عطية تبني الإنسان، ويضمَّه إلى الجسد الواحد، أي الكنيسة، بالروح القدس (١كور ١٢: ١١ - ١٣)، فينمو في الجسد الواحد بالإفخارستيا، الغذاء الإلهي الذي يعطى للمولودين من الماء والروح.

إذاً، فنحن في الصلوات الكنسية، ننتقل من مجال التعليم إلى مجال تذوُّق أسرار وعمق هذا التعليم. وهذا بدوره ما يجعل الفصل بين الإيمان والليتورجية، أي بين العقيدة والطقس مستحيلاً. والليتورجية هي إحدى دعائم التسليم الرسولي، فهي الممارسة العملية للأسرار، والإيمان كله، وتذوُّق الحياة الجديدة في يسوع المسيح بالروح القدس. هذا يجعل صحة الإيمان من الأمور الأساسية التي تجعلنا نفهم ونتذوق الليتورجية. وكلَّما ازداد فهمنا للإيمان، كلَّما ازدادت حلاوة الليتورجية، وطبعاً العكس صحيح.

لقد نقلت الليتورجية الإيمان كله عبر عصور الكنيسة، وخلقت الليتورجية وجدان الأباء، وحسَّهم الروحي السليم. فهي خبرة لا يمكن نقلها بالكلام، وإنما بالممارسة وبالتذوق الدائم لأسرار الله في يسوع المسيح. وقد نقلت الليتورجية، المسيحيةَ كلها، عقيدةً وصلوات وتذوُّقاً عبر كل عصورها، فصارت قناة التسليم الرسولي التي فاضت بالحياة، وعبَرَت فيها مياه الحياة من جيل إلى جيل. وبهذا نفهم معنى كلمة «تسليم»؛ لأن ما يُسلَّم هنا، هو الحياة وليس مجرد مبادئ وأفكار أو نظريات. وعلى هذا النحو، يمكننا أن نرى بكل وضوح أن الفصل بين الإيمان والليتورجية هو في الواقع تجاهُل تام للتسليم، هو مثل الفصل بين روح الإنسان وجسده، فلا الروح هي الإنسان ولا الجسد

هو الإنسان، وإنما الإنسان واحدٌ بكليهما.

وكذلك الصلاة في المسيحية، فهي ليست العبارات التي تقال، مع أن فيها عبارات كثيرة، ولا هي الطقوس التي تؤدَّى مع أن الجانب الطقسي ظاهرٌ، وإنما هي أسرار الله في المسيح التي تُنقل بالتعليم ويتذوقها الإنسان في الممارسة الكنسية. هي مواجهة إيمان الإنسان بما ناله، هي تذوُّق عمل الله الآب الذي أعطاه في الابن، والذي ينقله الروح القدس.

هكذا استخدم باسيليوس صيغة التعميد: «باسم الآب والابن والروح القدس» كملخَّصٍ للإيمان كله. فهذه الصيغة هي التي تُدخلنا إلى شركة الثالوث. فالتبني، يعطيه الآب لنا بالابن وفي الروح القدس. هذا التبني يتضمن تمجيد الثالوث الدائم، ويعني بشكل ظاهر، أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا في الكنيسة ويفهم التسليم الرسولي بدون المعمودية، ولا تُفهم المعمودية بدون الليتورجية. ولذلك لا يشرح باسيليوس صيغة التعميد على أنها اعترافٌ فقط بوحدة الجوهر (ف ١٠: ٢٤)، وإنما اختبار الخلاص الذي يعطى في المعمودية. كيف نصبح مسيحيين؟ عندما نولد من جديد بالنعمة في معموديتنا... (ف ١٠: ٢٦)، ولكن المعمودية ليست صيغة فقط، ولا هي اعترافٌ صحيح بالإيمان فقط، هي دوام الحياة في الثالوث القدوس. وكيف يحدث هذا؟ بالروح القدس الذي يعطى في المعمودية. ولذلك يقول باسيليوس: إن المعمودية بدون قبول الروح القدس هي معمودية ناقصة وليست حسب التسليم (ف ١٠: ٢٦). ويعود ليقول: إن يوم المعمودية هو أول يوم من أيام الولادة الجديدة (ف ١٠: ٢٦). ولذلك، اكتمال الحياة الجديدة هو أن يحفظ المؤمنون الروح القدس غير منفصل عن الآب والابن؛ لأن هذا هو الإيمان الذي قبلوه واعترفوا به في تمجيد الثالوث، وهو التعليم الذي قبلوه في معموديتهم (ف ١٠: ٢٦). من هذه الزاوية بالذات، يصبح **البقاء في الإيمان هو الدوام على التسليم الرسولي الذي قبلناه في المعمودية**. وتصبح المعمودية، هي تمييز الهرطقات التي تتعارض مع التعليم الذي تسلمناه. لا يستطيع أحد أن يسجد للابن إلَّا بالروح القدس، ولا يستطيع أحد أن يدعو الآب «أبَّا» إلَّا بروح التبني، أي الروح القدس (ف ١١: ٢٧).

التفسير حسب النص، والتفسير حسب التسليم الرسولي:

أحد الأخطار الرئيسية التي جلبتها الهرطقات هي الاعتماد على نصوص الكتاب المقدس وحدها. فهذا في النهاية لا يخدم إلَّا أصحاب الآراء الخاصة، أي الهراطقة. والموضوع هنا ليس كفاية أو عدم كفاية كلمة الله في الكتاب المقدس، فهذا السؤال لم يكن مطروحاً بالمرة في زمن الآباء، وإنما النقطة الدقيقة الأساسية هي أن كلمة الله لا يمكن أن تُفهم بشكل صحيح، إلَّا على أساس ما استقر في الكنيسة، وهو الممارسة الحية لشعب الله في الليتورجية. وهي ممارسة الجماعة التي تنعكس بشكل واضح على الفهم الجماعي الذي تؤكده وتثبِّتُه الليتورجية. هذا هو الفهم الصحيح للعقيدة، وهو ليس فهماً عقلياً نظرياً، بل ممارسةً يدعِّمُها التذوُّق. فالعودة إلى الليتورجية هي عودة إلى التسليم الرسولي، والخروج على التسليم الرسولي معناه الاستسلام لتطرف التفسير الفردي للكتاب المقدس وخيالات كل فرد النابعة من تقديره الخاص.

المثال الواضح على ما نقول هو مناقشة نصوص الكتاب المقدس التي تؤكد أن المعمودية تُعطى باسم المسيح. هذه النصوص تعطي الانطباع لمن يقرأ الكتاب المقدس وحده بأن المعمودية تُعطى باسم المسيح فقط (غلاطية ٣: ٢٧ - رومية ٦: ٣)، فكيف يمكن أن نفهم هذه النصوص، وما هي العلاقة بين التعميد باسم المسيح وباسم الثالوث حسب (متى ٢٨: ١٩)؟

الدراسة النصية وحدها تؤكد وجود تضارب، لكن الليتورجية والخبرة المسيحية تؤكد عكس ذلك. هنا يسجِّل لنا القديس باسيليوس أن النصوص الخاصة بالتعميد باسم المسيح لا يمكن فصلها عن الممارسة الكنسية، أي التعميد باسم الثالوث؛ لأن اسم المسيح نفسه يؤكد لنا أن المسيح مُسِحَ بالروح القدس. ولذلك، فالاسم «المسيح» هو موجز وافٍ للإيمان كله (ف ١٢: ٢٨). وبالتالي إذا كان لنا شركة مع المسيح، فهذه الشركة لا ترى تناقضاً أو تضارباً في النصوص، وإنما ترى أن اسم أقنومٍ واحدٍ من أقانيم الثالوث يكفي للإشارة إلى الأقنومين الآخرين، بسبب وحدة الجوهر. وهنا يؤكد

باسيليوس أن المعمودية باسم أقنوم واحد، أي الممارسة الفعلية في الليتورجية، لا تحدث؛ لأن الكنيسة ترى أن هذه المعمودية غير كاملة. وحتى المعمودية التي تتم باسم الروح القدس، وهو الأقنوم الفاعل فيها، هي معمودية غير كاملة (ف ١٢: ٢٨)، لأن المعمودية تبنٍّ، والتبني لا يمكن أن يتم باسم أقنوم واحد. وتحديد المعمودية كتبنٍّ لا مجال له إلَّا في واقع التسليم الرسولي، أي «تعليم الأباء الذين عرفوا وتبعوا معنى الأسفار المقدسة الذي تسلَّموه» (ف ٧: ١٦).

نصوص الكتاب المقدس لا يمكن عزلها عن الحياة الكنسية؛ لأن هذا معناه –في الحقيقة– إخراج الكتاب المقدس خارج المسيحية نفسها. فالعقيدة لا يمكن فهمها إلَّا من خلال حياة الكنيسة التي تقوم على العقيدة والطقس. والتسليم ليس هو مجرد معنى نصوص، أي نصوص، ولو كانت نصوص الكتاب، بل هو تسليمٌ شاملٌ للإيمان، يقول عنه باسيليوس: إنه «تسليم معنى الأسفار». ولكن كيف يظهر هذا المعنى؟ يجيب باسيليوس: «الإيمان والمعمودية هما طريقا الخلاص، ولا يمكن فصلهما، لأن الإيمان يكمُل بالمعمودية والمعمودية مؤسَّسةٌ على الإيمان، وكلاهما مؤسَّسٌ على الأقانيم الثلاثة» (ف ١٢: ٢٨).

إذاً، معنى الأسفار والإيمان كله، كامنٌ في داخل الأسرار، لا سيما المعمودية. ومعنى الأسفار في النهاية تضبطه عقيدة الثالوث الذي نتذوقه في الأسرار، لا سيما المعمودية. هذا يجعل التعميد باسم الثالوث هو الأساس الذي عليه، نفهم أن معنى التعميد «باسم المسيح» هو إشارةٌ إلى التعليم والانضمام إلى الكنيسة ونوال المسحة، ولا يعني بالمرة ممارسة المعمودية نفسها باسم أقنوم الابن دون الآب والروح القدس. وكيف يمكن لمن يقرأ الكتاب المقدس فقط أن يصل إلى هذا الفهم الواضح؟ الجواب بالنفي؛ لأن فهم الكتاب المقدس لا يمكن أن يتم خارج الكنيسة، فالكتاب المقدس بدون الليتورجية يصبح غامضاً ولا يمكن إدراكه بشكل سليم.

التسليم غير المكتوب:

يقول باسيليوس إن الفرق بين المؤمنين والهراطقة هو أن الهراطقة «يطلبون البراهين من الكتاب المقدس ويرفضون تسليم الآباء غير المكتوب» (ف ١٠: ٢٥)، فما هو تسليم الآباء غير المكتوب؟ هو بكل يقين ما تمارسه الكنيسة، وهو غير مدوَّن في أسفار الكتاب المقدس، ولذلك وحده يُوصَف بأنه «غير مكتوب». ويسميه القديس باسيليوس أيضاً: «ترتيب الكنيسة» (ف ١٦: ٣٩). وكلمة ترتيب لا تعني الطقوس فقط، وإنما الحياة الكنسية كلها، بما فيها توزيع عطايا الروح القدس على الذين أقامهم الروح لقيادة الكنيسة، وتسليم المؤمنين معرفة الله (ف ١٥: ٣٥). فالترتيب ليس مجرد نظام، بل هو الحياة المسيحية. والتسليم غير المكتوب، يُوصَف هكذا؛ لأنه لم يكن مدوَّناً في العصر الرسولي، ولكنه معروفٌ من ممارسة الكنيسة، وبشكل خاص في الليتورجية. فهو ليس أموراً غامضة غير معروفة، ولا عادت مجهولة، إنه الكنيسة ككل. والأناجيل أربعة، تسليمٌ غير مكتوب، أي لم يدوَّن في وثيقة، ولكنه من القوة بحيث أنه جعل كل الكتابات الأخرى التي تُنسَب للرسل تسقط تماماً من الاعتبار مثل رسالة برنابا أو الديداكي، فهي كتابات مقبولة ولكنها ليست من وضع الأباء الرسل.

والتسليم غير المكتوب هو الأمور التي ذكرها القديس باسيليوس نفسه: «علامة الصليب – قبول الموعوظين – الاتجاه إلى الشرق – الوقوف أثناء الصلوات وعدم الركوع يوم الأحد – استدعاء الروح القدس في الطقوس الكنسية، وبشكل خاص في القداس – تقديس الماءِ وزيت الميرون – جحد الشيطان – الغطسات الثلاثة في التعميد» (ف ٢٧: ٦٦ – ٦٧). ولا يصف القديس باسيليوس هذه الممارسة على أنها عادات مجهولة الأصل، أو أنها نمت بحكم الزمان وتطور الطقوس الكنسية، بل يصفها بأنها «تسليم الرسل» ولم تدوَّن، وهنا يجب أن ندرس هذا التعبير الهام الذي يصوغه باسيليوس على هذا النحو: "تسليمٌ صامتٌ وسرِّيٌّ غيرُ مُذاعٍ؛ لأنه من مصدرٍ سرِّيٍّ". وهنا، كلمة "سري" تعني ما يخص الأسرار، وهو أصلاً لا يُذاع ولا يُنشر كعادة الكنيسة في إعلان عقائدها وأسرارها تدريجياً حسب قدرة ونمو السامعين وانتقالهم من رتبة الموعوظين إلى رتبة

المؤمنين. هذا الوضع قديم جداً، ودار حوله جدلٌ طويل بين علماء الطقوس، انتهى إلى أن التسليم السري هو عقائد وأسرار وطقوس الكنيسة التي لا تُذاع خارج الكنيسة بالمرة؛ لأنها أمورٌ لا يفهمها إلَّا المؤمنون. وهو ما يُعرف الآن في الدراسات المعاصرة باسم التسليم السري *Disciplina Arcani* أي التعليم غير العلني الخاص بالمؤمنين فقط، وهو الطقوس والصلوات، مثل الصلاة الربانية وقانون الإيمان.

الكتاب المقدس والتسليم:

"التسليم" هو أشمل وأعظم من الطقوس، إنه الحياة المسيحية نفسها بكل ما فيها من عقائد وممارسات كنسية وأسرار وصلوات. وهنا لا يميِّز القديس باسيليوس بين مصدرين للتعليم، الأسفار والتسليم. فهذا التمييز لم يكن معروفاً في اللاهوت المسيحي شرقاً وغرباً، حتى حركة الإصلاح البروتستانتية التي قامت على أساس نقد التسليم من خلال الكتاب المقدس. ومنذ ذلك استقر في الكتابات اللاهوتية الحديثة تعبير «الكتاب المقدس والتقليد، أو التسليم». ولكن مثل هذا التمييز لمصدرين لم يكن معروفاً بالمرة في كتابات الآباء. والكتاب المقدس ليس مصدراً أعظم أو أقل من التسليم، فهذه المقارنة لم تنشأ إلَّا بظهور حركة الإصلاح البروتستانتية. وباسيليوس نفسه يقول إن الكتاب المقدس هو سر تدبير الابن، ولذلك لا يمكن قبوله إلَّا عند الذين قبلوا تدبير الابن (رسالة ١٨٩: ٣)، أي الذين توفر لهم الإيمان الصحيح. والإيمان الصحيح هو الخبرة الروحية التي تجعل من يقرأ الأسفار يميِّز دقة معاني الكلمات: «من يفسِّر الكلمات الإلهية في الأسفار، عليه أن يبدأ من نفس مستوى الذين كتبوا الأسفار... وأقوال الروح القدس في الأسفار ليست سهلةً لكي يتعرف كل واحد على دقة ومعاني كلمات الروح القدس، فهذا لا يتوفر إلَّا للذين أعطاهم الروح القدس عطية التمييز» (رسالة ٢٠٤).

إذن، لا يوجد لدينا مصدران للتعليم، ولا شرحٌ للنصوص، وإنما حياةٌ مسيحيةٌ حقة قائمة على الإيمان الصحيح وعطية التمييز. وهذا ما نراه في تاريخ الكنيسة، فلم يبرز من الأساقفة والرهبان والعلمانيين إلَّا عددٌ قليل جداً يمكن حصره وتحديده من بحر البشر

غير المعروف للمؤمنين المسيحيين. هؤلاء القلة قادوا الكنيسة؛ لأنهم تمتعوا بالإدراك والتمييز، ولا زالت كتاباتهم تعتبر المرجع الأساسي لكل الأمور الأساسية في الكنيسة. القضية الواضحة إذن، هي إذا زاغ قلب الإنسان، فإن النصوص والكتب بأسرها لا تستطيع أن تعيد الإنسان إلى الإيمان. وإذا عاد الإنسان إلى الإيمان، فإن الممارسة أقوى من الكلمات، وقد يجد الإنسان لذةً وشبعاً فكرياً في العقيدة، لكن الشبع الحقيقي هو تخطي الفكر إلى الواقع الروحي وتذوق أسرار الله، أي أعمال الروح القدس التي تسطع بجمال فائق في طقوس الكنيسة.

الروح القدس في كتاب باسيليوس:

من الضروري جداً إبراز بعض العناصر الأساسية، دون أن نضع كل شيء؛ حتى لا يكتفي القارئ بهذه المقدمة ولا يقرأ الكتاب نفسه.

أولاً: يدرس باسيليوس موضوع حروف الجر لكي يؤكد أنه لا يوجد حرف جر خاص يقدِّم لنا معنىً مختلفاً (٢: ٤ – ٣: ٥ – ٤: ٦ – ٥: ٧ – ١٠)، فالروح هو شريك للآب والإبن في الجوهر، وفي توزيع المواهب (٨: ١٩)، فالآب يخلق بالإبن، ويكمِّل الخليقة بالروح القدس (١٦: ٣٨).

ثانياً: الروح القدس يتَّحدُ بالنفس، ولكن ليس في مكان معين، بل في كل النفس الإنسانية (٩: ٢٣)، وعندما يسكن الروح القدس تعطى المواهب (٩: ٢٣)، وأقنوم الروح القدس حاضرٌ في النفس؛ لأنه يكمِّل عمل الإبن (١٩: ٤٨)، ولا يعطي باسيليوس الاهتمام الكبير بالمواهب قدر اهتمامه بسكنى الروح في الإنسان، فهو عطية حياة (٢٤: ٥٦)، من هنا ندرك أن أهم ما يحرص عليه باسيليوس هو كيف يكمِّل الروح القدس عمل أقنوم الإبن الكلمة المتجسد.

ثالثاً: وحضور الروح القدس في حياة المؤمنين يعني أنه لا يُفارق النفس الإنسانية إلَّا في يوم الدينونة (١٦: ٤٠)، فهو أي الروح القدس إكليل البر الذي يوهَب لكل

إنسان فاز بالحياة الأبدية (١٦: ٤٠).

رابعاً: والفرق بين الروح القدس والقوات السمائية، هو فرقٌ بين مَن هو في ذاته روح القداسة، وبين من ينال التقديس بالروح القدس، وهنا يضع باسيليوس الأساس اللاهوتي السليم، فالله وحده هو بالطبيعة قدوس، أما الخلائق جميعاً فهي تأخذ من الروح القدس، لا سيما الملائكة (١٦: ٣٨)، والتقديس هو اكتمال هدف خلق كل القوات السمائية، وهو أيضاً اكتمال أو إكمال خلق الإنسان –أي نوال الشركة في الحياة الإلهية (١٣: ١٩)، وهذه الشركة هي الحياة الأبدية (١٥: ٣٥)، والدليل عليها هو الفضائل الإنجيلية التي تُعطِي صورةً مسبقةً عن الحياة الإلهية في الإنسان (١٥: ٣٥).

وأخيراً: عمل الروح القدس هو على قدر احتمال كل كائن (٩: ٢٢)، فكلٌّ ينال ما يمكن أن يحتمله، وهذا يعني أن الشركة في الحياة الإلهية ليست عملاً يُفرض على النفس، بل تسعى إليه النفس بالمحبة.

الأقنوم والمواهب، وماذا يمكن أن نتعلم من القديس باسيليوس؟

نرجو من القراء مراجعة وتدقيق ما استقر في الوعي في السنوات الثلاثين الماضية، لا سيما شيوع استخدام تعبير جديد هو تعبير "الحلول المواهبي"؛ لمجرد إبعاد الروح القدس عن الحياة والاكتفاء بالمواهب فقط.

ثرثرة حول الحروف والالفاظ:

يلاحظ القديس باسيليوس أن الهراطقة لديهم "تطرُّف يظهر في التدقيق حول الألفاظ والكلمات ... الشر الذي يتغونه ليس هيِّناً، فهو ينطوي على قصدٍ مظلم وماكر وموجَّه ضد الإيمان الصحيح" (ف ٢: ٤)، ثم يذكر أن الهراطقة "يثرثرون كثيراً حول الحروف لكي يدعِّموا رأيهم المخرِّف" (ف ٢: ٤)، ويؤكد أن "استخدام الحروف في الأسفار هو استخدامٌ غير مقيَّد حسب التعبير المطلوب وكلما دَعت الحاجة" (ف ٤:

٦)، ولذلك، الجدل حول كلمة "شركة في"، أو "شركاء في"، أو "شركاء بدون في" هو ثرثرة فارغة؛ لأن حرف الجر "في" له عدة معاني متنوعة" (ف ٥: ٩) وحرف الجر "من" هو δια وهو حرف "الباء" في العربية "استُخدم في الأسفار المقدسة للآب والابن والروح القدس بدون تمييز خاص" (ف ٥: ٩). ويقدِّم مثلاً يلغي تماماً ذلك التعبير الجديد "الحلول المواهبي"، إذ يقول: "ويوحنا أيضاً يكتب (ومن هذا نعلم أنه يقيم فينا δια بالروح الذي أعطاه لنا)" (يو ٣: ٢٤).

حرف الجر "في":

وعن حرف الجر "في" يقول باسيليوس: "إن الاقتباسات التي يظهر فيها حرف الجر "في" تفوق الحصر، ولذلك لا أريد أن أقدِّم المزيد من النصوص لكي أبرهن على أن تعليم المقاومين ليس سليماً. وطبعاً لا نحتاج الى النصوص التي يُستخدم فيها حرف الجر "في" للابن والروح القدس فهي لا تنفع" (ف ٥: ١١).

علاقتنا بالله لا تخضع لقواعد الإعراب والحروف:

بعد أن أكَّد القديس باسيليوس أنه "ليس فقط في اللاهوت (الكلام عن الله) تختلف التعبيرات، بل كثيراً ما يحلُّ تعبيرٌ محلَّ تعبيرٍ آخر، وأحياناً يحلُّ حرفُ جرٍّ محلَّ حرفِ جرٍّ آخر دون أن يعني هذا تغييراً في المعنى ..." (٩: ١٢).

فما هو السبب في هذه الحرية؟

١- علاقتنا الجديدة بالثالوث بدأت بتجسد الكلمة، وهذا ليس نصاً أو كتاباً، بل هو شخص وأقنوم الابن مُعلِن الآب وواهب الروح القدس من عند الآب (يوحنا ١٤: ١٦). والآب أقنوم "من رآني فقد رأى الآب" (يوحنا ١٤: ٩)، والروح القدس اقنوم؛ لأن مَن ينبثق من الآب ليس قوةً أو طاقةً، بل هو الأقنوم الثالث الذي يُعطى لنا بواسطة الأقنوم الثاني (يوحنا ١٥: ٢٦)، وهكذا، فإن علاقتنا بالثالوث لا تقوم بنصٍّ، أو

سفرٍ، أو حتى أسفار، بل هي استعلانات شخصية، أي أقنومية. وقد جرت العادة على استبدال كلمة "أقنوم" بكلمة "شخص"، في الوقت الذي تتعمد فيه حركة نهضة إنجيلية مزيَّفة -بكل ما تحمله كلمة تزييف من معان نخجلُ من حصرها- على تأكيد العلاقة الشخصية بالمسيح كربٍّ ومخلِّصٍ، في حين أنها لا تؤكد أن هذه العلاقة هي العلاقة الأقنومية (الشخصية) بأقنوم الإبن، بل تنكر هذه العلاقة من خلال الهجوم البذيئ على العشاء الرباني، سر العطاء الأقنومي أو الشخصي الذي يقدِّم فيه الرب حياته لنا "مَن يأكلني يحيا بي .. يكون فيَّ وأنا أكون فيه" (يو ٦: ٥٦ الترجمة القبطية).

والسؤال: هو لماذا تعلو العلاقة الشخصية أو الأقنومية على الألفاظ؟ والجواب هو: لأن الشخص سَبَقَ اللفظ. واللفظُ، بل وكل خطابٍ عن الشخص، هو إعلانات ودعوة، بل مع الدعوة تأتي أهم استعلانات العهد الجديد، وهي النعمة أو العطية أو الهبة، ومنها جاءت كلمة "مواهب". وبدون أن نقع في فخ الهراطقة نقول إن العلاقة مع الشخص الذي يدعوني إلى شركة في حياته، وتصبح حياته هي نفسها الشركة، وتصبح الشركة عطية ونعمة، لا يمكن أن تكون هذه علاقة لفظية كتابية، بل علاقة كيانية.

النعمةُ إذن هي سبب حرية استخدام الألفاظ.

هل تقيِّدُ الألفاظُ النعمةَ؟

بكل تأكيد لا. ما هو السبب الحقيقي لذلك، بل ما هي الأسباب؟ والجواب هو:

* اللفظ والخطاب والنص والكتاب، لم يكن هو الواهب والعاطي، بل الأقنوم أو الشخص.

* العطيةُ نفسها ليست كلمةً ولا سفراً ولا كتاباً، بل حياةٌ جديدةٌ، هي حسب كل حروف الجر التي استخدمها رسول المسيح بولس: من المسيح – مع المسيح – في

المسيح – بالمسيح – للمسيح، وهي تربو على مائة عبارة صريحة واضحة[١]، ويكفي هنا إلى قول معلمنا بولس الرسول: "مع المسيح صلبت" (غلا ٢: ٢٠)، فهل هذه مجرد عبارة، أم هي فعلٌ وحياةٌ تمتد من بداية الايمان حتى نهاية حياة بولس نفسه الذي استُشهِدَ في روما حسب التاريخ الكنسي؟

* اللفظ أو الخطاب، بل كل النصوص لا تحدد العلاقة، ولكن النصوص تؤكدها كشهادة على قيامها، مثل: "محبة الله الآب ونعمة الابن الوحيد وشركة الروح القدس" (٢ كو ١٣: ١٤)، فهل يمكن لأي عاقل تحت الشمس أن يقول لنا إن محبة الله الآب هي مجرد لفظ، أم أنها تجلت في إرسال الابن، وإن إرسال الابن هو تجسده؟ وهل نعمة الابن الوحيد هي فقط كلمة، أم هي حالة الغنى الذي أسبغه علينا يسوع المسيح ربنا بإخلائه لذاته: "لأنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع الذي افتقر وهو الغني لكي تغتنوا أنتم بفقره" (٢كو ٨: ٩)؟ أوليس الغني الذي نناله هو التبني – التجديد – الحياة الأبدية – عطية الروح القدس – ميراث الملكوت السماوي، أم أنه شيءٌ آخر؟!!

التزييف:

"الحلول المواهبي"؟! هكذا جاء تزييف الإيمان، حتى من داخل بعض المحسوبين على أم الشهداء نفسها، باستخدام كلمات تهدف إلى حصر علاقتنا بالثالوث في لغو وألفاظ وكلمات تجعل مَن يقرأ هذه الكلمات يتوه ويفقد الهدف الذي لأجله جاء الابن وأُرسِل الروح القدس .. والسؤال لمن يزيِّف الايمان: إذا كانت علاقتنا بالروح القدس تقتصر على ما أسموه "الحلول المواهبي"، لماذا أرسل الابنُ الروحَ من عند الآب؟ هل لكي يبقى بعيداً لا يشترك معنا في حياتنا؟ هل كانت المواهب تستلزم إرسالية الروح، أم أن سكنى الروح فينا هي كمال الفداء والخلاص؟ وكيف إن كان حلول الروح القدس فينا

---

(١) راجع في ذلك بالتفصيل كتابنا: مع المسيح في آلامه وموته وقيامته، الأصول الرسولية لكتاب الأب متى المسكين، القاهرة، ٢٠١٢. وكذلك كتابنا: الكنيسة جسد المسيح، المسيح والمسيحي وشركة الجسد الواحد، القاهرة ٢٠١٤. وكلا الكتابين منشوران على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية www.coptology.com

حلولاً مواهبياً، كيف له أن:

- يئن في شفاعته (رو ٨: ٢٦).

- يذكّرنا بكل ما قاله الرب يسوع (يوحنا ١٤: ٢٦).

- يخبرنا بأمورٍ آتية (يوحنا ١٤: ٢٦).

- يقدّسنا لأنه قدوس (١ بطرس ١: ٢).

- يقود حياتنا اليومية، وهو عمل الروح القدس اليومي "بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ٢٧)

- يقيم أجسادنا في يوم الدينونة (رو ٨: ١١).

- اعترافنا بالإيمان هو بالروح القدس (١كو ١٢: ٣).

بل هذا ما يقدّمه لنا المعلم الكنسي الأصيل، القديس باسيليوس عن الروح القدس:

- بالروح القدس، استعدنا سكنانا في الفردوس.

- وصعودنا إلى ملكوت السموات.

- وعودتنا إلى مكانة البنوة.

- وحريتنا في أن ندعو إلهنا الآب.

- وشركتنا في نعمة المسيح.

- وتسميتنا أبناء النور وميراثنا في المجد الأبدي.

– وباختصار شديد حصولنا على ملء البركة (رو ١٥: ١٩) في هذه الحياة والحياة الآتية (ف ١٥: ٣٥). ماذا تعطينا المواهب من كل ما تقدَّم؟!!

الأقنوم، أي الشخص والمواهب:

وكما استخدم بعضهم تعبير "الحلول المواهبي" لتفريغ علاقتنا بالروح القدس من مضمونها ومعناها، جرت أيضاً في الآونة الأخيرة محاولة يائسة –من بعض الأساقفة– لتحديد النعمة بأنها طاقة أو قوة، وكأننا بصدد درسٍ في الميكانيكا أو الكهرباء!

لكن هل هي هكذا في اللاهوت المسيحي؟ لقد تخيل أحدهم –دون أن يدرس العلوم اللاهوتية– أن الكلمة اليونانية ένέργια تعني طاقة، ولكن عند الآباء، والمرجع هو قاموس المصطلحات اليونانية لآباء الكنيسة للأستاذ *G.W.H. Lampe* العامود الثاني ص ٤٧٠ هو حسبما ذكر بشكل عام *Activity – Operation* ولذلك يوصف الروح القدس بأنه الفاعل في صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الكيرلسي.

ولكي نبتعد عن الفهم الميكانيكي الآلي الذي لا يليق بالثالوث، يذكِّر القديس كيرلس الأورشليمي الموعوظين بجحدهم للشيطان، وقد دخلوا المرحلة الأخيرة قبل التغطيس في الماء: "أجحدك أيها الشيطان .. وأنا لا أخاف قوتك، لأن المسيح قد كسر هذه القوة بشركته في اللحم والدم معي، وبتدبير اتخاذه، كَسَرَ بموته قوة الموت لكي يخلصني من العبودية الدائمة" (عظة ١٩: ٤)، فهل القوة هنا –مهما كان تحديد هذه القوة– هي مثل قوة الكهرباء أو اندفاع المياه أو قوة الحرارة، أم أنها الشركة في الحياة الإلهية، وأنها قوة التجديد التي جاء بها تجسد الرب وموته وقيامته، ونهاية سطوة الموت؟

أثناء خدمة الرب بالجسد، عندما كان الذين حوله يزحمونه ولمسته المرأة النازفة الدم، فإن الرب –لكي لا نقع في منهج التقسيم– قال أولاً مَن لمسني؟ لأن قوة كانت قد خرجت مني (لوقا ٨: ٤٦) فلا ازدواجية بين الرب والقوة (δίναμις)، بل إن القوة، أي قوة العلي هي الروح القدس نفسه في بشارة الملاك إلى أم النور (لوقا ١: ٣٥)، وعاد

يسوع بعد معموديته مملوء بالقوة، أي قوة الروح (لوقا ٤: ١٤)، وذات القدرة أو القوة ἐνέργεια هي التي سوف تغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده بحسب عمل قدرته (استطاعته) أن يُخضِع كل شيء (فيلبي ٣: ٢١). ألا يخجل أصحاب التقسيم؛ لأن القدرة هي قدرة أو استطاعة الأقنوم؟ ومع أن العهد الجديد استخدم كلمة قوة = δίναμις بوفرة، واستخدم ἐνέργεια مرة واحدة في فيلبي ٣: ٢١ فإن القوة الأزلية أو الأبدية (رو ١: ٢٠) هي ليست آخراً، أو كياناً مخلوقاً، أو قوة تضاف إلى الأقنوم؛ لأن هذا الفكر بالذات يعود بنا إلى الأريوسية والمقدونية والأنومية.

مثال عن القوة الشخصية أو الأقنومية:

في (ف ٢٦: ١١) يقول القديس باسيليوس: "يمكن أن نشبِّه عمل الروح القدس بقوة الإبصار في العين السليمة؛ لأن عمله في تنقية النفس يشبه قوة الإبصار. وهذا ما جعل بولس يصلي للذين في أفسس لكي «تستنير عيونهم بروح الحكمة» (أف ١: ١٧). وكما أن الذي يتعلم الفن، يظل فيه، هكذا نعمة الروح القدس، تظل في الذي يقبلها حاضرةً دائماً، ولكن لا تعمل في النفس بشكل دائم. لأن الفن يظل كامناً في الفنان، ويعمل فقط عندما يسمح الفنان لقوة الفن بأن توجِّهه. هكذا الروح القدس، حاضرٌ دائماً في الذين يستحقون عمله، ولكنه يعمل حسب الاحتياج في النبوة، أو الشفاء، أو القوات الأخرى".

هل يمكن إزاء هذا الوضوح لأيِّ عاقلٍ يبحث عن الحياة في المسيح، أن يقع في ازدواجية وفصل الروح عن المواهب؟

يبدو الأمر وكأن القديس باسيليوس يعيش معنا في مصر، أو كأنه رأى ما سيقال عن الروح القدس، لذلك تقول بقية الفقرة:

"ويمكن أن نضيف تشبيهاً آخر، فكما أن الصحة والحرارة كامنة في الجسد مع القوات الأخرى، لذلك –بشكل دائم– يكون الروح القدس في النفس، لكنه لا يسكن

بفاعلية في الذين -بسبب عدم ثبات إرادتهم- يجحدون النعمة التي نالوها ... والروح القدس يسكن في النفس مثل الإدراك الذي يكوِّن فكرةً في القلب".

أما عن توزيع المواهب فيقول:

"ونحن نعتقد بأن الروح -بالنسبة لتوزيع المواهب- هو مثل الكل الحاضر في الأجزاء، لأننا جميعاً أعضاء بعضنا البعض، ... وكما أن الأجزاء في الكل، هكذا نحن كل فرد منا في الروح؛ لأننا جميعاً «اعتمدنا إلى جسد واحد بروح واحد» (١كور ١٢: ١٣).

وهكذا يمكننا أن نحكم على مدى صحة التعليم بتقسيم الأقنوم الثالث إلى مواهب، كل موهبة ليس لها علاقة بالروح القدس!!!

التقديس وعمل الروح القدس في الإنسان والكنيسة:

أولاً: الروح القدس هو مكان القديسين، وكل قديس هو حقاً مكان الروح القدس" (ف ٢٦: ٦٢). في ظل استخدام التعبيرات الجديدة، لا نسمع عبارات مثل هذه بسبب الحرب ضد روح الله.

ثانيا: عمل الروح القدس هو: يقيم الأموات ويحيي مع الله الآب (١ تيمو ٥: ١٣).

* يعطي الحياة الأبدية (رو ٨: ١٠).

وسؤال القديس باسيليوس بعد كل ما ذكره في الفصول السابقة: "كيف يمكن أن نفصل الروح عن قوته الإلهية المحيية، وننسبه إلى الخليقة المحتاجة إلى الحياة" (ف ٢٤: ٥٦)؟

* الروح هو عطية الله، ولكنه عطية الحياة؛ لأن شريعة روح الحياة هي التي

جعلتنا أحراراً" (رو ٨: ٢).

* وهو "عطية القوة؛ "لأنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم" (أع ١: ٨)، فهل لذلك السبب نستهين به"؟

وطبقاً لذلك، يصبح الذين يتخذون من محبة الله العظمى وشفقته فرصة للتجديف أشدُّ نكراناً من اليهود. هؤلاء يقاومون الروح لأنه أعطانا الحرية ... وبسبب هذه العطية يصبح صوت الروح القدس هو نفسه صوت الذين نالوه" (المرجع السابق).

القداسة:

يُدعى الروح القدس "قدوسٌ". هذا ما نردده في تسبحة الشاروبيم في القداس الإلهي، ويؤكده القديس باسيليوس في (ف ١٩: ٤٨).

سؤال ذو دلالة:

"قداسة الخليقة ليست كامنة في كيان الخليقة، بل تُوهب من الخارج من الله. أمَّا قداسة الروح القدس فهي تملأ طبيعته، ولذلك السبب ذاته لا يوصف بأنه تقدَّس، بل بالحري هو الذي يقدِّس" (ف ١٩: ٤٨).

فإذا كانت القداسة هي طبيعة الروح القدس؛ لأنه قبل ذلك في (ف ١٨: ٤٦) يقول المعلم الكنسي: "الروح القدس أقنوماً حيَّاً مميَّزاً بطبيعة التقديس الفائقة"، فالتقديس إذن هو ما يميِّز الأقنوم الثالث، فإذا صار التقديس –حسب تعليم مطران دمياط– مجرد طاقة أو قوة، ألا يفقد الروح القدس –بذلك– كيانه الأقنومي، ويتحول من أقنوم إلى طاقة، وبالتالي ينحل الثالوث؟ ألا يعتبر ذلك تجديفاً على روح الله؟!!!

نقول للمطران حذار من التجديف على روح الله؛ لأن من يجدف على الروح القدس، لا مغفرة له (مر ٣: ٢٩ – لو ١٢: ١٠).

تقديس القوات السماوية:

"القوات النقية العاقلة .. هي مقدسة وتظل كذلك لأنها تنال نعمة التقديس بواسطة الروح القدس .. وتنال كيانها بواسطة حضور الروح القدس" (ف ١٦: ٣٧).

التقديس هو تكميلٌ وثبات:

"وتكميل الملائكة هو تقديسهم واستمرارهم في التقديس .. الرب يعطي الأوامر، والكلمة الذي يخلق، والروح الذي يثبِّت، وما هو التثبيت سوى التكميل بالتقديس. والتكميل يعني الثبات وعدم التغيُّر، والتمسك بالصلاح، فلا تقديس بدون الروح القدس، وقوات السموات ليست مقدسة بطبيعتها، فلو كانت مقدسة بطبيعتها، فلا يصبح بينها وبين الروح القدس فرق" (المرجع السابق).

"القوات غير المنظورة هي حرة، وإن القوات الساقطة في حالة اختيار بين الفضيلة والرذيلة؛ لذلك تظل بحاجة إلى معونة الروح القدس لكي تثبت في التقديس، ولأنها لا تنال هذه المعونة تفقد حريتها" (المرجع السابق).

ولاحظ أن القديس باسيليوس يؤكد مرةً ثانيةً أن تقديس القوات السماوية "يأتي إليها من خارج طبيعتهم ويُبَثُّ فيهم كمالهم من خارجهم"، كيف؟ "بشركة الروح القدس". ثم يؤكد "إنك لو أزلت الروح القدس، تنحل القوات الملائكية وتهلك الكراسي ورؤساء الملائكة وكل شيء يسقط في الفوضى" (ف ١٦: ٣٨).

فإذا كان التقديس ليس طبيعةً فينا ولا حتى في القوات السماوية، أفلا يُعدُّ التخلي عن الروح القدس وسكناه، مساوياً ليس فقط لإنكار الثالوث، وإنكار التقديس، وإنكار الحياة الأبدية، بل فقدان لشركتنا مع الثالوث؟

ألا يُعدُّ هذا موضوعاً جديراً بأن يُدرس بكل أبعاده، حتى لا ينفرد شخصٌ

طائشٌ بشطحات لغوية تؤدي إلى تهويد الإيمان، باعتبار أن إنكار الثالوث هو عودة للعهد القديم؟

الجوهر والقوة:

"جوهره بسيط وقوته متنوعة، **حاضرٌ كله** في كل أحد؛ لأنه حاضر في كل مكان، موزَّعٌ على الكل دون أن يعاني التقسيم" (ف ١٦: ٢٢).

وعندما "يتحد الروح القدس بالنفس" (ف ٩: ٢٣)، ماذا يحدث للنفس؟

- "تصبح بدورها روحانية".
- "تنال معرفة المستقبل".
- "المواطنة السماوية".
- "مكان في خورس تسبيح الملائكة".
- "فرحاً بلا نهاية".
- "بقاءً دائماً في الله".
- "التشبُّه به".

والأهم:

- "وأسمى من كل هذا أن نصير آلهة" (ف ٩: ٢٣).

أخيراً: والسؤال هو للقديس باسيليوس:

"كيف نصبح مسيحيين؟ الإجابة معروفة للكل: بالايمان، وبأي طريقة نخلص؟

بوضوح: نُولد من جديد بالنعمة التي تعطى في معموديتنا .. صرت بالمعمودية ابناً لله" (ف ١٠: ٢٦).

لقد فقدنا الشركة مع الله بالسقوط (ف ١٥: ٣٥)، ولكن الرب جاء وأعطانا الروح القدس لكي يكون لنا "شركة مباشرة مع الله" (ف ١٥: ٣٥) وعندما تغيب "شركة الروح القدس" من الوعي، بل من الممارسة، تموت الحياة الجديدة فينا. فقد صار الروح القدس هو "المسحة" الذي يقدِّس؛ إذ لا يمكن أن تستمر الحياة العقلية الفائقة وفق قانونها (التقديس والثبات) بدون الروح القدس. إن ثبات العالم الروحي بالروح القدس هو مثل ثبات الجيش ... ولا يمكن أن يتحقق ذلك إذا غاب قائده، أو مثل انسجام الخورس، الذي يتداعى؛ إذا أهمل مديره القيادة وضبط الأنغام. وكيف يقول السارافيم قدوس قدوس، إذا لم يعلِّمُهم الروح القدس الوقفات اللازمة التي تنسجم مع الحياة الروحية والتي تسمح لهم بأن يرفعوا أصواتهم بالتمجيد؟" (ف ١٦: ٣٨). وهو لذلك يعطى "للذين خُتِموا مرةً، وهو يعمل على خلاصهم إذا ما عادوا، وإلَّا، فأنه يقطع تماماً من النفس التي تدنس نعمته ... لأنه لا توجد معونة من الروح فهو ليس حاضراً في الذين ابتعدوا عن الله" (ف ١٦: ٤٠).

لم أحاول أن أقدِّم حتى ملخصاً وافياً للكتاب؛ لأن الكتاب لا يجب أن يُلخَّص، ولكنني أبرزت أهم نقاط تُعارِض التعليم المزيَّف السائد في أم الشهداء بواسطة بعض الأساقفة، راجين من الروح القدس أن يعيد إلينا ما فقدناه، ويقيم لنا المعلمين الصالحين الذين نالوا شركة الروح القدس وسكن فيهم الثالوث لكي يردوا للأرثوذكسية قوتها وغناها الإلهي، ويجمعوا قطيع المسيح الذي يقوده رعاةٌ بعضهم كذبة.

د. جورج حبيب بباوي

الأحد الثاني من الصوم الكبير

٢٠١٤

ملاحظات على الترجمة الحالية

التقليد والتسليم:

لم نحاول مطلقاً استخدام كلمة تقليد، فهي كلمة لا فعل لها في اللغة اللاهوتية للعهد الجديد والآباء، فالتقليد أصله يقلد أو يلبس، بينما الفعل الخاص الذي يعبِّر عن نقل التعليم هو «يسلِّم»، ومنه جاء التسليم، وهو المقصود بكل دقة من الكلمة παράδοσις أي يسلِّم ويعطى، وهي ترجمة للكلمة الآرامية الشائعة في زمن ربنا يسوع نفسه «قَبِلَ مِن». فالتعليم تسليم (١كو ١١: ٢)، وكذلك الأسرار «لأنني تسلَّمت من الرب ما سلمتكم أيضاً» (١كو ١١: ٢٣).

وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أبتعد عن كلمة تقليد، وهي كلمة أتمنى أن ننساها تماماً، فهي لا تعبِّر عن النظرة الرسولية السليمة للاهوت والأسرار.

نصوص الكتاب المقدس:

نصوص الكتاب المقدس التي أشرنا إليها بحرف «س» تفيد أنها مأخوذة من الترجمة السبعينية للعهد القديم، ولم نحاول الاستعانة بالترجمة البيروتية للعهد الجديد إلَّا في أضيق نطاق ممكن، واكتفينا بترجمة نص العهد الجديد كما استعمله باسيليوس، فهو يأخذ كلمات العهد الجديد ويضعها في أسلوبه الخاص بلا تمييز، إلَّا إذا أشار إلى أن الرسول أو النبي يقول.

الفصول والفقرات:

عناوين الفصول لم توضع في الأصل حسب الدراسة الدقيقة للنص، ولكن فيما يبدو أنها أُضيفت في عصر باسيليوس نفسه، أما تقسيم المقالة إلى ٧٩ فقرة، فهو أيضاً من وضع علماء الآباء في العصور الوسطى، وقد أبقينا عليها لتسهيل المراجعة.

كلمات "القُدُس" – "الشركة" – "الذكصولوجية":

في أضيق الحدود أضفنا كلمة "القدس" إلى كلمة "الروح"، مع أن الأصل في أغلب الأوقات هو الروح فقط، ولكن لمجرد الإيضاح، فضَّلنا «الروح القدس». وإن كان باسيليوس قد استخدم أكثر من كلمة يونانية للكلام عن الصلة أو العلاقة بين الأقانيم، فقد فضَّلنا كلمة "الشركة" التي استخدمها باسيليوس في أغلب الفصول؛ لأن كلمة شركة أقوى، وهي في الواقع ما يقصده باسيليوس بالكلام عن وحدة الجوهر واشتراك الروح مع الآب والابن في المجد الواحد.

كما فضَّلنا أيضاً الكلمة الطقسية "ذكصولوجية" كبديل أفضل لكلمة "تمجيد" دون الاستغناء عن كلمة تمجيد.

القديس باسيليوس وحالة الكنيسة الحاضرة:

يجب أن نمتلئ بالعزاء، لأن صورة الكنيسة في زمن باسيليوس كانت مخيفة تماماً، ومع ذلك فقد عاشت وناضلت بكل قوة عن الإيمان، هذا هو غاية بحث باسيليوس عن التسليم الرسولي، كل شيء في زمن الكاتب وكما صوَّره في براعة لغوية في اللفظ والمعنى، يشير إلى الفوضى والاختلافات، ومع ذلك فقد كان على القديس باسيليوس أن يبرز دور التسليم الرسولي، فهو حياة الكنيسة.

يا ليتنا نقرأ الفصل الثلاثين، لنرى أننا في حالة أفضل، من ظروف القديس باسيليوس.

الفصل الأول

١- أخي أمفيلوخيوس، المحبوب بكل حق، والمكرَّم فعلاً، إنني أُشيد بنهجك الذي لا يقل في محبة العلم عن طاقتك المتقدة، وأتغنى بما تمتاز به من حرصٍ يظهر في طريقتك في التعبير عن آرائك، مما يجعلك لا تدع لفظةً واحدة تمر دون تمحيص، لا سيما الكلمات الخاصة بالله، فقد أحسنت الإصغاء إلى إرشاد الرب: «من يسأل يأخذ، من يطلب يجد» (لو ١١: ١٠)، وبمثابرات على السؤال، تدفع المترددين في العطاء إلى أن يقدموا ما لديهم لكي تشترك معهم، وهذا في حد ذاته يحرك إعجابي بك، لأنك لستَ مثل الناس الذين يعيشون في أيامنا يقدمون أسئلةً كامتحان. أمَّا أنت فمن أجل الوصول إلى الحقيقة وحدها. ومع كثرة الناس، لا يوجد نقصٌ في عدد الذين يسمعون أو الذين يسألون، ولكن ما أقل الذين يسعون فعلاً وراء الحق كسبيلٍ لعلاج الجهل، وكما أن فخ الصياد أو كمين المقاتل غير ظاهرٍ، بل خفيٍّ، كذلك أغلب أسئلة الذين يسألون من أجل الوصول إلى نقاطٍ للجدل وليس للوصول إلى معرفة سليمة حتى في النهاية، فعندما لا يجدون في إجاباتنا ما يتفق ورغباتهم، وجدوا التربة الخصبة للانقسام.

٢- وإذا كان صمت الغبي يعتبر حكمة (أمثال ١٧: ٢٨)، فما أعظم جائزة المستمع الحكيم الذي أشار إليه النبي في نفس العبارة بالمشير العجيب (إشعياء ٣: ٣س). مثل هذا المستمع يستحق كل ثقة، بل يستحق أن ندفعه إلى الأمام لكي يحقق تقدماً أكبر، متكاتفين معه في الأتعاب لكي يمضي سائراً نحو الكمال.

والاهتمام بالمصطلحات التي تُستخدَم في اللاهوت، هو أمرٌ يفوق غيره، والمعاناة في سبيل الوصول إلى المعاني الخفية في كل عبارة وكلمة، هي الفضيلة التي لا وجود لها في حياة المتكاسلين عن التقوى، بينما هي ما يميِّز الذين يسعون وراء الجعالة العليا لدعوتنا (فيلبي ٣: ١٤)؛ لأن الغاية التي علينا أن نصل إليها هي أن نتشبَّه بالله على قدر

احتمال الطبيعة الإنسانية.

ولكن التشبُّه بالله لا يكون بدون معرفة، والمعرفة لا تأتي بدون دراسة، وبداية الدراسة هي التعليم، والتعليم بالكلمة، وأقسام الكلمة هي الألفاظ والحروف. إذن، التدقيق في الحروف ليس انحرافاً عن القصد، ولا ما أثير من الأسئلة هو تافهٌ لا يستحق الاهتمام، بل أن الحقيقة فريسةٌ صعبٌ اصطيادها، ولذلك علينا أن نقتفي آثارها.

والتديُّن الحقيقي -مثل إتقان الفنون- ينمو شيئاً فشيئاً، والذين يثابرون لا يحتقرون شيئاً، ومن يبتغي القمم العالية لا يحتقر ما هو قريبٌ منه، كذلك كل من يطلب كمال الحكمة، عليه أن يهتم بالأمور القليلة؛ لكي يصل إلى الأمور الكاملة.

«نعم» و «لا» لفظتان، ولكن كثيراً ما ينطوي استعمال هاتين اللفظتين الصغيرتين على أسمى ما نعرفه من خبرات، وهو الحق الذي لا يحتمل سوى إحدى الكلمتين، وما يزيد على ذلك فهو كذب. ولماذا نشير إلى «نعم» و «لا»، ففي غير هذه الأيام كان أيُ شهيدٍ يشهد للمسيح، وكانت شهادته الكاملة الدالة على إيمان صادق من مجرد انحناءة للرأس دون كلام. وإذا أدركنا هذا، استطعنا أن نرى عظم أصغر الكلمات في اللاهوت وأهميتها؛ لأن ثقلها يحدد الاتجاه والاستعمال، وقد قيل عن الناموس إنه لن يزول منه نقطة واحدة أو حرف (متى ٥: ١٨) فكيف يكون صواباً أن لا نهتم حتى بأقل الأشياء؟

والموضوعات التي أشرنا إليها هي حقاً صغيرة وعظيمة في نفس الوقت، وهذه الموضوعات ليست ما يشغل العقل بشكل دائم، بل هي موضوعات مؤقتة وليست ذي شأن، ولكن مع ذلك، فإن أهميتها ذات شأن كبير، وهي لذلك تشبه حبة الخردل وهي أصغر البقول، فإذا زُرِعَت بشكل سليم، انطلقت القوة الكامنة في البذرة وخرجت منها شجرةٌ عظيمة. فإذا ضحك أحدٌ من اهتمامنا الزائد بالدقة التي نتوخاها في الألفاظ على النحو الذي جاء في المزامير (١١٩: ٨٥) فإن مثل هذا لن يأخذ في الحقيقة سوى ثمار ضحكه، أي لا ثمر. أمَّا نحن، فعلينا أن لا نستسلم بسبب استهزاء الناس. إني لا أشعر

بالخجل من بحث هذه الموضوعات الصغيرة، ولا أتقاعس بسبب إحتقارهم، بل أتابع البحث، وأن أسبر أغوار كل نقطة في هذه الموضوعات الصغيرة، فأنا أعتبر أنني نلت شرفاً كبير القدر، بل أقول للأخ الذي يشاركني البحث بأن نصيبه من الربح ليس يسيراً، ولذلك وأنا على وعيٍ من أن الصراع الذي يدور حول الكلمات الصغيرة هو صراعٌ كبير، أترجى أن أفوز بالجائزة، وهو ما يجعلني لا أتجنب التعب، معتقداً أن البحث سوف يعود بفائدة ليست قليلة عليَّ وعلى السامعين.

لذلك بمعونة الروح القدس نفسه، سوف أشرح الموضوع برمته دون أن أحيد عن الجدال الذي دار بشأنه، وسوف أشير الآن بشكل موجز إلى السؤال الأصلي الذي منه تفرَّع الكل.

٣- منذ مدة عندما كنت أصلي مع الشعب مقدِّماً التمجيد بكامله لله الآب بطريقتين: مرةً: «المجد للآب والابن مع الروح القدس»، ومرةً أخرى: «المجد للآب بالابن في الروح القدس»، هاجمني بعض الحاضرين واحتجُّوا بأنني ابتدعت شيئاً غير معروف، بل أستعمل كلمات متناقضة في موضوع واحد.

أمَّا أنت بشكل خاص، فلكي تنفع هؤلاء -وإن كان لا يُرجى شفاؤهم بالمرة- ولكي تعين الذين يتصلون بهم على الثبات، قد طلبتَ أن تنشر شرح التعليم الذي تتضمنه كلمات التمجيد، لذلك سوف أكتب باختصار، على قدر الإمكان على أمل أن أشرح المبادئ الأساسية.

الفصل الثاني

ما هو أصل اهتمام الهراطقة بالألفاظ؟

٤- إن تطرُّفَ هؤلاء الناس يظهر في التدقيق حول الألفاظ والكلمات، وهو ما يجعل الموضوع ليس سهلاً ولا بسيطاً، بل أن الشر الذي يبتغونه ليس هيِّناً، فهو ينطوي على قصدٍ مظلم وماكر موجَّه ضد الإيمان الصحيح، وهم يحاولون أن يبرهنوا على أن ذكر الآب والابن والروح القدس، يحتِّم وجود اختلاف نظراً لتتابع الأسماء، ووجود الاختلاف يعني أن الآب والابن والروح القدس ليسوا طبيعةً واحدة، ورائدهم في ذلك سوفسطائي قديم يدعى AETIUS هو زعيم هذه البدعة، وقد كتب في إحدى رسائله نصاً يعني أن الأشياء المختلفة تأخذ أسماءً مختلفة، وبالعكس فإن اتخاذ أسماء مختلفة، إنما يعني أن لهذه الأشياء طبيعة مختلفة.

وكبرهانٍ على هذه الفكرة، يقتبس من كلمات الرسول: «واحد الله الآب الذي **منه** كل الأشياء، وربٌّ واحد يسوع المسيح الذي **به** كل الأشياء» (١كورنثوس ٨: ٦)، ومن ثمَّ يقول إن العلاقة بين هذه الكلمات مثل العلاقة بين الطبائع التي تعنيها هذه الكلمات، وكما أن تعبير «الذي منه» مختلف عن «الذي به»، هكذا تختلف طبيعة الآب والابن، وعلى هذا بالذات تعتمد هذه البدعة.

يعتمد هؤلاء الناس على هذا القول في نشر ثرثرتهم الفارغة، ولذلك ينسبون لله الآب عبارة «الذي منه» كميزة خاصة به، أما عبارة «الذي به»، فهي خاصة بكل

أقنوم، ولا تتغير أبداً، لكي يصلوا في النهاية إلى الاستنتاج الذي أشرت إليه من قبل، وهو أن اختلاف حروف الجر يعني الاختلاف في الطبيعة. وحقاً، لقد بات واضحاً أنهم يثرثرون كثيراً حول الحروف لكي يدعموا رأيهم المخرف، وهم يعنون بتعبير «الذي منه» الخالق، وبتعبير «الذي به» الوسيط والتابع أو الآلة، وبتعبير «الذي فيه» الزمان والمكان. وغاية كل هذا أن يصبح الابن، وهو خالق العالم، ليس أكثر من آلة. أمَّا الروح القدس، فهو لم يُعطِ شيئاً للكائنات التي خُلِقَت، وإنما المساعدة التي يمكن للكائنات أن تنالها من الزمان والمكان.

الفصل الثالث

الجدل حول استخدام الألفاظ مأخوذٌ من الفلسفة الوثنية

٥- إن ما قاد أصحابنا إلى هذا الانخداع، هو دراستهم للمؤلفين الوثنيين، الذين ينسبون عبارة «الذي منه» وعبارة «الذي به» إلى الأشياء المختلفة في الطبيعة. ويعتقد هؤلاء المؤلفون أن لفظة «منه» تدل على الأصل، بينما لفظة «به» تشير إلى الآلة أو الوسيط التابع. وما المانع من أن نفحص تعليم هؤلاء، ونُثبت باختصارٍ تعارُضَه مع الحقيقة، وعدم انسجامه مع تعليم هؤلاء أنفسهم، تلاميذ الفلسفة الباطلة الذين يشرحون أنواع العلة، ومن ثمَّ يخصصون لكلٍّ من هذه العلل تعبيراً خاصاً بها، ويسمُّون بعضها بالعلة الرئيسية، وأخرى بالعلة المساعدة، بينما توجد علة ضرورية، بدونها لا يتم أي شيء، ويستخدمون تعبيراً خاصاً بكلِّ علةٍ. فالتعبير الخاص بالصانع ليس مثل التعبير الخاص بالآلة، وهو ما يجعل التمييز ممكناً، ويعتقدون أنه يجدر استخدام تعبير «الذي به». وكمثال على ذلك يقولون: بالنجار صُنِعَ المقعد، أما عن الآلة، فيقولون إن تعبير «به» أي «بواسطة» يليق بالآلة، مثل القول: «صُنِعَ المقعد بواسطة الفأس». وعلى نفس المنوال، يخصصون للمادة الخام تعبير «منه» ويقولون: «من الخشب صُنِعَ المقعد». وكذلك تعبير «حسب» تفيد التصميم أو النموذج الذي استعان به الصانع؛ لأنه وضع تصميماً في عقله، وحسب هذا التصميم، قام بتنفيذ ما وضعه، أو أنه كان ينظر إلى

تصميم مرسوم على الورق، واستعان به في التنفيذ. أما تعبير «لأجل»، فهم يرغبون في أن يحفظوه للغاية أو الهدف، مثل قولهم: «إن المقعد قد صُنِعَ لأجل الإنسان». أما تعبير «فيه» فهي تعني الزمان والمكان وأين ومتى تم عمل ذلك الشيء الذي نَصِفَهُ، مع تأكيد أن الزمان والمكان لا يقدمان شيئاً للمصنوع، وإنما هما طرفان يحددان المصنوعات.

هذا التمييز الدقيق في التعبير عن الأمور، هو وليدُ فلسفةٍ فارغة، لا صلة لها بالواقع. ومما يؤسَف له أن الذين يقاوموننا قد درسوها وأُعجِبوا بها وحوَّلوها إلى إدراك التعليم الخاص بالروح القدس، في حين أنه تعليمٌ لا مجال فيه للسفسطة. وبهذا الاتجاه وحده يحاولون الإقلال من أقنوم الابن الكلمة، والقضاء نهائياً على الروح الإلهي، أي الروح القدس، ذلك أن التعبيرات التي يستخدمها غير المسيحيين للدلالة على الأدوات التي بلا حياة، أو التي تصف الاستعمال اليدوي الدنيء، مثل تعبير «بواسطة» لا يخشى هؤلاء الهراطقة من استعمالها للدلالة على خالق العالم، بل لا يخجلون –وهم أصلاً مسيحيون– من أن يستخدموا الألفاظ الحقيرة مثل المنشار أو المطرقة، وهم يتكلمون عن خالق العالم.

لا قيدَ على استعمال حروف الجر في الكتاب المقدس

٦- نعم، نحن نعترف باستعمال حروف الجر التي أشرنا إليها، وهي معروفةٌ في مواضعَ كثيرةٍ في كلمة الحق، أي الأسفار المقدسة، ولكننا ننكر بشكلٍ مطلق أن نستعبد الروح لتفاهات الوثنية، بل نستخدم حروف الجر استخداماً غير مقيَّدٍ حسب التعبير المطلوب، وكلما دعت الحاجة.

و «منه» لا تدل دائماً على المادة، بل أحياناً تُستعمَل في الكتاب المقدس للدلالة على العلة الأولى، أي الله نفسه، حسب الكلمات «إله واحد منه كل شيء» (١كور ٨: ٦)، وأيضاً «وكل شيء من الله» (١كور ١١: ١٢). ولكن كثيراً ما نستعمل «منه» في كلمة الحق أيضاً للدلالة على المادة، كما قيل: «اصنع لك تابوتاً من خشب جفر» (تك ٦: ١٤)، وأيضاً «اصنع منارةً من ذهب خالص» (خر ٢٥: ٣١)، وأيضاً «الإنسان الأول من التراب» (١كور ١٥: ٤٧) و «أنت جبلتني من طين» (أيوب ٣٣: ٦).

بيد أن هؤلاء كما قلنا، ولكي يُثبتوا اختلاف الطبيعة من اختلاف استعمال

الكلمات، سبقوا ووضعوا هذه القاعدة التي تعتمد على الفلسفة الوثنية، ويريدون أن نقبل أن «منه» خاصةٌ بالآب وحده. ولكننا نحن غير مستعدين لطريقة تفكيرهم التي لا وجه للدقة فيها مطلقاً.

وحسب هؤلاء، وطبقاً للمقاييس التي وضعها سادتهم، فقد خصصوا لقب الأداة للابن، وخصصوا المكان للروح، ولذلك يقولون: «بالابن في الروح». لكن من الملاحظ أنهم لا يتبعون منطق التفكير الوثني إلى النهاية؛ لأن «منه» لا تُستخدم عندهم لله، وإنما يتبعون في هذا الاستعمال الرسولي: «لأنكم منه في المسيح يسوع» (١كور ١: ٣٠)، «والكل من الله» (١كور ١١: ١٢)، فما هي حصيلة هذا كله؟

توجد علةٌ واحدة لها طبيعة، وتوجد آلةٌ لها طبيعة مختلفة، ثم المكان. وطبقاً لذلك، الابنُ مختلفٌ عن الآب مثل اختلاف الأداة عن الصانع، والروح هو أيضاً مختلفٌ مثل اختلاف الزمان أو المكان عن الأدوات أو الصانع.

الفصل الخامس

حرف الجر "باء" يُستخدَم للآب، و من" تُستخدَم للابن و الباء" و من" للروح القدس

٧– بعد أن عرضنا لخلاصة رأي المعاندين واستنتاجاتهم، سوف نبرهن بعد ذلك على أن الآب لا يختص وحده بتعبير «منه»، ويترك «به». وعلى أنه لا شيء من الحق في ادعاءِ هؤلاءِ الناس بأن الابنَ لا يقبل اشتراك الروح القدس.

وبالتالي، فإن حرفي الجر «من» و «الباء» لا يخصان الابن وحده، حسب توزيعهم الجديد الذي يخدم مبادئهم.

«لأنه لنا إلهٌ واحد الآب الذي منه كل شيء. وربٌّ واحد يسوع المسيح الذي به كل شيء» (١كور ٨: ١٦)، ليست هذه كلمات رجل يصنع قواعدَ للسفسطة، بل كلمات مَن يحسن تمييز الأقانيم، وهدف الرسول ليس التعبير عن اختلاف الطبائع، بل إثبات عدم اختلاط الآب بالابن، ومن ثم، فلا الألفاظ تتناقض بعضها مع بعض، ولا الطبائع تسير إلى ميدانِ معركةٍ لتتقاتل مثل كتائبَ متراصةٍ ضد بعضها، بل أن الرسول

المبارك يُظهر معنى استعمال حروف الجر غير المقيَّد بقوله: «كل شيء منه وبه وإليه» (رو ١١: ٣٦)، وواضح جداً أن المقصود من هذا هو الرب الذي تعود إليه كل حروف الجر، وذلك ما يمكن أن يصل إليه أيُ قارئٍ لا يهتم كثيراً بفحص معاني الكلمات؛ لأن المعنى ظاهرٌ جداً، فالرسول بعد أن استشهد بقول إشعياء «مَن يقود روح الرب ومَن كان له مشيراً» (٤٠: ١٢ – ١٣)، يضيف: «فكل شيء منه وبه وإليه». ويفصح سياق الكلام عن أن النبي يتكلم عن الله الكلمة خالق كل الخليقة، إذ يقول في الكلمات التي تلي ذلك مباشرة: «مَن كال بكفه المياه وقاس السموات بالشبر وكال بالكيل تراب الأرض ووزن الجبال بالقبان والآكام بالميزان مَن يقود روح الرب ومَن مشيره يعلمه». إذاً «مَن» تدل على ما هو نادر الحدوث لا على ما هو مستحيل، بدليل أن المزمور يقول: «مَن يقوم معي على الأشرار» (٣٩: ١٦)، وأيضاً «مَن هو الإنسان الذي يهوى الحياة» (٣٣: ١٣)، وهذا هو المقصود وهو نفس المعنى «مَن يقود روح الرب أو مَن كان له مشيراً يعلمه» (يو ٥: ٢)، فهو، أي الابن الذي يمسك الأرض كمن تستقر على يديه، وهو الذي رتَّب كل شيء ونظَّمه، وأعطى الجبال ارتفاعها، وشق للمياه الأماكن التي تتجمع فيها بقدرٍ يسير مِن قدرته، وهو ما يعبِّر عنه النبي بشكل رمزي «بالشبر». وحسناً، أضاف الرسول عبارة: «كل شيء منه وبه وإليه»، فمنه؛ لأنه علة وجود كل الكائنات حسب مشيئة الله الآب، وبه؛ لأنه سبب بقاء الكل وثباته (كو ١: ١٦ – ١٧)؛ لأنه خالق الكل وموزِّع الحياة بنظام لأجل حياة الكل وبقائه، ولذلك إليه وحده تلتجئ كل الكائنات، ناظرين برغبةٍ لا تقاوَم وشوقٍ لا يعبَّر عنه إلى رئيس الحياة (أع ٣: ١٥) وحافظها؛ لأنه مكتوب: «أعين الكل تترجاك» (مز ١٤٤: ١٥)، وأيضاً: «الكل يرجونك تفتح يديك وتُشبع كلَّ حيٍّ رضا» (مز ١٤٥: ١٦).

٨– ولكن، إذا رفض الذين يقاومون تفسيرنا هذا، فأيُ برهانٍ ينقذهم من الفخ الذي نصبوه لأنفسهم؟ لأنهم إن لم يعترفوا بأن الأحرف الثلاثة: به – ومنه – وإليه، تقال على الرب، فهي لا يمكن نسبتها لله الآب، وبهذا تسقط تماماً نظريتهم؛ لأن النص الذي نحن بصدده لا ينسب إلى الآب حرف «من» فقط، بل يستخدم حرف "الباء" الذي قالوا إنه يخص الآلة، أما إذا كان حرف "الباء δια" لا يعني شيئاً من الحقارة،

فلماذا إذاً يقللون من شأن الابن إذا استُخدِم هذا الحرف بالذات للابن؟ وإذا كان حرف الجر الباء يعني دائماً الخدمة، فعليهم أن يخبرونا مَن هو الأعظم الذي يأمر رب المجد الآب، أبا ربنا يسوع المسيح بالخدمة؟ هكذا إذاً يناقضون أنفسهم، أمَّا نحن فمن كل ناحية تقوى حجتنا.

إن من يقبل الكلام الذي قلناه عن الابن يجد أن حرف الجر «من» يلائم الابن تماماً، أما مَن يهوى الجدال ويريد أن ينسب قول النبي إشعياء لله الآب، فهو مضطرٌّ لأن يجد أن حرف «من» يليق به أيضاً، فيكون لحرفي الجر نفس الاعتبار، إذ يعنيان نفس الأقنوم، ولكن لنكمل موضوعنا.

٩- يقول الرسول في رسالته إلى أفسس: «وإذا قلنا الصدق في محبته، ننمو في كل شيء إلى ذاك الذي هو الرأس أي المسيح الذي منه كل الجسد مركَّباً معاً ومقترناً بمؤازرة كل مفصل حسب عمل على قياس كل جزء، يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة» (٤: ١٥ - ١٦)، وأيضاً في رسالته إلى كولوسي يكتب إلى الذين ليست لهم معرفة بالابن الوحيد مشيراً إلى الرأس، أي المسيح الذي منه كل الجسد بمفاصل ورُبُط متآزراً ومقترناً ينمو نمواً من الله (٢: ١٩)، أما أن المسيح هو رأس الكنيسة، فقد تعلَّمناه ورأيناه في فقرةٍ أخرى يقول فيها الرسول: «وجعله رأساً للكنيسة»، و «من ملئه نحن جميعاً أخذنا» (أف ١: ٢٢ - يو ١: ١٦). والرب نفسه يقول: «يأخذ مما لي ويخبركم» (يو ١٦: ١٥).

وباختصارٍ شديد، فإن حرف الجر «من» قد استُخدِم في عدة معان متنوعة يمكننا أن نراها أيضاً في هذه النصوص، على سبيل المثال، يقول الرب: «شعرت بقوة خرجت مني» (لو ٨: ٤٦)، وتوجد أمثلة أخرى استُخدِم فيها حرف «من» للروح القدس، مثل «مَن يزرع بالروح يحصد مِن الروح الحياة الأبدية» (غلا ٦: ٨) ويوحنا أيضاً يكتب: «ومِن هذا نعلم أنه مقيم فينا δια بالروح الذي أعطاه لنا» (يو ٣: ٢٤) ويقول الملاك: «الذي حبلت به من الروح القدس» (مت ١١: ٢٠)، ويقول الرب: «المولود من

الروح هو روح» (يو ٣: ٦).

١٠– ويجب علينا الآن إثبات أن حرف الجر "الباء δια" استُخدِم في الأسفار المقدسة للآب والابن والروح القدس بدون تمييز خاص. وحقاً، إنه تكرارٌ بلا لزوم، أن نقدم البراهين التي تؤكد استعمال حرف الجر الباء للابن، ليس فقط لأن هذه البراهين معروفةٌ لنا جيداً، وإنما لأن الذين يقاوموننا يقبلون هذه النقطة على أنها خاصة بالابن. وما يجب علينا الآن أن نفعله هو أن نثبت أن حرف الجر الباء، إنما يستُخدم للآب.

قيل: «أمين هو الله الذي به δια دُعيتم إلى شركة ابنه» (١كو ١: ٩)، «وبولس رسول يسوع المسيح بإرادة δια الله»، وأيضاً: «لذلك أنت لست عبداً، بل ابناً، وإن كنت ابناً فوارث بالله» (غلا ٤: ٧) و «كما قام المسيح من الأموات بمجد δια الله الآب» (رو ٦: ٤)، وإشعياء: «ويل للذين يعملون مشيئة الظلام وليس التي بالرب» (٢٩: ١٥س).

أمَّا عن الروح القدس، فتوجد عدة نصوص تبرهن على ما نحن بصدده مثل «أعلنها لنا الله بروحه δια" (١ كور ٢: ١٠) وفي موضع آخر «احفظ الوديعة الصالحة بالروح القدس δια" (٢ تيمو ١: ١٤)، وأيضاً، «الواحد يعطى بالروح كلمة حكمة» (١كور ١٢: ٨).

١١– وتظهر نفس الطريقة في الكلام عن حرف الجر «في»؛ لأن الأسفار تستخدمها لله الآب. وفي العهد القديم قيل «بالله єκ نعمل ببأس» (مز ١٠٧: ١٤)، وأيضاً «تسبيحتي فيك єκ دائماً» (مز ٧١: ٦)، وأيضاً «في اسمك єκ أبتهج» (مز ٨٩: ١٦)، وتقرأ ما يكتبه الرسول بولس «بالله خالق الكل» (أف ٣: ٩)، و «بولس وسلوانس وتيموثاوس إلى كنيسة التسالونيكيين في الله الآب» (٢تسا ١: ١١)، و «تفتخر في الله» (رو ٢: ١٧)، و «لعله يتيسر لي في مشيئة الله أن آتي إليكم» (رو ١: ١٠). والاقتباسات التي يظهر فيها حرف الجر «في» تفوق الحصر، ولذلك لا أريد أن أقدِّم المزيد من النصوص لكي أبرهن على أن تعليم المقاومين ليس سليماً.

وطبعاً لا نحتاج إلى النصوص التي يُستخدَم فيها حرف الجر «في» للابن والروح القدس، فهي لا تنفع لأنهم لا يعارضوننا في ذلك، ولكن ما تجدر الإشارة إليه هو أن أفضل برهان لمن يسمع بحكمة –ضلالات هؤلاء الناس– هو أن يجد أن البرهان القاطع مثل السيف، هو إثبات عكس ما يقولون؛ لأنه إن كان بحسب زعمهم تغيُّر الحروف يعني اختلاف الطبائع، فإن استخدام حرف واحد لأكثر من أقنوم يعني وحدة جوهر الأقانيم، وهو ما يُفحم المقاومين.

١٢– وليس فقط في اللاهوت (الكلام عن الله) تختلف التعبيرات، بل كثيراً ما يحل تعبير محل تعبير آخر، وأحياناً يحل حرف جر محل حرف جر آخر دون أن يعني هذا تغيُّراً في المعنى. مثلاً: «اقتنيت رجلاً بالله δια» (تك ٤: ١١ س)، واستعمال حرف الجر "الباء δια" هو تماماً مطابق لاستعمال حرف "الجر єκ". وفي فقرة أخرى: «أوصى موسى إسرائيل بكلمات الرب» (عدد ٣٦: ٥)، وهذا يعني بأمر من الرب.

وفي موضعٍ آخر هذه الكلمات: «أليس بالله يكون تفسير الأحلام» (تك ٤٠: ٨)، وما يعنيه يوسف بقوله للمسجونين معه هو أن تفسير الأحلام «من الله». وعكس ذلك استعمل بولس حرف «من» بدلاً من حرف الباء، فقال «مولوداً من امرأة» بدلاً من «مولوداً بامرأة» (غلا ٤: ٤). ونتأكد من إمكانية حلول حرف جر محل حرف جر آخر من قول الرسول: «إنه يليق أن تكون المرأة مخلوقة من الرجل أما الرجل فهو يولد من المرأة؛ لأنه كما أن المرأة من єκ الرجل، كذلك الرجل هو من δια المرأة» (١كورنثوس ١١: ١٢). وفي هذه الفقرات بالذات، ورغم أن الرسول أراد أن يعلن أن جسد الرب هو جسد روحاني، ولكي يوضِّح أن الجسد الذي حمل اللاهوت هو مأخوذ من العجينة الإنسانية نفسها، أراد أن يعلن قوة الحق بقوله إنه ولد من امرأة بدلاً من أن يقول ولد بامرأة، حتى لا يعطي فرصةً للشك في أنه كان مجرد مرور للابن وليس ميلاداً، فقوة التعبير «من امرأة» هي في تأكيد أن الابن اشترك في نفس طبيعة الأُم، والرسول لم يكن يتناقض مع نفسه هنا، بل كان يؤكد أن حروف الجر يمكن استبدالها، وهذا ما سبق ورأيناه من قبل؛ لأن «منه» إذا استُخدِمت في نفس الموضوع، يمكن أن يحل محلها «به» دون أي

تغُيّر في المعنى، فما هي حجة أولئك الذين يطعنون الإيمان، ويحاولون إثبات انحرافهم من استعمالات حروف الجر التي يمكن أن تتبدل ويحل بعضها محل بعض؟

الفصل السادس

نبذة ضد الذين يعلنون أن الابن ليس مع الآب، بل بعد الآب، وفيها شرحُ التساوي في الكرامة

١٣- يلجأ المقاومون إلى استعمال المحسنات اللغوية، ويحاولون أن يشتتوا البراهين التي نقدمها، وبذلك لا يستطيعوا الادعاء بالجهل. إنهم غاضبون منا؛ لأننا نعطي المجد الكامل في الذكصولوجية للابن الوحيد مع الآب، ولأننا لا نفصل الروح القدس عن الابن، ولذلك السبب يتهموننا مخترعين وثائرين رافعين شعارات واتهامات أخرى ممكنة. ولكنني بعيدٌ عن الانفعال والتأثر بما يتهمونني به. والحقيقة أن انحرافهم عن الإيمان يسبب لي «حزناً لا ينقطع» (رو ٩: ٣). بل يمكنني أن أقول إنني أشكرهم على تجاديفهم التي أتاحت لي فرصة بركة، لأنه «طوبى لكم إذا قالوا عليكم كل شر كاذبين لأجلي» (مت ٥: ١١).

وسبب غضبهم هو أن الابن -حسب اعتقادهم- ليس مع الآب، بل بعد الآب. ونتيجةً لذلك، فإن المجد الذي يعطى لله الآب، إنما يعطى له بواسطة الابن، وليس مع الابن؛ لأن «مع» تعني المساواة في المجد، بينما بواسطة الابن تعني التبعية.

ويدَّعون ما هو أكثر من ذلك: الروح لا يمكن أن يُحسب مع الآب والابن، وإنما أقل من الآب والابن، ليس مع، بل أقل، فلا يكونون معاً، بل في تسلسلٍ تنازليٍّ: الآب وبعده الابن وبعده الروح القدس. وهذا الأسلوب الذي يعتمد على فلسفة الأعداد، هو ضد بساطة الإيمان وصيغته البسيطة، وهم بذلك لم يتركوا مجالاً لمن يريد أن يجد عذراً لهم بالجهل؛ لأن الاهتمام بمقاومة الإيمان على هذا النحو لا يعبِّر عن الجهل، ومع كل هذا فهم فعلاً يجهلون الإيمان.

١٤- وعلينا أن نسألهم أولاً: ماذا تقصدون بأن الابن بعد الآب؟ هل هو بعد الآب في الزمان، أم الرتبة، أم الكرامة؟

لا يمكن أن يكون الابنُ بعد الآبِ في الزمان، فهو خالقُ الأزمنة، وبالتالي لا يوجد زمان يمكن الإشارة إليه كفترة تفصل بين الآب والابن. وبكل يقين، إننا نعتقد أنه في العلاقات البشرية نفسها، لا يمكن أن يكون الآب بدون الابن، ولا يوجد زمن يفصل بين الآب والابن، فالضرورة تحتِّم وجود الآب مع الابن في وقتٍ واحد حتى يمكن الكلام عن أبٍ وابن[١]. والزمان مقسَّمٌ إلى الماضي والحاضر. والأحداث البعيدة عنا في الماضي تليها أحداثٌ أخرى هي بعدها في الترتيب الزماني، وفي الزمان الثاني تقع أحداثٌ بعد الأول زمانياً، مثل نوح الذي عاش قبل الذين عاشوا في سدوم، فهو الأول بالنسبة للذين في سدوم؛ لأنه عاش قبلهم، والذين عاشوا في سدوم جاءوا بعد نوح، فهم في الترتيب التالون له بالنسبة لنا، وهكذا بالنسبة للزمان، فالأول أو الثاني هو ترتيبنا نحن الذين جئنا بعد نوح وسدوم.

لكن لماذا كل هذه المحاولات للقضاء على الإيمان الصحيح؟ أليس هذا تهوراً لا مثيل له، أن تقاس الحياة التي تعلو كل الأزمنة بمقاييس زمنية؟ أليس هذا تهوراً أن يقال إن الله الآب يقارَن بالأب في الزمان، والله الابن يقارن بابنٍ يُولَدُ من أبيه، وبالتالي يتحقق

---

(١) فقبل أن يولد للرجل ابن، لا يمكن أن يعتبر أباً، وقياساً على ذلك لا يمكن اعتبار الله، آباً أزلياً إلَّا بوجود الابن الأزلي.

التسلسل والتتابع، وهو ما ينطبق على الخليقة الخاضعة للزمان وليس على الله الكائن قبل كل الدهور؟

ونضيف إلى هذا، إن الآب الذي يعلو على الإدراك والكائن قبل الأزمنة، لا نستطيع بفكرنا أن ندركه أو ندرك الميلاد الأزلي للابن. وقد أحسن يوحنا فحصر ذلك بين كلمتين مغلقتين تماماً، وهما «في البدء كان الكلمة». والفكر لا يمكنه أن يتجول خارج كلمة «كان». ومهما صارعت، لن تستطيع أن ترى ما بعد الابن، وستجد أنه من المستحيل أن تبتعد عن «البدء».

الإيمان الحقيقي إذاً يعلِّمنا أن نؤمن بالابن مع الآب.

وإذا كانوا يعتقدون بوجود مسافة شاسعة تفصل الابن عن الآب، كما لو كان الابنُ في هوةٍ عميقةٍ، والآبُ جالسٌ من فوق، والابنُ جالسٌ تحته في مقره المنخفض، فعليهم الاعتراف بذلك، ونحن سوف نصمت؛ لأنه لا يمكن أن نرد على هذه الحماقة التي تعلن عن نفسها، فهم بذلك التصوُّر، يناقضون أنفسهم، فالآب لا يمكن أن يكون جالساً في مكانٍ عالٍ، فهو يملأ كل مكان حسب الإيمان الصحيح (أف ٤: ١٠). أما أولئك الذين يقسِّمون إلى فوق وتحت، ويضعون الآب فوق والابن تحت، لا يتذكرون حتى كلمات النبي: «إن صعدت إلى السماء، فأنت هناك، وإن اضطجعت في الجحيم فأنت هناك أيضاً» (مز ١٣٩: ٧). وإذا سكتنا عن جهلهم في تحديد مكان لمن لا جسد له، فما هو العذر الذي يمكن أن يقدموه وهم يقاومون الأسفار المقدسة ويحاربونها بدون خجل. إنهم يتخذون من هذه الفقرة: «اجلس عن يميني»، ومثلها «جلس عن يمين عظمة الله» (مز ١١٠: ١، عب ١: ٣) أداةً للحرب. وتعبير اليمين لا يدل على مكان أقل كما يدَّعون، وإنما المساواة، فهي لا تعني مكاناً، وإلَّا صار هناك مكانٌ للفأل الحسن عند الله نفسه حسب الخرافات، ولكن الكتب المقدسة تقدِّم لنا كرامة الابن الإلهية بتعبيرات تعلن المكانة والكرامة، وعلى المقاومين الذين يدَّعون أن تعبير اليمين يعني مكانةً أقل، أن يبرهنوا على ذلك، وعليهم أن يتعلموا أن المسيح هو «قوة الله وحكمة الله»

(١كور ١: ٢٤)، وهـو أيضـاً «صـورة الله غـير المنظـورة» (كـو ١: ١٥) «وبهـاء مجـده» (عب ١: ٣) بل أن الله الآب ختمه راسماً ذاته عليه[١] (يو ٦: ٢٧، غلا ٤: ١٩، ٢بط ١: ٤).

فهـل يمكـن أن يـدّعي أحـدٌ أن هـذه الفقـرات المنشـورة في كـل الأسـفار المقدسـة، هي براهين على حقارة مكانة الابن، أم أنها تُذيع عظمة الابن الوحيد ومساواته للآب في المجد؟ إننا ندعوهم لأن يسمعوا للرب نفسه، وهو يميِّز نفسه بالمجد الذي لله الآب "الذي رآني فقـد رأى الآب» (يـو ١٤: ٩)، وأيضـاً: «عنـدما يـأتي الابـن بمجـد أبيـه» (مـر ٨: ٣٨) وأيضاً: «لكي يكرموا الابن كما يكرمون الآب» (يو ٥: ٢٣) و «رأينا مجده، وهو المجد الـذي للابـن الوحيـد لـلآب» (يـو ١: ١٨)، وهـم لا يعـيرون هـذه الفقـرات اهتمامـاً ويعطـون للابـن المكـان المخصـص لأعدائـه، وحضـن الآب هـو العـرش اللائـق للابـن، أمـا موطئ قدميه فهو مكان أعدائه الساقطين (مز ١٠: ١).

قـد عبرنـا هـذه الموضـوعات بسـرعة واكتفينـا بهـذه البراهـين، أمـا أنـت فعليـك في وقت فراغك أن تجمع الأدلة لتتأمل سمو مجد الابن الوحيد وغنى قوته. وكل مستمِعٍ فهيم يعـرف أن هـذه ليسـت موضـوعات قليلـة الشـأن، بـل تعـبِّر عـن الإيمـان بدقـة، إلّا إذا كـان المستمع يفهـم كلمـتي «اليمـين والحضـن» بـالمعنى الجسـدي، أي المحـدود، وهـذا يحصـر الله ويجعله مثل المخلوقات، له قامة وشكل وأوضاع جسدية، وهو ما يتعارض تماماً مع الفكـر السليم بـأن الله روحٌ بسيط وغير متجسـم، وهـذه إهانـة تلحَقُ بـالآب والابـن، وتجعـل مـن يعتقـد بالأوصـاف الجسـدية والمحـدودة يوجِّـه إهانـةً للابـن، بـل إن مَـن يعيـد علـى مسـامع النـاس هـذه الأفكـار الحقـيرة، يجـب أن يعلـم أنـه يجدِّف علـى الآب، وكـل مـن يهـين كرامـة الابـن، فـلا يمكنـه أن يهـرب مـن الجـرم الـذي ارتكبـه ضـد الآب أيضـاً، وإذا أعطـى الآب مكانـاً عاليـاً وادّعـى بـأن الابـن يجلـس في مكـان أقـل، فلـن يكـون الله بـذلك هـو الله، بـل يصبح مخلوقاً كوَّنه في مخيلته، وجعله بـذلك خاضعاً لكـل الأحـوال الجسـدية. ومثـل هـذه

---

(١) راجع القديس أثناسيوس الرسولي، الرسالة الأولى إلى سرابيون عن الروح القدس: ٢٣.

الخيالات، هي خيالات السكارى أو الذين أفسد الجنون مخيلتهم، وهذا ضد الإيمان الصحيح الذي علَّمه الرب للبشر «الذي يكرم الابن يكرم الآب الذي أرسله» (يو ٥: ٢٣)، فكيف هم لا يعبدونه ولا يمجِّدونه، وهو مع الآب في ذات الطبيعة والمجد والكرامة؟ وماذا نقول عن هؤلاء، وكيف يمكن أن ندافع عنهم دفاعاً حقاً في يوم الدينونة العام الذي سوف تدان فيه الخليقة كلها والذي أعلن عنه الرب نفسه بأنه سوف يأتي في مجد أبيه (متى ١٦: ٢٧)، وهو ما عاينه اسطفانوس عندما رأى الابن عن يمين العظمة، وما شهد به بولس بالروح عن المسيح أنه جالس عن يمين الآب (أع ٧: ٥٥، رو ٨: ٣٤)، أو حسب شهادة الآب نفسه كما قال: «اجلس عن يميني حتى أضع أعدائك موطئاً لقدميك» (مز ١١٠: ١)، وشهادة الروح القدس عن الابن أنه سوف يجلس «على يمين العظمة في الأعالي» (عب ٨: ١)، فهل بعد هذا نحرم الذي يشترك في الكرامة والملك من المساواة مع الآب، ونحط من قدره إلى مستوى وضيع؟

والوقوف والجلوس يعبَّران عن الثبات والقدرة على العمل، وهو ما أراد باروخ أن يعبِّر عنه للدلالة على عدم الحركة والتغيير في الكينونة الإلهية: «أنت تجلس إلى الأبد أمَّا نحن فلا نقوم» (باروخ ٣: ٣)، والمكانة على يمين العظمة تعني المساواة في الكرامة.

لقد كان تسرُّعاً من الذين حاولوا أن ينكروا على الابن اشتراكه في الذكصولجية كما لو كان مستحقاً فقط لمكانةٍ أقل!

الفصل السابع

ضد الذين يقولون إنه لا يليق أن نقول: مع الابن، بل بالابـن

١٦- ويخترعون قولاً غريباً، وهو أن تعبير «معه» غريبٌ عن الأسفار المقدسة، بل هو غيرُ شائعٍ، بينما (بالابن) هو شائعٌ جداً في الأسفار المقدسة ومألوفٌ في اللغة التي يستعملها الإخوة، فما هو ردُّنا على هذا الاختراع؟!!

نقول: طوبى للآذان التي لم تسمع والقلوب التي لم تجرحها كلماتكم.

وأنتم الذين تحبون المسيح، إن الكنيسة تستعمل التعبيرين، ولا ترفض أيهما على أنه نقيضٌ للآخر، وعندما نتأمل عظمة طبيعة الابن الوحيد وسمو كرامته، فإننا نشهد للمجد الذي له مع الآب، بينما ما يمنحه لنا من العطايا الصالحة ودخولنا وقبولنا في بيت الله (أف ٢: ١٩)، نعترف بأن هذه النعمة أعطيت لنا بواسطته وفيه ٤٧، وهذا يقودنا إلى أن نفهم دلالة «معه» في تقديم المجد للآب مع الابن، بينما «فيه» تدل على تقديم الشكر في الصلاة.

وبذلك يظهر أنه من الكذب أن نقول إن «معه» غريبةٌ لا يستعملها الأتقياء. والناضجون من الناس هم الذين يسمح لهم نضجهم بالتمسك برصانة القديم وثبات

ممارسته، على الخيالات الجديدة، وهؤلاء هم الذين يحفظون التسليم الذي تسلّموه من الآباء نقياً دون تبديلٍ أينما وُجدوا في القرية أو المدينة، وهؤلاء يستعملون «معه» دون مشاكل، أما الذين سئموا ما هو مألوفٌ وثابتٌ، ويتهورون بالهجوم عليه لأنه قديم ويقبلون الاختراعات الجديدة، مثل الذين يتلهفون على الجديد من الملابس ويفضّلونها على ما هو شائع ويستعمله الكل، وهذا يعني أننا لو فحصنا اللغة السائدة في القرى لوجدناها تحتفظ بالقديم من التعبيرات، أما المقاومون من المجانين بالكلمات الجديدة، فإن لغتهم تُظهِر الموضة والفلسفة الجديدة السائدة في عصرنا. أما نحن، فإننا نقول ما قاله الآباء، وهو أن المجد الذي يعطى للآب هو أيضاً خاصٌ بالابن، ولذلك نرفع الذكصولوجية للآب مع الابن، وفي هذا لا نعتمد فقط على تعليم الآباء، فهُم بدورهم قد عرفوا وتبعوا معنى الأسفار المقدسة الذي تسلموه، والذي عرضته في الاقتباسات التي قدمتها في الفصول السابقة.

والبهاء دائماً مع المجد[١] لا يمكن أن ينفصل عنه مثل الصورة والأصل (عب ١: ١)؛ لأن الابن دائماً مع الآب، ولا أثر للانفصال بسبب الأقانيم؛ لأن الجوهر واحد.

---

(١) البهاء والمجد، يعني اشتراك الابن في صفات الآب الإلهية. أمَّا الأصل والصورة، فهما من التعبيرات الهامة التي تؤكد إلوهية الآب والابن، وتؤكد أيضاً تمايُز الآب عن الابن مثل تمايُز الأصل والصورة، لكن علينا أن نتذكر أن الآب هو الأصل والابن هو صورة الآب غير المنظورة، بمعنى أنه وحده هو الذي يعلن الآب. وفي نفس الإطار قيل عن الروح القدس إنه صورة الابن، أي الذي يعلن الابن. راجع هذا الكتاب ف ١٨: ٤٥. فالصورة إذن هي المحتوى، وليست هيئة، ولذلك استخدم الرسول بولس تعبير "صورة الله غير المنظور" لتأكيد ظهور الإعلان، وفي نفس الوقت للدلالة على أن هذا الظهور ليس معلناً بشكل مرئي، راجع ف ٨: ٢١.

الفصل الثامن

الحالات التي نستعمل فيها "به"، ولماذا نفضِّل استعمال "معه"؟ وشرحٌ لمعنى الوصية التي قَبِلَها الابنُ، وكيف يُرسِل؟

١٧– عندما قدَّم الرسولُ الشكرَ لله بيسوع المسيح (رو ١: ٨)، وقال أيضاً: «إننا به أخذنا نعمة الرسولية لدعوة الأمم لطاعة الإيمان» (رو ١: ٥)، أو «الذي لنا به قدوم إلى هذه النعمة التي نحن أيضاً مقيمون فيها» (رو ٥: ٢)، فقد كان يعدد الخيرات التي أُعطيت لنا بواسطة الابن، وفي نفس الوقت يؤكِّد أن النعمة التي تعطينا هذه الخيرات تأتي من الآب إلينا بواسطة الابن. ومرَّاتٌ أخرى يؤكد أن الابن هو الذي يقدِّمنا للآب، وإذ قال: «الذي به أخذت نعمة الرسولية» (رو ١: ٥)، فهو بذلك يعلن عن مصدر النِّعم الصالحة. أما إذا قال: «الذي به لنا قدوم إلى هذه النعمة» (رو ٥: ٣)، فهو يوضِّح أن قبولنا في بيت الله (أف ٢: ١٩)، إنما بواسطة المسيح.

فهل يصبح الاعتراف بالنعمة التي وصلتنا به مناسَبة للإقلال من مجده؟! أليس الأصح أن نقول إن الاعتراف بالنِّعم هو البرهان السليم على تمجيده؟ لهذا السبب، فإن الأسفار المقدسة لا تصف الرب باسمٍ واحد، ولا تعلن إلوهيته بما تستخدمه من الأسماء والأوصاف وحدها، بل في مناسبَةٍ تستخدِمُ مصطلحاتٍ تعبِّر عن طبيعته الإلهية، مثل الاعتراف بأن اسم الابن هو فوق كل اسم (فيلبي ٢: ٩)، أو نتكلم عن الابن الحق (متى ١٤: ٣٣، ٢٧: ٥٤)، أو الإله الابن الوحيد[١] (يو ١: ١٨)، أو قوة الله (١كور ١: ٢٤)، وحكمة الله (١كور ١: ٢٤)، أو اللوغوس (يو ١: ١)؛ بسبب كثرة السبل التي تصلنا بها النعمة؛ لأن غنى صلاحه فائق (رو ٢: ٤)، ويعطينا حسب حكمته المتنوعة ما نحتاجه جميعاً؛ لذلك تصفه الأسفار بألقابٍ أخرى مثل الراعي (يو ١٠: ١٢)، والملك (مت ٢١: ٥)، والطبيب (مت ٩: ١٢)، والعريس (مت ٩: ١٥)، والطريق (يو ١٤: ٦)، والباب (يو ١٠: ٣)، والينبوع (رؤ ٢١: ٦)، والخبز (يو ٦: ٢١)، والفأس (مت ٣: ١٠)، والصخرة (١كور ١٠: ٤). وكل هذه الألقاب لا تعبِّر عن طبيعته، وإنما – كما شرحت قبلاً– تعبِّر عن أعماله المتنوِّعة التي تؤثِّر فينا، والتي تصدر عن رحمته العظيمة، وتوهَب لخليقته، فيوزِّعها هو حسب احتياج كل واحد منها. فالذين يلجأون إليه طلباً للمعونة، يحتمون بعنايته التي تضبط كل الأمور، وبالصبر على الالتصاق به يغيِّرون طريقهم، هؤلاء يُدعَون «خراف»، ويعترف «بأنه راعٍ» الذين يسمعون صوته ويرفضون سماع صوت الغريب، أي التعاليم المنحرفة؛ ولذلك يقول: «خرافي تسمع صوتي»، وهو مَلِكُ الذين وصلوا إلى درجةٍ عالية، فأصبحوا في حاجة ماسة إلى حقه الملوكي. وهو الباب الذي يَدخُل منه –بواسطة وصاياه– البشر الذين يعيشون في الصلاح، ويظل الباب بالنسبة لهم؛ لأنه يحول دون تعرُّضهم للخطر، فالذين يحتمون به –بالإيمان– يجدون فيه الملجأ وبركة الحكمة العالية؛ ولذلك يقول: «إن دخل بي أحد... يدخل ويخرج ويجد مرعى» (يو ١٠: ٩)، وهو صخرة المؤمنين الذين يحتاجون إلى حصن منيع لا يتزعزع.

---

(١) الإله الابن الوحيد هو النص السكندري الذي دخل الترجمة القبطية ونراه عند كل الآباء.

وفي كل هذه الأحوال يصحُّ استعمال «به»، لا سيما عند استعمال ألقاب: الباب أو الطريق، وهنا المعنى واضح. أما إذا دُعيَ الإله والابن، فذلك لكي يُمجَّد مع الآب συν لأنه "باسم يسوع تجثو كل ركبة من الذين في السماء والذين في الأرض والذين تحت الأرض ويعترف كل لسان أن يسوع هو الرب لمجد الله الآب» (فيلبي ٢: ١٠، ١١)، ومن هذا يظهر أننا نستعمل الحرفين «مع» و «به»، فالأول يعلِن مجده وكرامته الإلهية، والثاني نعمته التي أفاضها علينا.

١٨- وإذا قلنا «به»، فذلك لأن عون نفوسنا، إنما يأتي منه. ولكل عونٍ يعطى، يوجد لقبٌ خاص نستعمله لكي نؤكد به النعمة، فعندما يختار لذاته نفساً ويجعلها نقيةً بلا لوم ولا غضن، بل عذراء نقية بلا عيب (أف ٥: ٢٩) يُدعى في هذه الحالة «العريس». أمَّا عندما يقبل النفس المنغمسة في الشرور والمثخنة بالجراح من جراء ضربات الشيطان الشريرة، وعندما يشفيها من كل أثقال خطاياها، فإنه يدعى "الطبيب"، فهل يستدعي ذلك الاهتمام أن نحتقره؟! أم يدفعنا إلى الدهشة من عظمة قوة المخلص ومحبته للبشر لأنه احتمل أن يتألم ويشترك معنا في أوجاعنا ونزل إلينا في ضعفنا؟!

فلا السماء ولا الأرض والبحار العظيمة، ولا الأسماك أو الكائنات التي تعيش على اليابس ولا النباتات أو النجوم والهواء والفصول، ولا النظام المتنوّع في الكون يفوق قوة الله غير المدرَك والذي استطاع -دون أن يتغيَّر- أن يواجه الموت في الجسد الذي اتخذه، فحقق بذلك القضاء على الموت بآلامه وموته، وأعطانا عطية التحرر من ألم الموت، وحقاً ما يقوله الرسول: «وفي كل هذا يعظم إنتصارنا بالذي أحبنا» (رو ٨: ٣٧)، وفي عبارة مثل هذه ليس ثمَّةُ تلميحٍ بوجودِ خدمةٍ وضيعةٍ، بل العون الذي يقدَّم بشدة قوته (أف ٦: ١٠)، فهو نفسه قد أوثق القوي ونهب أمتعته (متى ١٢: ٢٩)، أي نحن البشر الذين أذلَّنا عدونا، واستخدمنا في كل عمل شرير، ولكننا صرنا «آنية صالحة لخدمة الرب» (٢تيمو ٢: ٢١) وصرنا كاملين في كل عمل صالح عندما حرَّر إرادتنا، فصارت حرةً، بل صار لنا القدوم به إلى الآب عندما نقلنا من سلطان الظلمة وصيَّرنا

شركاء في ميراث القديسين في النور (كولوسي ١: ١٢، ١٣).

فلا يجب علينا أن نستهين بتدبير الابن ونعتبره خدمةً حقيرةً إجباريةً نابعةً من مكانته الوضيعة كعبد، لكنها خدمةٌ طوعيةٌ شرعيةٌ نابعةٌ من الصلاح والرحمة تهدف إلى إعانة خليقته حسب إرادة الله الآب. بهذا نكون متناغمين مع الإيمان الصحيح، إذا كنا نستمر في الكمال الذي يهبنا إياه من وقتٍ لآخر، لا سيما إذا شهدنا لقوته الكاملة التي لا يمكن بأية حال أن نفصلها عن إرادة الآب. وكمثالٍ على ما نقول، عندما ندعو الرب «الطريق»، فإننا نرتقي إلى المعنى السامي، وليس إلى المعنى الوضيع الشائع؛ لأننا نفهم أن الطريق يعني التقدم المطَّرد نحو الكمال، وهو ما يحدث لنا عندما نعبر من مرحلة إلى أخرى بنظامٍ كامل، وبالأعمال الصالحة واستنارة العقل (١كور ٤: ٦)، مشتاقين دائماً إلى ما هو أمامنا، أي إلى ما لم يتحقق بعد، حتى نصل إلى الهدف المبارك، أي معرفة الله التي يمنحها الربُّ للذين يثقون فيه. لأجل ذلك كله، فإن الربَّ هو الطريق الصالح الذي لا انحراف فيه ولا خطأ. يقود إلى الآب الصالح، وقد قال: «لا يستطيع أحد أن يأتي إلى الآب إلَّا بي» (يو ١٤: ٦) وهذا هو طريقنا الذي به نرتقي إلى الآب.

١٩- مما سبق يظهر لنا أننا يجب أن نوضِّح -في تسلسل- الخيرات التي يمنحها الآب لنا فيه (الابن). لما كانت الخليقة المنظورة وغير المنظورة التي ندركها بالعقل، لا تدوم بدون العناية الإلهية، فإن اللوغوس الخالق الابن الوحيد يوزِّع معونته حسب احتياج كل مخلوق، ويقسِّم مراحمه المتنوعة الفياضة حسب طبيعة كل كائن وقدرته على استيعاب العطية الإلهية، فهو ينير الذين في الظلام، ولذلك يُدعى النور الحقيقي (يو ١: ٩) وعندما يكافئ حسب الأعمال يُدعى «الديان العادل» (٢تيمو ٤: ٨)، حسب ما قيل «الآب لا يدين أحداً بل أعطى كل الدينونة للابن» (يو ٤: ٢٢). والذين يسقطون من قمة الحياة إلى الخطية، يقيمهم من سقطتهم، ولذلك يُدعى «القيامة» (يو ١١: ٢٥)، وهو يعمل هذا كله بلمسةٍ من قوته بإرادته الصالحة التي تعمل كل الأشياء، فهو يرعى وينير ويغذِّي ويشفي ويدبِّر ويقيم، بل يدعو الموجودات التي لا وجود لها، ويحفظها في البقاء كمخلوقات. ولذلك فإن كل الصالحات التي تأتي من الله الآب، تصلنا بالابن

الذي يعمل كل هذا بقوة وفاعلية لا نستطيع أن ننطق بها، إذ هي تفوق سرعة البرق ورمشة العين، بل وسرعة تغيير أفكارنا. بل أضيفُ، إن القدرة الإلهية لا يمكن مقارنتها، فالكائنات الضخمة بطيئة الحركة تشبه الفكر البشري الذي يتحرك ببطء إذا قيس بالقدرة الإلهية التي تشبَّه بسرعة طيران الطيور، فما هي البرهة الزمنية التي يحتاجها ذاك الذي «يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته» (عب ١: ٣)، ويعمل بدون احتياج لوسيلة محسوسة، أو يَدَين، أو أدوات لكي يخلق ويصور الموجودات، بل تخضع الكائنات له في طاعة مستسلمة لإرادته كخالقها، كما تقول يهوديت: «لقد أردت، وكل ما أردت صار طوع إرادتك» (يهوديت ٩: ٥، ٦).

ولئلا نؤخذ بعظمة الأعمال ونتصور أن الربَّ منفصلٌ[١] عن الآب، فإن الربَّ الذي له حياةٌ في ذاته يقول: «أنا حيٌّ بالآب» (يو ٦: ٥٧). ويقول قوة الله عن نفسه: «الابن لا يفعل شيئاً منفصلاً عن الآب[٢]» (يو ٥: ١٩). والذي له الحكمة الكاملة في ذاته يقول: «الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصيته ماذا أقول وبماذا أتكلم» (يو ١٢: ٤٩). كل هذه الكلمات قيلت، لكي تقودنا إلى معرفة الآب، ويصبح اندهاشنا بالخليقة وسيلة لمعرفة الآب؛ لأن الكلَّ خُلِقَ بالابن، وهذا وحده يجعلنا نعرف الآب الذي لا يعمل شيئاً بدون الابن، فهو ليس منفصلاً عن الابن، ولا توجد له قوة منفصلة، ولذلك قيل مهما يفعله الآب، يراه الابن ويفعله الآب (يو ٤: ١٩). ولذلك فمن خلال المجد الذي يقدمه الابن الوحيد للآب، يتقبل الآب انبهارنا بالخليقة، ذلك الانبهار الذي يمجِّده ويسبِّحه، ليس فقط بسبب عظمة الخليقة من أجل خالقها نفسه، ويُقدَّم إليه من أولئك الذين يعترفون بأنه أبو ربنا يسوع المسيح «الذي من أجله الكل وبه الكل» (عب

---

(١) αναρχος أي بلا بداية. ومن الأفضل ترجمتها إلى منفصل؛ لأن الآب هو البدء حسب ما استقر في كل كتابات الآباء، وبالتالي لا يكون الابن مخلوقاً، إذ أن بدايته الآب، فالبدء الذي لا بدء له هو الله وحده، ولا يمكن أن يظل الله البدء، إذا سبقه آخر.

(٢) المعنى الواضح لعبارة المسيح: "لا يستطيع الابن أن يفعل شيء من ذاته" هو أن الابن غير منفصل عن الآب، وبسبب وحدة الجوهر فقط لا يستطيع أن يفعل الآب شيئاً بدون الابن، فهذه عبارة خاصة بالوحدة وليست بالمرتبة، حيث لا توجد مراتب في الثالوث.

٢: ١٠)؛ لذلك يقول الرب: «كل ما هو لي هو لك» (يو ١٧: ١٠). ولأن الابن هو الخالق، أعطى السيادة على الخليقة للآب، أمَّا قوله: «وما هو لك فهو لي»، فهو يعني أن علة الوجود، وهي خاصة بالآب، هي للابن أيضاً. كل هذا يعني أنه لا يجب أن نفترض أن الابنَ احتاج إلى معونةٍ لكي يعمل، أو أنه يُعطى تكليفاً خاصاً للعناية بكل كائن حسب تعليمات آتية من آخر، وهو ما ينطبق على العمل اليدوي المحدود الذي لا يتفق مع الكرامة الإلهية. بل بالحري، فإن اللوغوس مملوءٌ من خيرات الآب، ويشرق ببهاء مجد الآب، ويعمل كل الأشياء مثل الآب الذي يلده، وفي الجوهر هو غير مختلف عنه، ولذلك، فالقوة غير مختلفة أيضاً. وبما أن القوة واحدة، يصبح العمل واحداً. فالمسيح هو قوة الله وحكمة الله، وهكذا "كل شيء به كان» (يو ١: ٣)، فهو ليس كعبدٍ يقام للخدمة، وإنما كمن يحقق إرادة الآب الخالق.

٢٠– وعندما يقول: «أنا لم أتكلم من عندي» (يو ١٢: ٤٩)، وأيضاً: «وكما أوصاني الآب هكذا أتكلم» (يو ١٤: ٣١)، فالابن لم ينطق بهذه الكلمات لأنه بلا هدفٍ واضحٍ مقيَّدُ الحرية، أو لأنه يعجز عن التصرف ويحتاج إلى توجيهات قبل أن يشرع في عمل أي شيء، وإنما غاية هذه العبارات هو التأكيد على أن إرادته واحدة مع الآب ولا انفصال بينه وبين الآب؛ لذا علينا أن لا نفهم كلمة «وصيته» على أنها أمرٌ فيه تسلط، ويعطى بواسطة الكلمات الصادرة من الفم مثل الأمر الصادر من سيِّدٍ لعبده، يأمر بما يجب عليه أن يفعله. بل **علينا أن ندرك هذا في إطار الفهم الصحيح للطبيعة الإلهية، حيث عمل الإرادة أشبه بانعكاس صورة في مرآة، حيث لا زمان ولا صوت، فالإرادة واحدة عند الآب والابن مثل الصورة وانعاكسها في المرآة.** وعن هذا قيل: «الآب يحب الابن ويطلعه على جميع أعماله» (يو ٥: ٢٠)، مما يجعل «ما هو للآب» يخص الابن أيضاً، دون أن يعني هذا بالمرة، أن الابن يأخذ ما للآب على أقساط صغيرة، بل الكل له دفعة واحدة. أمَّا عند البشر، فإن الصانع الذي يتقن صنعته بالممارسة والتدريب الطويل، يصل إلى خبرة ومهارة حقيقية، ويصبح بعد ذلك، وبسبب المعرفة الدقيقة والممارسة التي اختزنها، قادراً على أن يعمل مستقلاً معتمداً على ذاته فقط. هذا لا يمكن أن ينطبق على حكمة الله وصانع كل المخلوقات، فهو كاملٌ

منذ الأزل، ولم يتعلم الحكمة من معلِّم، فهو قوة الله الذي فيه مختبئةٌ كل كنوز الحكمة والمعرفة (كولوسي ٢: ٣)، فهل يحتاج إلى مقاييس ومعايير لكي تساعده على تحقيق أعماله؟! إنني أفترض طبقاً للاستنتاجات الباطلة، أن هؤلاء يفترضون، أن هناك مدرسة وأن الابن سوف يجلس على مقعد الدراسة أمام المعلم مثل التلميذ الجاهل، وأنه شيئاً فشيئاً سوف يتعلم الحكمة ويتطور حتى يصل إلى الكمال عن طريق الدروس التي يعطيها له المعلم. ولكن لو حافظت على التسلسل المنطقي لهذا التصور الباطل، لوجدت أن الابن سوف يتعلم إلى الأبد، دون أن يصل إلى كمال المعرفة؛ لأن حكمة الآب بلا نهاية، وبالتالي لن يدرك الابن الكمال مطلقاً، وتبعاً لذلك، فإن من لا يسلِّم بأن الابن حاصلٌ على كل شيء منذ البدء، لن يقبل بأن الابن سيصل إلى الكمال. ولكنني أخجل من المستوى الوضيع الذي انزلقتُ إليه بسبب التسلسل المنطقي.

وعلينا الآن أن نغيِّر اتجاهنا تماماً، وأن نرتفع إلى الجوانب السامية التي تقتضيها مناقشتنا.

٢١- يقول الابن: «مَن رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩)، وهذا لا يعني أن الابن هو صورةٌ مرئيةٌ أو شكلٌ محسوس؛ لأن الطبيعة الإلهية منزَّهةٌ عن كل تركيب، بل أن صلاح الإرادة الإلهية الذي يتفق مع جوهر الله، الذي لا تركيب فيه، يبدو في كل منهما، متطابقٌ ومتساوٍ، بل واحدٌ في الآب وفي الابن، وهذا يعني أن إرادة الآب متساوية مع إرادة الابن، أو أن ما في الآب هو بعينه في الابن. إذن، ما معنى أنه «أطاع» (فيلبي ٣: ٨)، أو «أسلم ذاته لأجلنا» (رو ٨: ٣٢)؟! المعنى هو أن العمل الذي أتمَّه الابن لأجل البشر كان من الآب. ولكن عليك أن تفهم جيداً هذه الكلمات: «المسيح افتدانا من لعنة الناموس» (غلا ٣: ١٣)، «وبينما نحن خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥: ٨)، وهكذا نفهم أن هذه الكلمات هي عن العمل الواحد الذي من الآب بالابن. ولكي نفهم كلمات الرب جيداً ونتأمل كيف يعلمنا عن أبيه، فهو يحرص على استخدام تعبيرات معينة تؤكد سلطانه الخاص مثل «أنا أريد، فأطهر» (مت ٨: ٣) و «اصمت» (مر ٤: ٣٩)، «أما أنا فأقول لكم» (مت ٥: ٢٢) و «اخرج أيها الروح الأخرس

الأصم» (مر ٩: ٢٥)، وتعبيرات أخرى مماثلة تساعدنا على أن نعرف سيدنا وصانعنا، أمَّا التعابير الأخرى التي أشرنا إليها في السطور السابقة، فهي لكي نتعلم عن أبو ربنا وخالقنا[١].

وهكذا، بتأمل الجانبين في هذه العبارات، تظهر العقيدة الصحيحة أن الآب يخلق بالابن، دون أن يعني هذا أن الخلق عند الآب ناقص، أو أن قدرة الابن ضعيفةٌ، بل وحدة الإرادة. وهو ما يجعل «الذي به» اعترافٌ بأن الآب هو السبب في الخلق، دون أن يتضمن هذا أية إشارة إلى كفايته أو عدم كفايته كخالق.

---

(١) وحدة الجوهر لا تنفي بالمرة استخدام عبارات خاصة بما فعله الابن في الجسد، أي تدبير الخلاص، ولذلك فإن كلمات أو أفعال مثل: "أطاع ... إلخ"، إنما تؤكد قبول الابن المتجسد الموت على الصليب، وقد قيلت لأجلنا نحن العصاة الذين نحتاج إلى أن نتعلم الطاعة من الابن.

الفصل التاسع

مبادئ ثابتة عن الروح،

هي دعامة تعليم الكتب المقدسة

٢٢– علينا أن نفحص الآن ما هي المبادئ العامة التي تخصُّ الروح، وتلك التي جمعناها من الكتب المقدسة، والتي تسلَّمناها من تسليم الآباء غير المكتوب.

وأول كل شيء نسأل عنه هو: عند سماع ألقاب الروح، مَن لا يسمو روحياً، ومَن لا يرتقي إيمانه إلى الطبيعة الإلهية؟! فالروح يُدعى «روح الله» (مت ١٢: ٢٨)، و"روح الحق الذي من عند الآب ينبثق" (يو ١٥: ٢٦)، و"الروح المستقيم" (مز ٥١: ١٠)، و"روح رئاسة" (مز ٥١: ١٢). أما اسمه الخاص ولقبه المعروف، فهو «الروح القدس»، وهو اسمٌ لا يدل بالمرة على أنه محسوس، بل روحٌ محض بسيط. وعندما أراد الآب أن يعلِّم المرأة التي اعتقدت بأن الله محصورٌ في مكان ينبغي عبادته فيه، قال إن الله منزَّهٌ عن الجسد، ولا يمكن حصره في مكان: «الله روح» (يو ٤: ٢٤). ولذلك، إذا سمعنا كلمة «الروح»، فمن الخطأ أن نكوِّن صورةً عن طبيعةٍ محدودةٍ خاضعةٍ للتغيير والظروف أو تشبه المخلوق، بل تُحتِّم علينا كلمة روح، أن نسمو إلى ما هو أعلى، إلى طبيعة عاقلة وغير محدودة القوة والعظمة، لا تقاس بالزمان أو العصور، بل محسنٌ يعطي من خيراته، وكل الذين يحتاجون إلى التقديس يلتفتون إليه، ويسعى إليه كل الذين

يعيشون في الفضيلة، والكل كما لو كان يشربُ من إلهامه، وبه يتقدم نحو غاية خلقه. هو يكمِّل كل شيء. وهو لا ينقص شيئاً، حتى لا يحتاج إلى تجديد حياة، فهو ينبوع الحياة. لا ينمو، ولا يُضاف إليه، بل هو دائماً ملآنٌ، كائنٌ في كل مكان، ينبوع التقديس، ونورٌ لا يدركه إلَّا العقل، يعطي من لدنه الاستنارة لكل قوة عقلية تطلب الحق.

بطبيعته غير مُدرَكٍ، ولكن يمكن الاقتراب منه ومعرفته بصلاحه، يملأ كل الأشياء بقدرته (حكمة ١: ٧)، ويُعطى للمستحقين فقط، ولا يُعطى بمكيال، بل يوزِّع هو قوته على قدر الإيمان (رو ١٢: ٦). جوهره بسيط، وقوته متنوعة، حاضرٌ كلُّهُ في كل أحدٍ؛ لأنه حاضرٌ في كل مكان. موزَّعٌ على الكل دون أن يعاني التقسيم، يشترك فيه الكل دون أن يفنى. مثل أشعة الشمس، تسقط على كل من يريد أن يتمتع بها، كما لو كانت أشعة الشمس لكل فرد على حدة، لكنها تضيء الأرض والبحر وتمتزج بالهواء.

هكذا الروحُ القدس بالنسبة لمن يأخذه، يكون كمَن أُعطيَ له وحده، إلَّا أنه يرسل نعمته التي تكفي الكل، والتي تملأ الإنسانية، والذين ينالونه يتمتعون به على قدر ما تحتمل طبيعتهم، وليس على قدر قوة الروح القدس.

٢٣- ويبقى أن نقول إن الروح لا يتَّحد بالنفس ويستقر في مكانٍ منها، فكيف تحدث صلةٌ محسوسةٌ بمن هو غير محسوس؟!

وإنما اتحاد الروح بالنفس يحدث عندما تختفي الأهواء التي تنمو في النفس بسبب اتحادها ومحبتها للجسد، وهو ما يجعل النفس تتغرب عن الشركة مع الله. وعندما تنتقى النفسُ من عار الدنس الذي لَحِقَ بها بسبب فسادها وتعود إلى جمالها الطبيعي، تتمسك بالصورة الملوكية (الإلهية) وتسترد شكلها الأول (القديم)، عند ذلك فقط، يمكن أن تقترب من البارقليط.

والروح القدس مثل الشمس، يساعد العين النقية، فترى عينيك –في الروح القدس نفسه– صورةَ غير المنظور، أي الله، وبالرؤيا المباركة لهذه الصورة، ترى الجمال الفائق الذي تعجز عن أن تنطق به.

بمعونته ترتفع إلى فوق، ويمسك بأيدي الضعفاء، أما الذين يتقدمون، فهو يكمّلهم. يُشرِقُ على الذين تطهَّروا من كل وصمةٍ، ويجعلهم روحيين بشركتهم معه. ويكون ذلك مثل سقوط أشعة الشمس على الأجسام الشفافة اللامعة، فتصبح بدورها لامعةً وتشعُّ منها الأشِعَّة. هكذا النفوس التي يسكن فيها الروح القدس وتستنير به، تصبح بدورها روحانيةً وتشعُّ منها نعمةٌ للآخرين. وتنال هذه النفوس من الروح معرفة المستقبل، وفهم الأسرار، وإدراك الخفايا، وتوزيع العطايا الصالحة، والمواطنة السماوية ومكاناً في خورس تسبيح الملائكة، وفرحاً بلا نهاية، وبقاءً دائماً في الله، والتشبُّه به، وأسمى من كل هذا أن نصير آلهةً[١].

هذه هي بعض المبادئ عن الروح القدس، وهي جزءٌ من الكل الذي تعلَّمناه عن عظمته وكرامته وأعماله، وكل هذا تعلمناه من الأقوال التي أعطانا إياها الروح.

---

(١) وتعني بشكلٍ واضح، حياة عدم الفساد أو الحياة الأبدية Being made God

الفصل العاشر

ضد الذين يقولون إنه ليس من الصواب أن نحسب الروح القدس مع الآب والابن

٢٤- الآن علينا أن ننتقل إلى المقاومين الذين يحاولون إثبات الافتراضات الخاطئة التي أخذوها من المعرفة الكاذبة.

يدَّعون أنه لا يجب أن نحسب الروح القدس مع الآب والابن بسبب اختلاف الطبائع، ولأن كرامة الروح القدس أقل من الآب والابن.

وإجابتنا على هؤلاء هي كلمات الرسل: «ينبغي أن يطاع الله، أكثر من الناس» (أع ٥: ٢٩). وإذا كان الربُّ عندما أسَّس معمودية الخلاص، أمر تلاميذه أن يعمِّدوا كل الأمم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ١٩: ٢٨)، وبذلك أعلن شركة الروح القدس مع الآب والابن، فكيف يدَّعي هؤلاء بأن الواجب علينا أن لا يُحسَب الروح القدس مع الآب والابن؟ أليس من الواضح أنهم يقاومون وصية الله؟!

وإذا قالوا إن إضافة اسم الروح القدس في صيغة المعمودية لا تعني الشركة في الجوهر، فليقولوا لنا ما هو السبب؟ أي سبب وجود الروح القدس إذن! وهل توجد صيغةٌ أخرى تعبِّر عن وحدة الجوهر أفضل من هذه؟! ولولا أن الرب هو الذي وَضَعَ الروح

القدس في صيغة المعمودية، وجعله معه ومع الآب، لكان من الممكن أن ينسبوا إلينا أننا نحن الذين وضعنا الروح القدس مع الآب والابن. ولكن الروح حقاً مع الآب والابن. ونحن لا نفكر ولا نلفظ بشيء لا أساس له، أو ضد التعليم الصحيح، ولذلك لا يتجاسر أحدٌ أن يتهمنا؛ لأننا نتبع ذات كلمات الأسفار المقدسة.

٢٥– لكن أسلحة الحرب قد جُهِّزَت للقضاء علينا، والحرب الفكرية موجَّهةٌ ضدنا، وألسِنةُ المجدفين مصوَّبةٌ نحونا تطلق السهام ضدنا دائماً وبقسوة أكثر من القسوة التي أظهرها قاتلوا المسيح وهم يرجمون اسطفانوس.

ولا يجب أن نجعلهم يخفون هدفهم الحقيقي، فهم يتسترون خلف الهجوم علينا نحن ويقولون إن الخصومة هي معنا نحن، ولكن الهدف الحقيقي هو أعظم منا جميعاً. فكل الكمائن والفخاخ ليست ضدنا. وانضمام فئة إلى أخرى في الصراخ ضدنا ليس هو المطلوب، بل هناك ما هو أعظم من ذلك، وهو التعليم الصحيح (١تيمو ١: ١٠)، والرغبة في تقويض دعائم الإيمان بالمسيح. إنهم يريدون هدم التسليم الرسولي ومحوَّه ليُصبح في مستوى تراب الأرض. وهم مثل الذين عليهم دين واقترضوا من آخرين، ولكنهم يطلبون الإبطال، أي إبطال الوثيقة المكتوبة، فهي وحدها التي تؤكد وجود الدين. هكذا هؤلاء يطلبون البراهين المكتوبة، ويرفضون تسليم الآباء غير المكتوب، كأنه بلا قيمة. أما نحن، فلن نتأخر عن الدفاع عن الحق، ولن نهرب مثل الجبناء. لقد سلَّمنا الربُّ – كأساسٍ للخلاص– التعليم بأن الروح القدس يُحسَبُ مع الآب في جوهر واحد. أمَّا المقاومون، فهم يقولون عكس ذلك، ويعبِّرون عن رأيهم بفصل الروح القدس عن الآب، واعتباره في مرتبة الأرواح الخادمة. أليس صحيحاً أنهم –في هذه الحالة– يحاولون أن يعطوا تجديفهم سلطةً، يحاولون أن يجعلوها تتفوق على الشريعة التي سلَّمها الرب؟!

فلندع إذن الشجار ونفحص كل نقطة خاصة بالموضوع على حدة.

٢٦– كيف نصبح مسيحيين؟! الإجابة المعروفة للكل بالإيمان. وبأي طريقةٍ نخلص؟!!! بوضوحٍ، نُولد من جديد بالنعمة التي تعطى في معموديتنا. وهل هناك طريقةٌ

أخرى سوى ذلك، بها نخلص؟ فإذا عرفنا أن خلاصنا ثابتٌ على أساسٍ، هو الآب والابن والروح القدس، فهل نتخلى عن صورة التعليم الصحيح التي تسلمناها؟! (رو ٦: ١٧). وإذا تخلينا عن التعليم الصحيح، ألا يصبح هذا مصدراً للأنين؛ لأننا الآن صرنا أبعد عن الخلاص من اليوم الذي آمنا فيه (رو ١٣: ١١). إن مَن غادر هذه الدنيا بدون معمودية لا يختلف عمن اعتمد معمودية «ناقصة» وليست حسب التسليم، فالخسارة واحدة في الحالتين. وكل مَن لا يتمسك بالاعتراف الصحيح بالإيمان الذي سُجِّلَ في سجلات الكنيسة عندما قُبِلَ كموعوظٍ يوم عُتِقنا من الأوثان ورجعنا إلى الله الحي (١تسا ١: ٩)، يصبح غريباً عن مواعيد الله (أف ٢: ١٢)، بل مخالفاً لما وقَّعَه بخط يده[١] عندما اعترف بالإيمان.

وبالنسبة لي أنا، فمعموديتي هي بداية الحياة الجديدة، ويوم المعمودية هو أول يوم من أيام الولادة الجديد[٢] وهذا يعني أن كل ما اعترفت به عندما نلت نعمة التبني هو أعظم ما عندي. فهل أرضى بأن يخدعني هؤلاء بكلماتٍ جوفاء، وأتخلى عن التسليم الذي قادني إلى النور، والذي به نلت معرفة الله، وأنا الذي كنتُ عدواً له بالخطية وصرتُ بالمعمودية ابناً لله؟ لكنني أنا أُصلِّي لكي أغادر هذه الحياة إلى الرب وأنا محتفظٌ بنفس الاعتراف بالإيمان النقي إلى يوم مجيء المسيح للدينونة؛ لأنني أحرّض الكل لكي يسلكوا نفس السلوك، وأن يحفظوا الروح القدس غير منفصلٍ عن الآب والابن؛ لأن هذا هو الإيمان الذي قَبِلوه واعترفوا به في تمجيد الثالوث، وهو التعليم الذي قبلوه في معموديتهم.

---

(١) الإشارة هنا إلى إمضاء الموعوظ على انضمامه للكنيسة في يوم معموديته، وهو انضمامٌ تحرص الكنيسةُ على أن تجعله اعترافاً بالإيمان يصحبه توقيعٌ على صيغةٍ مكتوبةٍ.

(٢) لا نستطيع أن نحصي عدد المرات التي استخدم فيها الآباء تعبير الولادة الجديدة كاسمٍ من أسماء المعمودية. وكما هو واضحٌ لمن يدقق النظر، أن الولادة من الله لا تتم بإرادة الإنسان، وإنما بعطية التبني التي يعطيها الله في المعمودية. فالإيمان لا يلد الإنسان ولادةً جديدةً، وإنما تدخُّل الله المباشر لي يأخذ من بنوة ابنه ويعطي الإنسان. ودور الإيمان هو قبول عطية الله، ولذلك الذين يصوِّرون التوبة على أنها ولادة جديدة، أو ثانية دون ربط هذا بالمعمودية، يقعون في الهرطقة البيلاجية، دون أن يعلموا أن الخلاص ليس قائماً على إرادة الإنسان وطلبه، وإنما على عطية الله الآب في المسيح يسوع (راجع ف ١٥: ٣٤).

الفصل الحادي عشر

الذين ينكرون الروح بقوة

٢٧- «لمن الويل، لمن الشقاوة» (أم ٢٣: ٢٩)، ولمن الضيق والظلمة؟! لمن الدينونة الأبدية؟! أليس للكافرين الذين ينكرون الإيمان؟! وما هو البرهان على إنكارهم الإيمان؟! أليس لأنهم اعتبروا اعترافهم كلا شيء؟! ومتى وبماذا اعترفوا؟! الإيمان بالآب والابن والروح القدس، عندما جحدوا الشيطان وملائكته واعترفوا بالكلام الخلاصي. وما هي الألقاب الإلهية التي اعترفوا بها كما يليق بأبناء النور؟! فإذا كانت الألقابُ الإلهية صريحةً، ألا يصبحون جاحدين ومتعدِّين لعهد خلاصهم؟ وأيُ اسمٍ آخر يمكن أن نعطيه لمن جحد الله؟! وماذا عن إنكار المسيح؟! أليس هذا هو الجحود بعينه؟! ومن ينكر الروح، ماذا نسميه؟! أليس بنفس التسمية السابقة؛ لأنه أنكر عهده مع الله؟ وإذا كان الاعتراف بالروح القدس يؤدي إلى بركة الإيمان الصحيح، وإنكاره يؤدي إلى الدينونة التي تليق بالأشرار، أليس مخيفاً ومرعباً لمن يفسد اعترافه بالإيمان، ويعتبر الاعتراف كلا شيء، خصوصاً وأنه لم يواجه الخوف من الحريق بالنار، والسيف أو الصليب أو الجلد، أو الضرب، أو العجلة، أو آلات التعذيب الأخرى، بل ضلَّ بواسطة السفسطة وخداع أعداء الروح القدس؟

إنني أشهد لكل إنسان يعترف بالمسيح وينكر الآب، أن المسيح لن يفيده بشيء. ومَن يدعو الله وينكر الابن، فإن إيمانه أيضاً باطل (١كور ١٥: ١٧).

وأيضاً من ينكر الروح، فإيمانه بالآب والابن أيضاً باطل؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يتمسك بالإيمان الصحيح بالآب والابن بدون الروح القدس؛ لأن من لا يؤمن بالروح لا يؤمن بالابن، ومن لا يؤمن بالابن لا يؤمن بالآب. ولا يستطيع أحد أن يقول يسوع ربٌّ إلَّا بالروح القدس (١كور ١٢: ٣). وأيضاً ليس أحدٌ رأى الله مطلقاً، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبَّر (يو ١: ١٨). ومَن يجحد هذا الإيمان، فليس له نصيب في السجود الحقيقي، فلا يستطيع أحد أن يسجد للابن إلَّا بالروح القدس، ولا يستطيع أحد أن يدعو الآب أباً إلَّا بروح التبني، أي الروح القدس.

الفصل الثاني عشر

ضد الذين يدّعون أن المعموديةَ باسم الآب وحده، كافيةٌ

٢٨- لا ينخدع أحدٌ لأن الرسول كثيراً ما أغفل اسم الآب والروح القدس في الكلام عن المعمودية، ولا يتخيل أحدٌ أن استدعاء أسماء الأقانيم الثلاثة غير معروف، لا سيما في عبارات مثل هذه «أنتم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلا ٣: ٢٧). وأيضاً «اعتمدنا للمسيح، اعتمدنا لموته» (رو ٦: ٣). **فاسمُ المسيحِ هو الإيمان كله**، فهو يعلن لنا الله الآب الذي مسحه، والابن الذي تقبل المسحة، والروح القدس الذي هو المسحة. وهذا ما تعلمناه من بطرس في سفر الأعمال: «يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس» (أع ١٠: ٣٨). وأيضاً في إشعياء: «روح الرب عليَّ لأنه مسحني» (إش ٤٠: ١) والمزامير: «لذلك مسحك الله إلهك بزيت البهجة أكثر من شركائك» (مز ٤٥: ١).

وأحياناً ترى في الأسفار المقدسة الإشارة إلى الروح القدس وحده دون الآب والابن في الكلام عن المعمودية، مثل «لأننا بروح واحد اعتمدنا لجسد واحد» (١كور ١٢: ١٣). والمعنى نفسه «أنتم سوف تتعمدون بالروح القدس» (أع ١: ٥) أو «هو سوف يعمدكم بالروح القدس» (لو ٣: ١٦). ومع ذلك لا يستطيع أحد أن يقول بأن

المعمودية التي استدعيَ فيها الروح القدس وحده هي معمودية كاملة. لأن التسليم الذي قبلناه بواسطة النعمة المحيية (أي التعميد باسم الآب والابن والروح القدس)، يجب أن يظل كما هو بدون تعدٍّ؛ لأن الثالوث هو الذي فدى حياتنا من الهلاك، وأعطانا قوة التجديد الكامنة في السر، وهو الذي يعطي لنفوسنا الخلاص العظيم. ولذلك، فإن الإضافة أو الحذف تعني فقدان الحياة الأبدية نفسها.

وإذا كان فصل الروح القدس عن الآب والابن ضاراً بالمعَمَّد، ويجعل الذي يعتمد لا ينال شيئاً، فكيف لا يصبح فصل الروح القدس عن الآب والابن ضاراً بنا؟!

الإيمان والمعمودية هما طريقان للخلاص لا يمكن فصلهما؛ لأن الإيمان يَكمُل بالمعمودية، والمعمودية مؤسَّسةٌ على الإيمان، وكلاهما مؤسَّسٌ على الأقانيم الثلاثة. لأننا آمنا بالآب والابن والروح القدس، كذلك نحن نعتمد باسم الآب والابن والروح القدس.

أولاً الاعتراف بالإيمان الذي يقودنا إلى الخلاص، ويتبع الاعتراف المعمودية التي هي الختم الذي يختم قلوبنا.

الفصل الثالث عشر

شرح السبب الذي يجعل بولس يضع الملائكة مع الآب والابن

٢٩– يعترضون علينا بأن كائناتٍ أُخر يذكرها الرسول مع الآب والابن، وهؤلاء لا يقدَّم لهم المجد مع الآب والابن. ويستشهدون بما يقوله الرسول لتيموثاوس حيث يضع الملائكة مع الأقانيم: «أناشدك أمام الله والرب يسوع المسيح والملائكة المختارين» (١تيمو ٥: ٢١).

نحن لا نفصل الملائكة عن خليقة الله، لكننا لا نمجدهم مع الآب والابن، هذا اعتراضهم.

وإجابتي واضحة، رغم أن اعتراضهم سخيف ولا يستحق إجابة، ومع ذلك، فإن مَن يقف أمام قاضٍ عادلٍ لا سيما القاضي العادل الذي يُظهِر عطفاً على كل من يقف أمامه، ويصدر أحكاماً لا تقبل الطعن، يجد أن دعوة عبدٍ للشهادة أمرٌ ممكن. لكن ما هو غير ممكن حقاً هو أن يصبح العبدُ حراً ويدعى ابن الله ويقوم من الأموات ويصبح ملكاً علينا. هذا مستحيل؛ لأن العبد لا يمكن أن يكون ملكاً. وكيف يمكن أن يُحسب واحدٌ مثل الله، وهو غريبٌ عن الله؟! بل كيف ننال نحن الخلاص من العبودية بواسطة

من هو خاضع للعبودية مثلنا؟

وعليه، لا يمكن أن يكون ذِكر الروح والملائكة هو من باب المساواة بين الروح والملائكة. فالروح ندعوه رباً للحياة، أمَّا الملائكة فهم معاونون لعبيدٍ مثلهم، وشهودٌ أمناء على ما أخذناه من حق.

ومن عادة القديسين أن يسلِّموا وصايا الله بحضور شهود، كما فعل بولس الرسول نفسه مع تيموثاوس: «وما سمعته مني بشهود كثيرين أودعه أناساً أمناء» (٢تيمو ٢: ٢). وها هو يدعو الملائكة للشهادة؛ لأنه يعلم أن الملائكة سيكونون حاضرين مجيء الرب للدينونة، عندما يأتي الرب بمجد أبيه ليدين المسكونة بالعدل. ولذلك يقول لنا: «مَن يعترف بي أمام الناس، يعترف به ابن الإنسان أمام ملائكة الله، ومن ينكرني أمام الناس أنكره أمام ملائكة الله» (لو ١٢: ٨ – ٩). ويقول بولس في موضعٍ آخر عند ظهور الرب يسوع من السماء مع ملائكته (٢تسا ١: ٧)، وهكذا يطلب الرسول شهادة الملائكة، ويعدُّهم شهوده الأمناء أمام كرسي القضاء العظيم.

٣٠– وليس بولس وحده هو الذي يفعل ذلك، بل كل خدام الكلمة الذين لا يكُفُّون، بل يطلبون شهادة السماء والأرض؛ لأن كل الأعمال التي تحدث، لا تتم إلَّا على الأرض أو في السماء، وأن يوم الدينونة سوف يتم فيه فحص كل الأعمال التي تمت في هذه الحياة، وسيكون الكل حاضراً للشهادة. لذلك قيل: «سوف ينادي السماء من فوق الأرض، لكي يدين شعبه» (مز ٥٠: ٤). وموسى عندما كان يسلِّم الوصايا للشعب قال: «أنا اليوم أُشهِدُ عليكم السماء والأرض» (تث ٤: ٢٦). وأيضاً نشيده «انصتي أيتها السموات، فأتكلم، واسمعي أيتها الأرض كلمات فمي» (١: ٢)، وإرميا يُخبر عن دهشة السماء لإخبار آثام الشعب «السماء[١] تدهش وترتعب لأن شعبي ارتكب شرَّين» (إر ٢: ١٢ – ١٣).

(١) السماء تعني أحياناً الملائكة، وتعني أحياناً حضور الله كملك "ملكوت السموات"، وأحياناً تعني الله نفسه :"أخطأت إلى السماء" (لو ١٥: ٢١).

ولأن الرسول بولس يعلم أن الملائكة قد أقامهم الله حراساً ومرشدين للبشر، يدعوهم للشهادة، وحتى يشوع بن نون أقام حجراً للشهادة على كلماته، ولأن يعقوب أقام كومة حجارة للشهادة (تك ٣١: ٤٧)، قال يشوع: «هذا الحجر الذي أنصبه اليوم يكون شاهداً بيني وبينكم حتى النهاية إذا كذبتم على الرب إلهكم» (يش ٢٤: ٢٧س)، وربما اعتقد هؤلاء أنه بقوة الله سوف تتكلم الحجارة وتشهد على آثام الناس، أو على الأقل سوف يصبح وجود هذه الأشياء، المادية دليلاً يوخز الضمائر ويذكِّرهم بما فعلوه.

وعلى نفس المنوال الذين أئتُمنوا على خدمة النفوس وقيادتها، يطلبون شهادة الملائكة، أو أي شهود آخرين ليقفوا معهم في يوم الدينونة.

أما الروح القدس، فهو لا يحسب مع الله مثلما تحسب الملائكة الذين يحضرون مناسبةً عابرةً، وهي الدينونة، وإنما الروح القدس هو في شركة الطبيعة الإلهية، ولم نقحمه نحن، بل هو بمعية الرب.

الفصل الرابع عشر

الاعتراض بأن البعض اعتمدوا لموسى،
وآمنوا به،
والرد على ذلك، مع شرح الرموز

٣١- ولكن يقولون: مع أننا اعتمدنا بالروح، فليس من الصواب أن نحسب الروح مع الله؛ لأن الذين اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر لم يؤمنوا بأن موسى مع الله، رغم أن الإيمان في العهد القديم يتضمن الإيمان بالناس كما هو مكتوب «وآمن الشعب بالله وبعبده موسى» (١كور ١٠: ٢ - خر ١٤: ٣١س). ويسألون: لماذا نرفع الروح القدس ونمجّده ونجعله فوق الخليقة، فالإيمان والمعمودية لم يجعلا موسى فوق الخليقة، وقد سبق أن آمن البشر ببشر مثلهم؟

وإجابتنا هي أن الإيمان بالروح القدس هو الإيمان بالآب والابن، وهو ذات الإيمان الذي به ننال المعمودية.

أمَّا الإيمان بموسى والمعمودية في السحابة، فهو ظلٌّ ورمز[١]. والأمور الإلهية تصوَّر بالظلال والرموز، وهي عادةً رموزٌ صغيرةٌ أو إنسانية. وهذا لا يعني أن الأمور الإلهية نفسها صغيرة. الرمز هو إعلانٌ عما سيأتي في المستقبل، فهو إشارة لما سوف يحدث. وهكذا آدم الآتي (رو ٥: ١٤). ورمزياً أيضاً، الصخرة تعلن عن مجيء المسيح، والمياه التي نبعت منها هي إشارة إلى قوة الحياة النابعة من الكلمة (١كور ١٠: ٤)، كما قيل «إن عطش أحدٌ فليأتِ إليَّ ويشرب» (يو ٧: ٤٧). والمن رمزٌ لخبز الحياة الذي نزل من السماء (يو ٦: ٤٩ – ٥١) والحيّة المرفوعة على سارية (يو ٣: ١٤ – عدد ٢١: ٩) رمزٌ للآلام المحيية الخلاصية التي تمت بواسطة الصليب؛ لأن الذين نظروا كانوا يخلصون.

وفي نفس الإطار، نفهم قصة خروج بني إسرائيل من أرض مصر، فقد سُجِّلت لكي تعلن الخلاص الذي سوف يتحقق في المستقبل، أي في المعمودية. لقد نجا أبكارُ الإسرائيليين من الموت، وهذا رمزٌ لخلاص أجساد الذين يعتمدون. أما النعمة فهي تعطى بالدم، لأن دم الحمل كان إشارةً إلى دم المسيح. والبكر هو رمزٌ للأبكار الذين ينالون التجديد، فيصيرون أبكار الخليقة الجديدة.

فآدم الأول الذي سقط، هو فينا؛ لأننا تناسلنا منه، وسوف تظل الإنسانية كذلك حتى نهاية الدهور، الكل يتناسل من آدم؛ ولذلك قيل في آدم يموت الجميع (١كور ١٥: ٢٢). وفيه أيضاً مَلَكَ الموت (رو ٥: ١٧) وظلَّ قانونُ الموتِ سارياً علينا إلى أن جاء المسيح.

ولقد حفظ الله الأبكارَ من المهلك؛ لكي يعلن ما سيأتي، وهو أننا نحن الذين وُهِبنا الحياة في المسيح، سوف نحيا ولن نموت في آدم.

---

(١) الرمز، أو الكلمة اليونانية τύπος تعني التصميم الذي يوحي بفكرة أو الإشارة إلى ما سيأتي في المستقبل، إذا استُخدِمَت للكلام عن أحداث العهد القديم. أما إذا استُخدِمَت للكلام عن العهد الجديد، فهي تعني الرمز الذي يشير إلى ما يحدث في حياة الكنيسة الآن.

أمَّا البحر والسحابة، ففي ذلك الزمان كانا وسيلة العبور إلى هبة الإيمان، أمَّا في زمننا، فهما إشارة إلى النعمة، والحكيم وحده هو الذي يفهم هذه الأمور (هوشع ١٤: ٩) أي كيف صار البحرُ رمزاً للمعمودية؟

كان البحرُ وسيلة الابتعاد عن قهر فرعون، وهكذا صارت المعمودية الاغتسال الذي نبتعد فيه عن تسلط الشيطان. وفي البحر غرق العدو، وفي المعمودية تموت عداوتنا لله. وكما خرج الشعب بسلام من البحر، هكذا نخرج نحن أحياء من الموت، ونصعد من المياه أحياءٌ من بين الأموات وقد خلصتنا نعمة الذي دعانا (أف ٢: ٥). والسحابةُ هي ظِلٌّ لنعمة الروح القدس الذي يطفئ لهيب الشهوات بواسطة إماتة الأعضاء (كولوسي ٣: ٥).

٣٢- ماذا يمكن أن يقال، هل لأنهم اعتمدوا لموسى بشكل رمزي تصبح نعمة المعمودية شيئاً صغيراً؟ لو صحَّ ذلك، ولو جاز لنا أن نقارن الرمز بالحقيقة لخسرنا الكرامة التي وصلتنا من الحقيقة، ولَمَا تبقَّى لدينا شيءٌ من الأمور العظيمة، مثل محبة الله الذي قدَّم ابنه الوحيد عن خطايانا، وهو ما سبق ورَمَزَ له تقديم إبراهيم لابنه اسحق ذبيحةً دون أن يشفق عليه.

كان هذا رمزاً للعمل الإلهي العظيم. فهل بسبب الرمز، تصبح الحقيقة صغيرة؟ وهل نستهين بآلام الرب المجيدة؛ لأن خروفاً قُدِّمَ عِوضاً عن اسحق. يا لغرابة هذا المنطق الذي لو طبقناه؛ لأصبح حتى النزول إلى الجحيم ليس عملاً مخيفاً لمجرد أن يونان، وهو رمزٌ لهذا العمل العظيم ظَلَّ ثلاثة أيام وثلاث ليال في بطن الحوت[١].

هذا ما يحاوله الذين يقارنون المعمودية بالخروج من أرض مصر محاولين الإقلال من النعمة بالمقارنة بينها وبين ضعف الرمز، وكأن موسى والبحر كرمزين صغيرين،

---

(١) واضحٌ هنا أن الثلاثة أيام ليست بالتحديد ٧٢ ساعة، بل هي رمزٌ لا يحمل أي تحديد زمني، بل هو تحديد عقيدي غير مرتبط بالزمن.

يضعفان من قوة تدبير الإنجيل كله.

فأيُ غفرانٍ للخطايا؟ وأيُ تجديدٍ للحياة يمكن أن يتحقق في البحر؟ وما هي العطية الروحية التي وُهِبت بواسطة موسى؟ وكيف تحقق موت الخطية هناك؟ فالذين عبروا البحر مع موسى لم يموتوا مع المسيح، ولذلك لم يقوموا معه (رو ٦: ٨)، ولم يلبسوا صورة السماوي (١كور ١٥: ٤٩)، ولم يحملوا في أجسادهم إماتة يسوع (٢كور ٤: ١٠)، ولم يخلعوا الإنسان العتيق ويلبسوا الجديد الذي يتجدد للمعرفة حسب صورة خالقه (كول ٣: ٩، ١٠)، فما هو وجه المقارنة بين المعموديتين، في حين أن العنصر الوحيد المشترك هو الاسم فقط؟

إنَّ الفرقَ بينهما مثل الفرقِ بين الحلم والحقيقة، أو بين الظل والرمز والواقع نفسه.

٣٣- ولكن الإيمان بموسى لا يقلل من الإيمان بالروح القدس؛ لأن الروح ليس مثل موسى. منطق هؤلاء يجعلنا نقلل من الإيمان بالله خالق الكل، لأنهم يزعمون أن موسى أضيف إلى الله حسب ما هو مكتوب: "فآمن الشعب بالرب وبعبده موسى"، ويبدو حسب ادعاء هؤلاء أن موسى أضيف إلى الله، وطبعاً كما يضاف الروح القدس إلى الله. وهذا غير صحيح؛ لأن موسى ليس رمزاً للروح القدس، بل هو رمزٌ للمسيح كوسيط.

وعند نزول الشريعة كان موسى يقوم بدور الوساطة بين الله والشعب، ولم تكن هذه الوساطة خاصة بالروح القدس، بل بالشريعة «بواسطة ملائكة وبيد وسيط» (غلا ٣: ١٩). والوسيط هو موسى نفسه الذي قال له الشعب: «تكلم أنت معنا... ولا يتكلم الله معنا» (خر ٢٠: ١٩). فالإيمان بموسى هو إشارة إلى الإيمان بالوسيط، أي الرب الذي هو الوسيط بين الله والناس (١تيمو ٢: ٥)، وهو ما جعل المسيح نفسه يقول: «لو كنتم آمنتم بموسى لآمنتم بي» (يو ٥: ٤٦).

فهل إيماننا بالرب شيء صغير؛ لأن الإيمان بموسى كان رمزاً له؟ وبالمثل، لو أن الشعب في القديم اعتمد، فهذا لا يعني أن عطية الروح القدس التي تعطى في المعمودية في العهد الجديد صغيرة. ومما يوضِّح المعنى الذي ندرسه هو أن اسم موسى يمكن أن يحل محل «الناموس» مثل «عندهم موسى والأنبياء» (لو ١٦: ٢٩)، ويصبح معنى الكلمات «اعتمدوا لموسى» أنهم نالوا معمودية الشريعة.

لماذا يريد أعداء الحقيقة أن يحقِّروا من فرح رجائنا (عب ٣: ٦)، ويقللوا من شأنه، وبإساءة تفسير الظلال والرموز، يحتقرون عطية الله مخلصنا الذي بالميلاد الجديد في المعمودية يجدد شبابنا مثل النسور (مز ١٠٣: ٥)؟ إن هؤلاء قد أساءوا فهم الإيمان وصاروا أشبه بالأطفال الصغار، لا بل الرضعان الذين لا يحتملون إلَّا اللبن (عب ٥: ١٢)؛ لأنهم يجهلون سر خلاصنا العظيم، ولأن النمو في حياة التقوى أشبه بالتعليم ينمو فيه الإنسان حتى يصل إلى كمال التقوى. ونحن نبدأ أولاً بتلقي المبادئ البسيطة والسهلة على قدر إدراكنا، بينما يهتم المربي بأن يغيِّرنا إلى أن نرتفع إلى مستوى أعظم، ونصبح مثل العيون التي أَلِفت الظلام وشيئاً فشيئاً تقترب من نور الحقيقة العظيم. وهكذا يشفق علينا المربي الذي في غنى حكمته (رو ١١: ٣٣)، وفطنته التي لا تُسبَر، عاملنا برفق وعلى قدر إدراكنا، فسمح لنا بأن نرى الظلال، وأن نرى الشمس ونحن غاطسون بالماء، حتى لا نصاب بالعمى، إذا ما ألقينا نظرةً على النور الباهر الصافي.

لذلك جاءت الشريعة كرمزٍ لِما هو آتٍ. وتعليم الأنبياء كان يغلِّف الحقَّ بالظلال؛ حتى يمكن لعيني الإنسان الداخلية أن تتروض على رؤية الحكمة المخفية في سر (١كور ٢: ٧)، وتعتاد على ذلك حتى إذا ما جاء السر، صار مقبولاً.

يكفي ما قيل عن الرموز، ولا يمكن أن نقدم أكثر مما قلنا؛ لئلا تتضخم هذه النقطة الفرعية وتطغي على الموضوع الأصلي.

الفصل الخامس عشر

المعمودية،

والرد على الاعتراض بأننا اعتمدنا بالماء

٣٤- ماذا نضيف؟ بالحقيقة إن أعدائنا قد تسلَّحوا ببراهين كثيرة ضد الإيمان. إنهم يجادلوننا ويقولون: «نحن اعتمدنا بالماء، وهذا لا يحتم علينا أن نجعل الماء أرفع شأناً من الخليقة، أو أن نعطي الماء شركةً في الآب والابن». وهكذا يبدو أن هؤلاء قد جُنُّوا من الغيظ حتى أنهم لا يدَّخرون وسعاً في الهجوم على من يجاوبهم مستخدمين أية وسيلة ممكنة. ومع كل هذا، فإننا لن نتأخر عن الرد على هذه النقطة بالذات؛ لأننا إما أن نُعلِّم الجهال، أو على الأقل لا نهرب من ملاقاة فاعلي الشر. وكل ما نحتاجه الآن هو أن ننتبه لخطواتنا.

٣٥- تدبير إلهنا ومخلصنا الخاص بالإنسان هو استرجاع الإنسان من السقوط، والعودة من الاغتراب الذي حدث له بسبب المعصية إلى شركةٍ مباشرةٍ مع الله؛ لذلك السبب جاء المسيح، وحَلَّ في الجسد، وعاشَ حسب المثال الذي نراه في الأناجيل، وتألم على الصليب، وقُبِرَ وقام؛ لكي يخلِّص الإنسان عندما يتمثل بالمسيح، ويعود إلى رتبة البنوة القديمة.

والتشبُّه بالمسيح هو وحده الذي يقود إلى كمال الحياة، ليس فقط للتشبُّه به كمثالٍ للوداعة والتواضع والاحتمال، كمنهجٍ لحياتنا، بل موته أيضاً، ولذلك يقول بولس المتشبِّه بالمسيح: «لأتشبَّه بموته لعلي أبلغ إلى القيامة من بين الأموات» (فيلبي ٣: ١٠، ١١)، فكيف نبلغ إلى التشبُّه به في موته؟ (رو ٦: ٤، ٥).

أليس بالدفن معه في المعمودية؟ وماذا نحصل من جراء ذلك؟ أولاً يجب أن تنتهي الحياة الأولى الساقطة، وهذا مستحيل إذا لم يُولد الإنسان من جديد حسب كلمات الرب (يو ٣: ٣). والميلاد الجديد –واسمه يعلن ذلك– هو بداية الحياة الثانية. وقبل أن نبدأ الحياة الثانية لا بُد وأن نضع حداً للحياة الأولى، وهذا يشبه ما يفعله المتسابقون الذين يتسابقون جرياً في اتجاهين متضادين، ويحتاجون إلى وقفةٍ صغيرة قبل الجري في الاتجاه المضاد. وهكذا في التجديد، لا بُد وأن يأتي الموت ليفصل بين الحياة القديمة والحياة الجديدة، فيصبح مثل الوسيط الذي يصنع حدَّاً للقديم ويعطي بدايةً للجديد.

كيف ننزل إلى الجحيم؟ بالتشبُّه بالدفن مع المسيح في المعمودية. فأجسام المعمَّدين تُدفن في الماء، وهذا يعني أن أعمال الإنسان العتيق تُدفن، كما يقول الرسول بولس: «وفيه ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية، بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية» (كول ٢: ١١، ١٢)، وهذا يطهِّر النفسَ من دنس الخطايا (١بط ٣: ٢١) التي تنمو داخل النفس بسبب انغماس العقل في اللذات الجسدية، ويتم القول: «تغسلني فأبيَّض أكثر من الثلج» (مز ٥١: ٩).

ولذلك، نحن لا نتشبه باليهود الذين يغتسلون إذا تدنسوا؛ لأننا نعترف بمعمودية واحدة للخلاص (١بط ٣: ٢١ – أف ٤: ٥). والمعمودية واحدة؛ لأن الموت عن العالم واحد، وأيضاً القيامة من الموت هي واحدة، وهو ما ترمز له المعمودية الواحدة. ولذلك السبب أعطانا الرب مُدبِّر حياتنا، عهد المعمودية وجعله رمزاً للحياة والموت. فالمياه تكمِّل صورة الموت، أما الروح فهو يعطينا عربون الحياة. ومن هذا يمكننا أن نجيب

بوضوح على السؤال عن علاقة الماء بالروح (يو ٣: ٥)، فغاية المعمودية مزدوجة:

أولاً: القضاء على جسد الخطية لكي لا يثمر للموت (رو ٦: ٦، ٧: ٥).

ثانياً: الحياة بالروح التي تثمر القداسة (رو ٦: ٢٢).

ويحدث هذا عندما تتقبل المياهُ الجسدَ، مثلما يتقبل القبر الجسد، بينما يسكبُ الروحُ القوةَ المحيية ويجدِّد نفوسنا من موت الخطية ويعيدنا إلى الحياة الأولى. وهذا هو ما يحدث في الميلاد الجديد من الماء والروح، أي الموت الذي يتم في الماء، كذلك الحياة التي تُبعث فينا من جديد بواسطة الروح. وبغطساتٍ ثلاث واستدعاء الأقانيم الثلاثة يتم سر المعمودية العظيم، ويتحقق رمز الموت، ويتم تسليم المعرفة الإلهية للمعمدين عندما تستنير نفوسهم.

ومن هذا يتضح لنا أن النعمة ليست من المياه، فهي بذاتها لا تستطيع أن تعطينا شيئاً، وإنما حضور الروح القدس. ولذلك قيل عن المعمودية إنها ليست لإزالة وسخ الجسد، بل سؤال الضمير الصالح عن الله (١بط ٣: ٢١). فالربُّ، إذاً لكي يدرِّبنا على الحياة الجديدة التي تبدأ بعد القيامة من موت الخطية، وَضَعَ لنا صورة الحياة الجديدة في الإنجيل، وهي شريعة الوداعة واحتمال الأخطاء والتحرر من الأهواء التي تنبع من محبة اللذات ومن الطمع، حتى نملك خواص الحياة الأبدية، ونحن هنا على الأرض.

والإنجيل هو الصورة المسبَقة التي تصف لنا الحياة الأبدية. وإذا أراد إنسان أن يصف الحياة الأبدية حسب صورتها في الإنجيل، فهو ليس بعيداً عن الصواب.

ولنرجع الآن إلى موضوعنا الأصلي.

٣٦– بالروح القدس، استعدنا سُكنانا في الفردوس، وصعودنا إلى ملكوت السموات، وعودتنا إلى مكانة البنوة وحريتنا لأن ندعو إلهنا الآب، وشركتنا في نعمة المسيح، وتسميتنا أبناء النور، وميراثنا في المجد الأبدي، وباختصار شديد، حصولنا على

ملء البركة (رو ١٥: ٢٩) في هذه الحياة والحياة الآتية، وكل العطايا الصالحة التي أُعدَّت لنا أو التي نراها حسب المواعيد وبالإيمان، ونرى انعكاس هذه العطايا كأنها حاضرة، ولكننا ننتظر التمتع الكامل بها. فإذا كان العربون هكذا، فكم يكون الكمال؟ وإذا كانت باكورة الثمار فائقة، فماذا عن الكمال؟

ومن هذا نعرف الفرق بين الروح القدس ومعمودية الماء؛ لأن الرب عمَّد بالروح القدس، أما معمودية يوحنا، فكانت بالماء فقط. وحقاً قال يوحنا: «أنا أعمدكم بالماء للتوبة لكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني وهو سيعمدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣: ١١). وهنا يعني نار الفحص في يوم الدينونة؛ لأن الرسول قال: «إن النار سوف تمتحن عمل كل واحد» (١كور ٣: ١٣) وأيضاً «سوف يظهره اليوم بالنار».

ويوجد مَن كانت لهم بطولة التقوى الحقيقية، وهم الذين احتملوا الموت حقاً لأجل المسيح، ليس بالدفن في المعمودية، وهؤلاء لم يحتاجوا إلى علامة الماء لينالوا الخلاص؛ لأنهم اعتمدوا بدمائهم. وإذا ذكرت هذا، فليس لكي أُقلل من معمودية الماء، بل لكي أُقلل من ضجيج الذين يقاومون الروح القدس، ويخلطون الأمور، ويقارنون بين ما لا تجوز المقارنة فيه.

الفصل السادس عشر

الاعتقاد السليم هو أن الروح القدس لا يمكن فصله عن الآب والابن، فهو حاضرٌ معهما في الخليقة العاقلة، وفي تدبير البشر، وأيضًا في الدينونة الآتية

٣٧– لنعُد إلى نقطةٍ أثيرت من قبل، وهي أن الروح القدس لا ينفصل ولا يمكن أن يبتعد في شيء مطلقاً عن الآب والابن. وبولس في الفقرة الخاصة بموهبة التكلم بالألسنة يقول: «لو تنبأتم جميعاً ودخل بينكم واحد غير مؤمن أو غير عارف لظهر أمره للكل وحكم عليه الجميع عندما يعلنون له خفايا قلبه فيسجد لله ووجهه إلى الأرض معلناً أن الله فيكم بالحق» (١كور ١٤: ٢٤، ٢٥). فإذا كان الله يعلَن عندما يتنبأ الأنبياء حسب توزيع مواهب الروح القدس، فعلى المقاومين أن يقولوا لنا ما هي المكانة التي يعطونها للروح القدس؟! هل سيحسبونه مع الله أم يقصونه إلى مكانة المخلوقات؟!

الجواب هو في كلمات بطرس الرسول لسفيرة: «لماذا اتفقتما على تجربة روح

الرب. أنتما لم تكذبا على الناس، بل على الله» (أع ٥: ٩)، وهذا يعني أن الخطايا الموجَّهة ضد الروح القدس هي موجهة ضد الله. ومن هذا نتعلم أنه في كل أعمال الله، فإن الروح القدس غير منفصلٍ عن الآب والابن. وعندما يوزِّع الله الأعمال، والابن يقوم بتوزيع الخدمة، أما الروح القدس الحاضر معهما دائماً، فهو بإرادته يوزِّع المواهب لكلٍ حسب استحقاقه. ولذلك قيل: «أنواع مواهب مختلفة، أما الروح فواحد، وأنواع خِدَمٍ، ولكن الرب واحد، وأنواع أعمال ولكن الله واحد هو الذي يعمل الكل في جميع الناس» (١كور ١٢: ٤ – ٦).

ويتابع الرسول: «وهذا كله يعمله الروح الواحد نفسه موزِّعاً مواهبه على كل واحد كما يشاء (الروح القدس)» (١كور ١٢: ١١).

وكل ما ذكرناه من كلمات الرسول لا يستدعي مطلقاً فكرة الترتيب السابقة؛ لأن الرسول ذكر الروح القدس أولاً وبعد ذلك الابن، ثم الله الآب، وكأنه بهذا قد عكس الترتيب. وإنما الواقع هو أن الرسول يكتب وفق عادات الكتابة المعروفة لنا؛ لأننا عندما ننال المواهب، فإن أول ما نفكر فيه الموزِّع، وبعد ذلك الذي أرسل موزِّع المواهب، ثم يرتفع إدراكنا حيث ينبوع الخيرات وسببها.

٣٨– وبالإضافة إلى ما ذكرناه، يمكن أن نتعلم من المخلوقات التي خُلقت في البدء، ما هي شركة الروح القدس مع الآب والابن.

فالقوات النقية العاقلة التي تفوق الخليقة الظاهرة، هي مقدسة وتظل كذلك؛ لأنها تنال نعمة التقديس بواسطة الروح القدس، مع أن الصمت يحيط بالطريقة التي خُلِقَت بها القوات السمائية؛ لأن مؤرِّخ الخليقة أعلن لنا فقط خلق الكائنات المنظورة. وأنت يا من لديك قدرة إدراك، تستطيع بالمقارنة بالخليقة المنظورة أن تدرك الخليقة غير المنظورة، وتمجِّد الخالق الذي خُلِقَت به كل المخلوقات المنظورة والغير المنظورة، الرئاسات والسلطات والقوات والعروش والسيادات وكل الطبائع العاقلة التي لا نعرف أسمائها (راجع كولوسي ١: ١٦).

وعندما تدرك كل هذه المخلوقات، أرجوك أن تضع في فكرك السبب الرئيسي في وجود كل هذه المخلوقات، وهو الآب، والسبب الخالق هو الابن، والسبب المكمِّل هو الروح القدس.

وهكذا توجد الأرواح الخادمة بإرادة الآب، وتنال كيانها بواسطة حضور الروح القدس. وتكميل الملائكة هو تقديسهم واستمرارهم في التقديس. ولا يجب أن يتخيل أي إنسان أنني أؤكد أن الأقانيم الثلاثة هي ثلاث طبائع، أو أن عمل الابن غير كامل. ولأن مبدأ (السبب) الكائنات هو واحد، يخلق بالابن، ويكمِّل بالروح القدس. وعمل الآب الذي يعمل كل الأعمال في كل المخلوقات ليس ناقصاً، ولا عمل الابن الخالق هو غير كامل، إن لم يكمله الروح القدس. فليست الأقانيم في احتياج كل إلى الآخر؛ لأن الآب يستطيع أن يخلق بإرادته وحده بدون الابن، ولكنه يتم إرادته بالابن. وكذلك الابن لا يحتاج إلى الآب لكي يعاونه فيما يعمله على مثال الآب، بل يريد أيضاً أن يكمِّل كل الأشياء بالروح، «بكلمة الرب صُنِعَت السموات وبروح فيه كل جنودها» (مز ٣٢: ٦). والكلمة هنا ليست لفظةً تسري في الهواء تدفعها الحنجرة، ولا نسمة الفم مجرد نفخة تصدر من الفم، ولكن الكلمة هو الكائن في البدء عند الله وهو الله (يو ١: ١). وروح فم الله هو روح الحق الذي من عند الآب ينبثق (يو ١٥: ٢٦). وعليك أن تعتقد بثلاثة: الرب الذي يعطي الأوامر، والكلمة الذي يخلق، والروح الذي يثبِّت. وما هو التثبيت سوى التكميل بالتقديس. والتكميل يعني الثبات وعدم التغيُّر، والتمسك بالصلاح، فلا تقديس بدون الروح القدس. وقوات السموات ليست مقدَّسة بطبيعتها، فلو كانت مقدسة بطبيعتها، فلا يصبح بينها وبين الروح القدس فرق[١].

ولكن القوات السمائية تتميز عن بعضها البعض، وفي تقديسها الذي تناله من الروح القدس. فكما أن الحديد المحمَّي بالنار يتَّحد بالنار مع أنه غير النار، كذلك القوات

---

(١) استقر في اللاهوت الشرقي أن عمل الروح القدس هو التقديس، ولذلك يكمل الروح القدس عمل الآب والابن، وهو ما يشرح لنا أهمية عيد العنصرة.

السمائية، فإن طبيعتها الفائقة قد تكون مثل الريح أو النار غير المادية طبقاً لما هو مكتوب: «الصانع ملائكته رياحاً وخدامه لهيبَ نارٍ» (مز ١٠٤: ٤)، ولذلك هم كائنون في الفضاء ويظهرون بشكل مرئي حسب طبيعة أجسادهم الخاصة لمن يستحقون. ولكن تقديسهم يأتي إليهم من خارج طبيعتهم ويُبَثُّ فيهم كمالهم، بشركة الروح القدس. وهم يحافظون على رتبتهم بثباتهم في الصلاح والحق مع الاحتفاظ بحرية الاختيار، إلَّا أنهم لا يسقطون أبداً بفضل خدمتهم بأناة من هو حقاً صالح. ولو افترضت أنك أزلت الروح القدس، تنحل قوات الملائكة، وتهلك الكراسي ورؤساء الملائكة، وكل شيء يسقط في الفوضى، وتصبح حياتهم بلا ناموس ولا طقس يميِّز خدمتهم. وكيف يمكن أن يقول الملائكة: «المجد لله في الأعالي» إلَّا بقوة الروح القدس (لو ٢: ١٤)؟ وما من أحد تكلم بالروح القدس ويقول «ملعون يسوع» (١كور ١٢: ٣). وهو ما يمكن أن تقوله الأرواح الشريرة المعادية، وسقوطهم يؤكد أن القوات غير المنظورة هي حرة، وأن القوات الساقطة في حالة اختيار بين الفضيلة والرذيلة، ولذلك تظل بحاجة إلى معونة الروح القدس لكي تثبت في التقديس، ولأنها لا تنال هذه المعونة تفقد حريتها.

أنا أتمسَّك بما أقول، حتى جبرائيل الذي سبق وتكلم عن المستقبل، لم يقل شيئاً إلَّا ما سبق وعَرِفَه من الروح القدس. لأن النبوة من المواهب التي يوزِّعها الروح. والذي أُمِرَ أن يأتي إلى الرجل المحبوب جداً، دانيال (دا ١٠: ١١)، من أين حصل على الحكمة لكي يبلغه أسرار الرؤى، إن لم يكن قد نال الحكمة من الروح القدس؟! إنَّ الإعلان عن الأسرار هو بنوعٍ خاص، عمل الروح القدس حسبما كُتِبَ: «الله يعلنه لنا بالروح» (١كور ٢: ١٠). «وكيف للعروش والسيادات والرئاسات والسلطات، أي الرتب السمائية أن يعيشوا حياتهم السعيدة، إذا لم يروا وجه الآب الذي في السماء» (مت ١٨: ١٠)، وكيف يمكن أن يروا وجه الآب بدون الروح القدس؟!

وكما في الليل إذا أُزيحَ النور من البيت، تصبح العيون غير قادرة على الرؤيا بسبب الظلام، والأشياء الثمينة لا يمكن تمييزها، فيداس الذهب كالحديد، كذلك في عالم

الحياة العقلية، لا يمكن أن تستمر هذه الحياة العقلية الفائقة وفق قانونها بدون الروح القدس.

إن ثبات العالم الروحي بالروح القدس هو مثل ثبات الجيش وقيامه وفق نظامه العسكري، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إذا غاب قائده. أو مثل انسجام الخورس الذي يتداعى إذا أهمل مديره القيادة وضبط الأنغام. وكيف يقول السارافيم، قدوس، قدوس، قدوس، إذا لم يعلِّمهم الروح القدس الوقفات اللازمة التي تنسجم مع الحياة الروحية، والتي تسمح لهم بأن يرفعوا أصواتهم بالتمجيد؟ إن «كل ملائكته» و «كل قواته» «حين تسبح الله» (مز ١٤٦: ٢)، فإن هذا لا يتم إلَّا بمؤازرة الروح القدس. إن ألوف الألوف من الملائكة وربوات ربوات من الخدام (دا ٨: ١٠) يقفون أمام الله، وهؤلاء لا يمكنهم أن يكمِّلوا خدمتهم بلا عيب إلَّا بقوة الروح القدس. وكل ذلك الاتقان الفائق في السماء في خدمة الله الذي يجعل أصوات التسبيح للفرق والقوات الملائكية تلتحم وتتفق وتحقق الانسجام مع بعضها البعض، لا يتم بدون إشراف الروح القدس وقيادته هذه الكائنات السماوية، والتي لا تزيد في القامة مثل البشر وتكتمل بالنمو، وإنما تكتمل منذ خلقتها بسبب حضور الروح القدس، الذي يمنح هؤلاء الكائنات النعمة التي تنبع منه لكي يكمل كيانهم.

٣٩- وإذا تحدثنا عن التدابير الخاصة بالإنسان التي تمت بواسطة إلهنا العظيم ومخلصنا يسوع المسيح (تيطس ٢: ١٣)، فمن يمكنه أن ينكر أنها تمت بنعمة الروح القدس؟! فهل تريد أن تفحص الموضوعات الأولية مثل: بركات البطاركة والمعونة التي حصلت بنزول الشريعة، الرموز، النبوات، قوة الأبطال في الحروب معجزات الأبرار... أو ما حصل في تدبير مجيء ربنا في الجسد؟ الكلُّ تمَّ بالروح في المقام الأول، صار الروح المسحة، وصار حاضراً بلا افتراق في جسد الرب، كما هو مكتوب: «الذي ترى الروح ينزل عليه ويستقر هو ابني الحبيب» (يو ١: ٣٣ - مت ٣: ١٧). و«يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس» (أع ١٠: ٣٨)، ومن ثمَّ كان الرب يُتم كل أعماله بالروح. وكان معه حتى عندما جرَّبه الشيطان، فقد كُتِبَ «أُصعِدَ يسوع بالروح إلى البرية

ليُجَرَّب» (مت ٤: ١)، «وكان معه بلا افتراق عندما صنع الأعمال العجيبة» (مت ٧: ٢٢)، لأنه مكتوب: «إذا كنت أنا بروح الله أُخرج شياطين» (مت ١٢: ٢٨). ولم يفترق عنه عندما قام من الأموات؛ لأنه لما أراد أن يجدد الإنسان ويرد إليه النعمة التي كان قد حصل عليها من نفخة الله والتي فقدها الإنسان، قال وهو ينفخ على وجه[١] التلاميذ: «اقبلوا الروح القدس، من غفرتم له خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم عليه الغفران أُمسِكَ عنه» (يو ٢٠: ٢٢ – ٢٣).

ثم أليس واضحاً، وهو لا يقبل الجدل، أن ترتيب الكنيسة من الروح؟! لأنه هو الذي أعطاه كما قيل: «وقد أقام في الكنيسة الرسل أولاً والأنبياء ثانياً والمعلمين ثالثاً ثم منح هبة المعجزات وقوات الشفاء، والمعونة، وحسن الإدارة، والتكلم بالألسنة (١كور ١٢: ٢٨). وهذا التنظيم مرتَّبٌ بحسب توزيع مواهب الروح القدس. (١كور ١٢: ١١).

٤٠– وكل من يفكر حسناً، سوف يكتشف أنه في ظهور ربنا المرتَقَب من السماء لن يكون حضور الروح القدس في يوم الدينونة –كما يظن البعض– بلا فائدة، بل سوف يحضر الروح القدس أيضاً يوم ظهوره ليدين المسكونة بالعدل، فمن الذي يجهل الخيرات التي أعدها الله لمن يستحقها؟ مَن لا يعرف أن إكليل البر هو نعمة الروح التي تُفاض بغزارة وتعطى بالكمال في ذلك اليوم، الذي يوزِّع فيه المجد الروحي لكل من ناضل نضالاً نبيلاً شجاعاً؟!

فالأمجاد التي تُعطى للقديسين وفيرة حسب القول: «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤: ٢)، وهي الكرامة المختلفة التي قيل عنها: «إن نجماً يمتاز عن نجم في المجد وهكذا في القيامة من الموت» (١كور ١٥: ٤١ – ٤٢). فالذين خُتِموا بالروح القدس

---

(١) "وجه" في النص السكندري القديم الذي يظهر عند أثناسيوس (رسالة ١: ٨)، وعند ديديموس الضرير (مقالة عن الروح القدس ٦، ٣٣)، وشرح يوحنا (٢٠: ٢٢ – ٢٣) للقديس كيرلس السكندري، وهو أيضاً ما يظهر في النص القبطي القديم للعهد الجديد الذي يعود إلى بداية القرن الثالث.

ليوم الفداء (أف ٤: ٣٠) وحفِظوا الباكورة التي نالوها من الروح نقيةً بلا عيب، هم الذين يسمعون: «أحسنت أيها العبد الصالح الأمين كنت أميناً في القليل فسأُقيمك على الكثير» (مت ٢٥: ٢١). وبالمثل الذين أحزنوا الروح القدس بسلوكهم الشرير، ولم يستثمروا ما أعطى لهم، سوف يُحرَمون من الذي أخذوه، أو تعطى النعمة التي كانت عندهم لآخرين، أو حسب تعبير واحد من الإنجيليين الأربعة سوف يُشطَرون إلى شطرين (مت ٢٤: ٥١)، والشَّطرُ يعني الانفصال التام عن الروح. لأن هذا التعبير لا ينطبق على الجسد، فهو لا يُشطر حسب الخرافات السائدة، فقسمٌ منه يخلص، وقسمٌ منه يُلقى للعذاب، فالقاضي العادل لا يقاضي الجزء بينما الكل مخطئ. وكذلك النفس لا تُشطَر إلى شطرين، بل النفس بجملتها هي التي تملك الإرادة الخاطئة، وتستعين بالجسد لعمل الشر. ولكن الشَّطرَ إلى قسمين -كما ذكرت- هو الانفصال التام للنفس عن الروح القدس.

ومع أنه لا يختلط بالذين لا يستحقونه، إلَّا أنه بنوعٍ ما حاضرٌ في الذين خُتِموا مرةً، وهو يعمل على خلاصهم إذا ما عادوا، وإلَّا فإنه يُقطَع تماماً من النفس التي تدنِّس نعمته. لذلك السبب قيل: «ليس في الجحيم من يسبحون الله، وفي الموت لا يوجد من يتذكر الله» (مز ٦: ٥ س)؛ لأنه لا توجد هناك معونة من الروح، فهو ليس حاضراً في الذين ابتعدوا عن الله.

كيف إذاً يمكن الاعتقاد بأن الدينونة تتم بدون الروح القدس؟ والكلمة الإلهية تشير إليه باعتباره جائزة الأبرار، ففي ذلك اليوم ينالونه بالكمال بدلاً من العربون (٢كور ١: ٢٢، ٥: ٥). وبداية الدينونة في ذلك اليوم أيضاً تكون حرمان الخطاة مما أخذوه.

وها هو البرهان الأعظم على وحدة الروح بالآب والابن، فهو قد وُصِفَ بأن علاقته بالله مثل علاقة أرواحنا بنا. فقد قيل: «فمن الذي يعرف أسرار الإنسان غير روح الإنسان الذي فيه؟ وهكذا أمور الله لا يعرفها أحد إلَّا روح الله» (١كور ٢: ١١)، وهذا يكفي.

الفصل السابع عشر

ضد الذين يقولون إن الروح القدس لا يُحسب مع الآب والابن، بل يمكن أن نحسبه كأقل من الآب والابن. ونبذةٌ عن إيماننا، واستخدام الأعداد بشكل سليم، يؤكد وحدة الأقانيم

٤١– للجانب الحسابي وللأعداد حكمةٌ خاصة بها، ولذلك فإن اختلاف الأعداد وتبايُن الأرقام يهم «حكمة هذا العالم» (١كور ١: ٢٠).

ولكن النقطة الأساسية التي تهمنا هي الآتية: إذا كان للأعداد فلسفةٌ خاصةٌ وقيمة حسابية، فهل لهذا علاقة بما لدينا من إيمان بالله؟

إن الذين انتفخوا بالحكمة العالمية الباطلة يقولون إن بعض الأسماء يمكن استخدامها بشكلٍ عام، ولها مدلولات غير محددة. أما بعض هذه الأسماء، فله مدلولٌ

خاصٌ دقيق يميزها عن غيرها.

كلمة «جوهر» هي اسمٌ عام، ويمكن استخدامها للكائنات الحية والجامدة. أما كلمة «حي»، فهي اسمٌ خاص دقيق يدل على كائنات معينة أقل من الكائنات الجامدة، بل متميزة عنها. وبالمقارنة بين كلمة "جوهر" وكلمة "حي"، نرى أن كلمة جوهر أعم وتشمل الطبائع العاقلة وغير العاقلة.

وكذلك كلمة "رجل" أدق وأخصُّ من كلمة «حي». وكلمة "إنسان" أخصُّ من كلمة «إنسانية»، بل "الفرد" أخص من كلمة "إنسان"، فهو قد يكون بطرس أو بولس أو يوحنا. فهل ما يقصدونه يؤدي إلى توزيع ما هو عام إلى ما هو خاص؟!

إني مترددٌ، لا أكاد أُصدِّقُ أنهم ينساقون إلى هذا الحد من الحماقة الذي يجعلهم يقسِّمون الله خالق الكون إلى مدلولاتٍ عامة لا كيان لها إلَّا في العقل القادر على الإدراك. وبالتالي يقسِّمون هذه المدلولات العامة إلى مدلولات خاصة أكثر دقة. هذا في الحقيقة لا يتفوه به إلَّا المجانين. وكُفرُ هذا التخبط في التفكير واضحٌ، بل هو يؤدي إلى قيام برهان مضاد على ما يحاولون البرهنة عليه.

إن الفروع تنحدر من جوهرٍ واحد، ولذلك هي من طبيعة واحدة. وغباوة هؤلاء فادحة إلى درجة أننا نجد صعوبةً في الرد على كلامهم الفارغ، وهذا ما يجعل حماقتهم ميزة تحميهم من النقد، مثلما تعجز عن توجيه ضربات لأجسام رخوة لا تستطيع أن تقاوم أو ترد الضربات. وهكذا لا يمكن توجيه فكرة صائبة قوية تقوِّض غباوتهم. وما تبقى لنا هو أن نمر ونعبر في صمت أمام بشاعة كفرهم. ولكن محبتنا للأخوة، وفساد المقاومين، هذا كله جعل الصمت مستحيلاً.

٤٢- ما هي خلاصة التعاليم التي يتمسكون بها؟!

افحصوا المفردات التي تنُمُّ عن كبرياء والتي يستخدمونها. هم يقولون: «نحن نؤكد أن العَدَّ يناسب المتساوين في الكرامة، فهم يُحسبون معاً. أمَّا المختلفين من الأحسن إلى

الأدنى، فلا يمكن أن نعددهم متساوين معاً، بل نعدهم كمختلفين».

وعندما تناقشت معهم، سألتهم: «لماذا تقولون ذلك؟ لقد فشلت في إدراك حكمتكم غير العادية. هل تقصدون أن الذهب يمكن أن نعده مع الذهب، وأن الرصاص لا يمكن أن نعده مع الذهب؛ لأنه أدنى من الذهب؟! وهل يعني ذلك أنكم تنسبون إلى الأعداد هذه الأهمية البالغة لدرجة أنها إما أن ترفع قيمة ما هو رخيص، أو تحط من قيمة ما هو ثمين؟! ومن ثمَّ أنتم تعُدُّون الذهبَ مع الأحجار الكريمة، وما كان صغيراً وبلا بريق مع تلك الكبيرة ذات الألوان البراقة. ولكن ما الذي لا يمكن أن يقوله هؤلاء الذين يقضون حياتهم «لكي يقولوا أو يسمعوا شيئاً جديداً» (أع ١٧: ٢١). ويا ليت هؤلاء الذين يدعِّمون الكُفرَ يُحسَبون من الآن فصاعداً مع أتباع زينون وأبيقور.

فما هو «العَدُّ» الممكن للأشياء الرخيصة مع الأشياء الثمينة؟ كيف يُعدُّ الفلس النُحاس مع الدينار الذهبي؟! يقولون إننا لا نحسب أن لدينا عملتين، بل قطعة واحدة وقطعة ثانية.

إذاً أيٌّ من العملتين تُحسب أقل من الأخرى عددياً؟! ألا تذكرهما معاً قطعتين اثنتين. إنهم يقولون لو حسبتهم قطعتين وقلت إنهم اثنتين، فأنت بذلك تقصد أن لهما قيمة واحدة، أما إذا قلت واحدة واحدة، فقد قصدت أن تميز بينهما في القيمة.

ولكن أي الاثنتين من العملتين يُحسب أولاً: الذهب، أم النُحاس؟! والذي يَعِدُّ يمكنه أن يبدأ بالعملة النُحاس دون أن يعني بذلك أن قيمتها أكثر من العملة الذهبية، أو العكس. وهكذا لن ندخل في تفاصيل غباوتهم الشديدة، بل نرد على النقطة الأساسية في تعليمهم.

٤٣- (كل هذه السفسطة) هل تعني أن الابن يُعَدُّ بعد الآب، وأن الروح القدس بعد الابن، هل هذا يعني تباين واختلاف الأقانيم؟ أم أنكم تحصرون اهتمامكم بالروح القدس فقط؟

إذا حسبنا –من وجهة نظر واحدة– استخدام الأرقام للابن أيضاً، فأنتم تبعثون من جديد التعليم الفاسد الذي يدَّعي أن الابن له جوهرٌ مختلف، وهو في مرتبة أقل (وضيعة عن الآب)، وبالتالي تقولون إن الابن لم يكن موجوداً منذ الأزل، ثم جاء في الزمان. وهكذا بهذا الأسلوب تعودون بشكل واضح وصريح إلى التجاديف القديمة التي انتشرت ضد الابن الوحيد[١].

ومقاومة التجاديف الخاصة بالابن يقتضي مني وقتاً أطول لا تسمح به هذه المقالة، وهو ما لا أريد أن أقوم به الآن؛ لأنني فنَّدتُ هذا الكفر قدر استطاعتي في مقالةٍ أخرى (الكتاب الثاني ضد أنوميوس). ولكن إذا كان هؤلاء يعتقدون أنهم بالعَدِّ الذي اختاروه يقصدون الروح القدس، فعليهم أن يعرفوا أن الروح القدس مثل الابن والآب، وأننا عندما نتكلم عنه، إنما نتكلم عنه مثل الابن والآب تماماً. فنحن نقول: «باسم الآب والابن والروح القدس» (متى ٢٨: ١٩). وهذا يعني التساوي حسبما نفهم من الكلمات التي تُسلَّم في المعمودية. لأن علاقة الروح بالابن هي نفسها علاقة الابن بالآب. وإذا حسبنا الروح مع الآب، والابن مع الآب، نجد أنه واضح جداً أن الروح يُحسب مع الآب. وهذا يعني بدوره التساوي في كل شيء. وطالما أن أسماء الأقانيم هي في الله الواحد، فكيف يمكن أن نحسب واحداً مع آخر، ونرفض حساب الثالث معهما؟ وفي كلمة: هل من الممكن أن يخسرَ شيءٌ بالعَدِّ، طبيعته؟ ألا يظل محتفظاً بطبيعته بعد أن يُعَدُّ؟ فالعدد ضروري لكي يمكن أن نحسب الأشياء الكثيرة، ولكن العدد لا يغيِّر من طبيعة أي شيء. والأجساد يمكن أن نعدها أو نقيسها أو نزنها.

والاستعمال يحتم علينا أن نقدِّر الأجساد المتصلة، بالمقياس، أما المنفصلة فنحسبها بالعدد، ولكن إذا كانت صغيرة ووفيرة نقدرها بالميزان.

هؤلاء يفكرون في ظلال الفكر الوثني المريض، ويحاولون أن يأخذوا منه ما

---

[١] الإشارة هنا إلى سابيليوس وأريوس.

يجعلهم يتخيلون أن الأعداد يمكنها أن تحدد طبيعة الأشياء، وأن العدد يحدد لنا مكانة الأشياء وبذلك يمكنهم أن يتكلموا ردياً عن الروح القدس[١].

---

(١) هذا الفصل صعبٌ جداً، وحجة المقاومين للإيمان هي إثبات اختلاف طبيعة الثالوث الواحد لمجرد أن الابن يأتي ذكره بعد الآب، ثم بعد ذلك الروح القدس. فالعد التنازلي حسب حجة هؤلاء، هو أن نبدأ بالآب نزولاً إلى الروح، أو العد التصاعدي هو أن نبدأ بالروح صعوداً إلى الآب. وحجة باسيليوس هي أن العد لا يؤثر على طبيعة أي كائن، فهو بما يملك من طبيعة تجعله أسمى أو أقل، وقياساً على ذلك ليس العد هو النقطة الجوهرية، وإنما طبيعة الروح القدس.

الفصل الثامن عشر

ما معنى اعترافنا بالأقانيم الثلاثة، وكيف نحتفظ في نفس الوقت بالإيمان الصحيح بالوحدانية؟

مع دحض مزاعم القائلين بأن الروح القدس يُعَدُّ بعد الابن، ولذلك هو أقل

٤٤– عندما سلَّمنا ربُّنا صيغة الإيمان بالآب والابن والروح القدس، لم يقرن هذه النعمة بعددٍ، فهو لم يقُل باسم الأول والثاني والثالث، ولا أشار إلى واحد واثنين وثلاثة، بل منحنا نعمة معرفة الإيمان الذي يقودنا إلى الخلاص، حتى أننا نخلص بالإيمان، وبمعرفتنا بأسماء الأقانيم المقدسة. أمَّا العدد، فقد اخترعه العقل كوسيلة لحصر الكميات. أمَّا أولئك الذين يجلبون الدمار على أنفسهم، فيريدون استخدام طريقة العدِّ ضد الإيمان. ومع أن الأشياء لا تتغير إذا حُسبِت عددياً كُلّاً بعد الآخر في تسلسلٍ عددي، إلَّا أن أولئك يرون استخدام العدد في الكلام عن الطبيعة الإلهية، وبذلك يتجاوزون الإكرام اللائق بالبارقليط.

لكن يا سادتي الحكماء، إن الذي هو فوق الإدراك هو فوق الحساب والأعداد أيضاً. وقد قدَّر العبرانيون هذا، وبحكمةٍ ووقار، كتبوا اسم الله الذي لا يُنطق، بطريقة خاصة، وهكذا عملوا على الإعلان عن مجده الفائق فوق كل الكائنات.

إذا شئت أن تستخدم الأعداد، فأنت حر، ولكن لا تشوِّه الإيمان، بل احترم ما هو فوق بالصمت، أو إن شئت أن تقول عدداً صحيحاً، فالله واحد هو الآب الواحد، والابن الواحد، والروح القدس الواحد.

ونحن نعلن عن كل أقنوم على حدة، وإن كان يجب علينا استخدام الأعداد، فإننا لا نسمح لأنفسنا بأن تحملنا قواعد الحساب إلى تعدد الآلهة في الوثنية.

٤٥– نحن لا نجمع بالإضافة واحد زائد واحد، وبذلك نتدرج من الوحدة إلى الكثرة. كما أننا لا نقول واحد، اثنان، ثلاثة، ولا نقول أولاً وثانياً وثالثاً، بل مكتوب: «أنا الله الأول وأنا الآخر» (إش ٤٤: ٦). ولم نسمع قط حتى هذا اليوم عن إلهٍ ثانٍ، بل إننا نعبد الإله من الإله، ونعترف بتمايُز الأقانيم، وفي نفس الوقت نتمسك بالوحدانية. ولا نبدد اللاهوت بتجزئته إلى أقسامٍ متعددة، بل جوهراً واحداً غير مجزَّأٍ نراه في الله الآب، والله الابن الوحيد. ووحدةٌ بلا انقسام؛ لأن الابن في الآب، والآب في الابن، وهو ما ينفي وجود اختلاف بينهما، بل يجعلهما جوهراً واحداً. وبالتمايُز هما الاثنان أقنومٌ وأقنوم، وبالاشتراك في الطبيعة الإلهية الواحدة، هما واحد.

كيف إذاً وهما واحد وواحد ليسا اثنين؟

السبب هو أننا نتحدث عن مَلِكٍ واحدٍ، وعن صورته. وهذا لا يعني وجود مَلِكين. فلا السلطة ولا القدرة أو المجد ينقسم، بل السيادة والسلطة الحاكمة هي واحدة. وفي اللاهوت نفس الوضع؛ لأن المجد الذي نقدِّمه لله، يُقدَّم إلى الواحد، وليس إلى تعدد الآلهة، لأن إكرام صورة الملك هو إكرام الملك. وفي حالة الملك والصورة، فإن الفرق بين الملك والصورة هو في الطبيعة، إذ هي تمثل الملك. أمَّا في حالة الآب والابن، فالطبيعة

واحدة. وفي الفنون يحاول الفنان أن يرسم شَبَهاً مُتقناً، أما في اللاهوت، فالطبيعة الإلهية بسيطة غير مركبة. فإن الوحدة بين الآب والابن هي وحدة قائمة على الشركة في الجوهر الإلهي، بينما الوحدة بين الملك والصورة هي وحدة في الملامح فقط. واحدٌ هو الروح القدس الذي هو واحدٌ مع الآب الواحد، والكل هو الثالوث المبارك المسجود له.

وواضحٌ بشكلٍ كافٍ، أن الروح القدس قائمٌ في شركة الجوهر مع الآب والابن؛ لأنه لا يُحسب ضمن الخليقة المتعددة، بل نتكلم عنه كواحدٍ لا مثيل له في الخليقة. وكما أن الآب واحد، والابن واحد، كذلك الروح القدس واحد، وهذا يجعله بعيداً تماماً عن الطبيعة المخلوقة؛ لأن الفكر السليم لا يسمح لنا بأن نضع الواحد الذي لا مثيل له، والبسيط غير المركَّب مع الخليقة المركَّبة القائمة في كثرة من الأجساد. أمَّا الروح القدس، فهو مُتَّحدٌ مع الآب والابن في وحدةٍ لا مثيل لها.

٤٦– وما ذكرناه سابقاً، ليس هو المصدر الوحيد للبراهين على الشركة في الجوهر، بل لأن الروح القدس «هو من الله» (١كور ١: ١٢)، ومعنى «من الله» ليس مثل الكلام عن الخليقة التي هي أيضاً من الله (١كور ١١: ١٢)، بل المعنى الدقيق المتعارف عليه، وهو أنه صار من الله، ليس بالولادة مثل الابن، وإنما مثل النفخة الصادرة من الفم. ولكن الفم هنا لا يعني مطلقاً، ذلك العضو في الجسد، ولا نفخة الفم التي تتبدد بمجرد خروجها من الفم، بل هو الفم على المستوى الإلهي الذي منه يصدر الروح القدس أقنوماً حيَّاً متميزاً بطبيعة التقديس الفائقة. وهكذا يمكننا أن ندرك وحدته مع الآب والابن، بينما يظل كيانه الإلهي غير المدرَك، فوق القدرة على التعبير.

ويقال عن الروح القدس إنه روح المسيح لتأكيد علاقته الإلهية بالابن، كما قيل: «مَن لم يكن فيه روح المسيح فهو ليس منه (المسيح)» (رو ٨: ٩). فالروح هو وحده الذي يمجِّد الرب حسبما قيل: «هذا يمجِّدني» (يو ١٦: ١٤).

ولكن ذلك التمجيد ليس مثل تمجيد الخليقة، بل يمجِّده؛ لأنه «روح الحق» (يو ١٤: ١٧) الذي يُعلِن الحقَّ في ذاته بكل وضوح. وكروح الحكمة، يعلِن لي عظمته

«المسيح الذي هو قوة الله وحكمة الله» (١كور ١: ٢٤). ولأنه البارقليط (المعزِّي) يعلِن في ذاته صلاح البارقليط (الابن) الذي أرسله[١]، ويُظهر في كرامته عظمة الذي منه انبثق (الآب).

ولكي ندرك أن الروح القدس ليس مثل الخليقة، ولا منها، علينا أن نميِّز بين المجد الذاتي الذي يشعُّ من ذات الله مثل إشعاع نور الشمس، والمجد الذي يُعطى بحرية لمن يستحقه، وهو مجدٌ يضاف من الخارج.

والمثال الواضح، هو ما قيل إن «الابن يكرم أباه والعبد يكرم سيده» (ملا ١: ٦). وإكرام العبد هو ما تقدِّمه الخليقة ،أما الإكرام الآخر الذي يمكن أن يقال إنه إكرام المتساويين في الكرامة، فهو ما يحققه الروح القدس. وكما قال ربنا: «أنا مجَّدتك على الأرض، العمل الذي أعطيتني قد أكملته» (يو ١٧: ٤)، يقال نفس الكلام عن البارقليط «ذاك يمجِّدني لأنه يأخذ مما لي ويعلنه لكم» (يو ١٦: ١٤). وكما أن الابن يمجَّد من قِبَل الآب كما قال: «مجَّدتك وسوف أمجِّدك أيضاً» (يو ١٢: ٢٨)، أيضاً يمجَّد الروح، فالشركة في الجوهر التي له مع الآب والابن، وبشهادة الابن الوحيد عنه التي يقول فيها: «كل خطية وتجديف يغفر للناس، أما التجديف على الروح فلن يغفر» (مت ١٢: ٣١).

٤٧– وعندما نستنير بالقوة التي فينا، ونحدِّق النظرَ في جمال صورة الله غير المنظور، ومن الصورة نبلغ إلى الجمال الفائق الذي للأصل، عندئذٍ افترض أنه فينا روح المعرفة بلا انفصال، وفيه يعطي للذين يحبون رؤية الحق قوة معاينة الصورة، فلا تكون هذه رؤية خارجية، بل فيه هو (الروح القدس)، قائداً أولئك إلى الأمام إلى المعرفة الكاملة.

وكما أنه لا أحد يعرف الآب إلَّا الابن (مت ١١: ٢٧)، أيضاً لا يقول أحدٌ

(١) من يوحنا ١٤: ١٦، ٢٦ – ويوحنا ١٥: ٢٦ – ويوحنا ١٦: ٧ ندرك أن المسيح يدعى أيضاً البارقليط. وكل ما يريد القديس باسيليوس أن يؤكده هنا هو أن الروح كبارقليط، إنما يأتي لكي يكمل عمل المسيح.

إن يسوع هو الرب إلَّا «بالروح القدس» (١كور ١٢: ٣)، ولم يقل بواسطة الروح القدس، بل يقول بالروح القدس؛ "لأن الله روح والذين يسجدون له، فبالروح والحق يجب أن يسجدوا" (يو ٤: ٢٤). كما هو مكتوب، "في نورك نعاين النور"، أي باستنارة الروح «النور الحقيقي الذي ينير لكل إنسان آت إلى العالم» (مز ٣٦: ٩ - يو ١: ٩) - وهذا يوصِّلنا إلى أن الروح القدس هو الذي يعلن في ذاته مجد الابن الوحيد، وأنه هو الذي يمنح للساجدين الحقيقيين المعرفة الحقيقية لله.

إذن طريق معرفتنا بالله يبدأ بالروح الواحد من خلال الابن الواحد إلى الآب الواحد، ولكن بعكس ذلك، يصلنا الصلاح الإلهي وقداسة الله ومجد الملكوت من الآب بالابن الوحيد في الروح القدس[1]. وفي كلا الاتجاهين يظهر الاعتراف بالأقانيم، ولا يُنتَهكُ الإيمان الحق بالوحدانية.

أمَّا أولئك الذين يعتمدون على فلسفة الأعداد ويقولون أول وثان وثالث، بقصد إظهار اختلاف الأقانيم، فعليهم أن يعرفوا أنهم يجلبون مبدأ تعدد الآلهة من ضلال الوثنية، ويحاولون إدخاله في لاهوت المسيحيين النقي.

وضلال الاعتماد على الأعداد ظاهر؛ لأنه يؤدي إلى الاعتراف بأكثر من إله، ويصبح ثمة إله أول وثان وثالث. أمَّا نحن فيكفينا التسليم الذي سلَّمه إلينا الرب. وكل مَن يمزج بين هذا التسليم والمعرفة الغريبة، فإنه ليس أقل جرماً في تعدِّي الشريعة من الوثنيين الضالين.

---

(١) هذه الفقرة على قدر كبير من الأهمية؛ لأنها تشرح لنا معنى الصلوات التي تقدَّم للروح القدس، ففي الكلام عن عطايا الله يمكن أن تبدأ الصلاة بالروح القدس، فالابن، فالآب. أمَّا الكلام عن الخلاص فيمكن أن تبدأ الصلوات بالآب، فالابن، فالروح القدس. ومن هذا يظهر أن ترتيب أقانيم الثالوث خاصٌ باتجاه الحياة الروحية والصلاة فقط. وحسب نظرة الإنسان الروحية، يمكنه أن يطلب من الآب بالابن في الروح، أو من الروح ليقوده إلى الابن فالآب. ومن هنا نفهم أن عبارة الآب والابن والروح القدس، هي عبارة خاصة بالاعترافٌ بالإيمان وبالخلاص، وليس بترتيب أقانيم الثالوث.

يكفي ما قلناه بأنهم ضالون في زعمهم بأن وحدة الجوهر، وهي أساس الشركة، لا علاقة له بالتقسيمات السابقة، ولا يدخل تحت الاهتمام بالأعداد، ولكن من أجل مقاومة تطرف هؤلاء، فلنفرض جدلاً أن مَن يُحسب ثانياً بعد أي شيءٍ أول، يصبح أقل من الأول، فما هي النتيجة؟ هذا ما تحسمه الأسفار المقدسة، فقد قيل الإنسان الأول من التراب فهو أرضي، الإنسان الثاني الرب من السماء وأيضاً: «لم يكن الروحاني أولاً بل الجسداني وبعده الروحاني» (١كور ١٥: ٤٦)، فإذا كان الثاني حسب القول الإلهي أرفع بكثير من الأول، فقد انهارت فكرتهم تماماً؛ لأن الروحاني جاء بعد الإنساني، والسماوي بعد الترابي.

الفصل التاسع عشر

ضد القائلين بأن الروح لا يُمجَّد

٤٨– يقولون: ليكن ما ذكرت صحيحاً، ولكن المجد لا يُعطى للروح القدس بنفس الطريقة التي يُعطى بها للآب والابن، فلا يجب أن يُذكر معهم في نفس الذكصولوجيات.

ولكن، من أين نستمد الأدلة على كرامته الإلهية التي تفوق كل إدراك (في ١: ٧)، إذا كانت شركته مع الآب والابن لا تكفي لاقناع المقاومين كشهادة حسنة على مقامه الإلهي؟!

وأقل ما يمكن أن نقوله في هذا الصدد هو إننا نستطيع أن ندرك بشكل سليم طبيعته الإلهية وقدرته الفائقة، بتأمل ألقابه وأعماله العظيمة وعطاياه الصالحة التي يعطيها لنا، بل لكل الخليقة. إنه يُسمَّى الروح؛ لأن الله روح (يو ٤: ٢٤)، وأيضاً «روح أفواهنا مسيحُ الرب» (مراثي ٤: ٢٠ س)[١].

ويدعى أيضاً قدوس؛ لأن الآب قدوس والابن قدوس (١يو ١: ٢٠). وقداسة الخليقة ليست كامنةً في كيان المخلوقات، بل توهَب من الخارج من الله. أمَّا قداسة الروح

---

(١) هذا هو نص السبعينية، ويمكن ترجمة النص إلى "روح حياتنا مسيح الرب"؛ لأن كلمة προσωπον يمكن أن تكون: شخص — حياة — فم.

القدس، فهي تملأ طبيعته، ولذلك السبب ذاته، لا يُوصَف بأنه تقدَّس، بل بالحري هو الذي يقدِّس.

ويُدعى أيضاً الصالح (مز ١٤٣: ١٠)؛ لأن الآب صالحٌ وكل ما ينبثق من الآب فهو صالحٌ، وجوهر الروح هو الصلاح بعينه.

ويُدعى المستقيم (مز ٥١: ١٠)؛ لأن الله صالحٌ ومستقيم (مز ٩٢: ١٥)، أي الحق (يو ١٤: ١٧، ١٥: ٢٦، ١٦: ٣، يو ٥: ٦)، والبر (٢كور ٣: ٨ - ٩)[١]، فهو لا يميل إلى أية جهة، ولا يتغيَّر؛ لأن جوهره غير متغير.

ويُدعى البارقليط مثل الابن الوحيد، وكما قال هو: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر» (يو ١٤: ١٦). وهكذا فإن الروح القدس يشترك في أسماء الآب والابن المتنوعة، ويأخذ الروح ألقابه الإلهية بسبب اشتراكه في الطبيعة الإلهية للآب والابن.

وإلَّا، من أي مصدرٍ آخر يمكن أن يأخذ الروحُ ألقابه؟!

ونضيف إلى ذلك، إنه يدعى المشورة (مز ٤١: ١٢ س)، وروح الحق (يو ١٥: ٢٦)، وروح الحكمة (إش ١١: ٢)، وروح الله الذي قيل إنه يخلق (أيوب ٣٣: ٤).

وهو المقصود أيضاً بأن الرب «ملأ بصلئيل بروح الحكمة الإلهي والفهم والمعرفة» (خر ٣١: ٣ س).

هذه هي أسماء الروح العظيمة السامية التي تشير إلى قوته الإلهية وهي لا تنطوي على مبالغة في تمجيده.

---

(١) البر أو العدل حسب الترجمات القديمة.

٤٩– ويبقى أن نسأل ما هي أعماله؟!

هي عظيمة وفائقة، ولا يمكن أن نحصيها. إذ كيف نستطيع أن ندرك ما يسبق الأزمنة كلها؟! وماذا كان يعمل قبل أن تنشأ الخليقة العاقلة؟! وما هي النِّعم العظيمة التي أعطاها للخليقة؟! وما هي قدرته التي سوف يُظهرها في الحياة الآتية؟!

إنه الكائن الذي كان موجوداً وحاضراً مع الآب والابن قبل كل الأزمنة. إذا استطعت أن تعبُر بعقلك إلى ما قبل الأزمنة، فإنك سوف ترى أن الروح قبل الأزمنة، بل هو يفوقها كلها. وإذا فكَّرتَ في الخليقة، فإن القوات السمائية قد ثبَّتها الروح، وهذا التثبيت بكل يقين هو عدم الابتعاد عن الصلاح (الله). ومِن الروح تأخذ هذه القوات شركتها مع الله، وعدم قدرتها على التغيير إلى الشر والبقاء في السعادة.

وإذا تكلمنا عن ظهور المسيح، فإن الروح كان هو السابق الذي بشَّر بذلك. وحضوره في الجسد كان يعني عدم انفصال الروح عنه. عمل المعجزات ومواهب الشفاء كلها كان بواسطة الروح القدس. إخراج الشياطين تم بواسطة روح الله. وهو ما يعني أن الشيطان صار لا شيء بحضور الروح. غفران الخطايا بواسطة نعمة الروح: «اغتسلتم، بل تقدستم باسم الرب يسوع المسيح وبروح إلهنا» (١كور ٤: ٦). وشركتنا مع الله هي بالروح؛ لأن الله «أرسل روح ابنه إلى قلوبنا منادياً يا أبا الآب» (غلا ٤: ٦). والقيامة من الأموات هي عمل الروح القدس كما هو مكتوب: «ترسل روحك فيُخلَقون وتجدد وجه الأرض» (مز ١٠٤: ٣٠). وإذا كان الخلق هنا يعني إعادة الموتى إلى الحياة، فما أعظم قوة عمل الروح القدس. ومَن الذي يجود بالحياة الجديدة التي تلي القيامة، ويؤهِّل نفوسنا للحياة الروحية الآتية؟!

أمَّا إذا كانت كلمة خليقة (التي أوردها المزمور) تعني أن الساقطين في الخطية يتجددون في الحياة الحاضرة، وهذا المعنى نفهمه من الكتاب المقدس، ويظهر في كلمات بولس: «إذا كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (٢كور ٥: ١٧)، أي تحويل الحياة الأرضية القائمة على الحواس إلى الحياة التي تتأمل السماويات، وهو ما يفعله الروح، فإن

هذه الخليقة الجديدة تملأ نفوسنا إعجاباً بالسماويات.

وأمام هذه الحقائق ما الذي يجب علينا؟ أنخاف من التكريم الفائق الذي تقدِّمه؟! أم نخاف من التقصير؛ لأننا نعجز عن التعبير عما يعطيه الروح، وهو ما يفوق فكر الإنسان وقدرته على النطق، وبالتالي نجد أنفسنا قد قصَّرنا في تمجيده؟ يقول الروح كَرَبٍّ: «قم وانزل دون أن ترتاب لأني أنا أرسلتهم» (أع ١٠: ٢٠)، فهل هذه كلمات شخص وضيع خائف؟! ومثلها: «افرزوا لي شاول وبرنابا للعمل الذي دعوتهما إليه» (أع ١٣: ٢). وهل هذه كلمات عبد؟! وإشعياء: «الرب الإله أرسلني وروحه» (إش ٣٨: ١٦). و«الروح نزل من عند الرب وقادهم» (إش ٤٢: ١٤ س). وأرجوك أن لا تفهم أن قيادته هي خدمة وضيعة؛ لأن اللوغوس يشهد بأن القيادة هي عمل الله «قدت شعبك مثل قطيع الغنم» (مز ٧٧: ٢٠)، وأيضاً «يا قائد مثل الضأن» (مز ٨٠: ١)[١]. وهكذا عندما نسمع الكلمات: «ومتى جاء البارقليط فهو يذكركم بكل شيء ويقودكم إلى الحق كله» (يوحنا ١٦: ١٣، ١٤: ٢٦)، فلا تخطئ في فهم معنى القيادة.

٥٠- ولكن قيل عن الروح إنه «يشفع لنا» (رو ٨: ٢٦ - ٢٧)، ونستنتج من هذا أن الذي يشفع يسأل، وبالتالي فهو أقل من الذي يسمع الشفاعة ويعطى بالتالي، فالروح أقل من الله في الكرامة.

ولكن، هل سمعت ما قيل عن الابن الوحيد إنه «على يمين الله الآب يشفع لنا» (رو ٨: ٣٤)؟ إذاً لا نخطئ في فهم معاني الشفاعة؛ لأن الروح القدس فيك -(إذا كان حقاً فيك)- ولا تحسب أنه، إذ يعلِّمنا نحن العميان ويقودنا إلى إختيار الأفضل، فإنه يصبح بذلك أقل من الله. لا تسمح لنفسك -بسبب الفهم الخاطئ- أن تفقد العقيدة الصحيحة المقدسة الخاصة بالروح القدس. لا تجعل من محبة مَن يُحسن إليك وتعطفه بوفرة، فرصة لإنكار الجميل؛ لأنه مكتوب: «لا تحزنوا الروح القدس» (أف ٤: ٣٠).

---

(١) "وقادهم بأمان فلم يرتاعوا" (مز ٨٧: ٥٣).

اسمع كلمات اسطفانوس باكورة الشهداء وهو يوبخ شعب اليهود على عصيانهم وعدم طاعتهم: «أنتم دائماً تقاومون الروح القدس» (أع ٨: ٥١). وأيضاً يقول إشعياء: «تمردوا على روحه القوي فصار لهم عدواً» (إش ٦٣: ١٠). وفي مكان آخر: «أغضب بيت يعقوب روح الرب» (مز ١٠٦: ٣٢ – ميخا ٢: ٧).

ألا تكفي كل هذه الاقتباسات لكي نوضِّح لك سلطانه وقوته؟ إنني أترك الحكم للقراء لكي يحكموا ما هو الرأي الذي يجب أن نصل إليه؟ هل تعتبر الروح آلةً، عبداً، وفي نفس مكانة المخلوقات، وشريكاً لنا في العبودية؟

يحسب المؤمن أن مجرد الهمس بهذه التجاديف هو أمرٌ ثقيل لا يُحتَمل سماعه.

وبعد كل هذا هل يمكن لأحد أن يُصر على أن الروح عبدٌ؟ إن الكلمات الصريحة تعارِض هذا، ويقول الرب: «العبد لا يعرف إرادة سيده» (يو ١٥: ١٥)، أما الروح، فهو يعرف أمور الله تماماً مثلما تعرف روح الإنسان أموره الخاصة (١كور ٢: ١١).

الفصل العشرون

ضد الذين يقولون إن الروح ليس في مرتبة العبد أو السيد، بل من الأحرار

٥١- يقولون إنه ليس عبداً ولا سيداً، بل حراً. يا للتبلد الفظيع، والاستهتار الذي يدعو إلى الشفقة على الذين يقولون هذا. هل أنوح على جهلهم أم على تجديفهم؟! إنهم يهينون الطبيعة الإلهية عندما يقارنون بينها وبين الطبيعة الإنسانية، بل إنهم يجاهدون لكي يطبِّقوا على الطبيعة الإلهية الفائقة الإدراك، العادات البشرية التي تقر بوجود اختلاف في المراتب، بدون أن يدركوا أنه حتى في البشرية لا يوجد من ينتمي إلى الطبيعة الإنسانية كعبد؛ لأن البشر يخضعون إلى نير العبودية عندما يؤخَذون كأسرى حرب، أو يصبحون عبيداً بسبب الفقر، وهو ما آل إليه حال المصريين بسبب المجاعة، فصاروا عبيداً لفرعون، أو بما يحدث من أحداث لا تدركها الحكمة الإنسانية عندما يصبح بعض الأطفال، وبسبب آبائهم محكوماً عليهم بأن يكونوا عبيداً لمن هم أحكم وأفضل منهم (راجع تك ٩: ٢٥).

ويمكن لكل مرفق وعادل أن يدرس هذه الأحوال ويستخلص منها إنها لم تكن كلها عقوبة، بل كانت إحساناً، فمن كان ناقصَ الإدراك وعاجزاً عن أن يدبِّر أموره الخاصة، فمن الأفضل له أن يكون عبداً لغيره حتى يستطيع سيده أن يوجهه. هذه الحالة

تشبه المركبة التي يقودها سائقٌ، أو القارب بالمجدفين والربان جالسٌ عند الدفة يوجههم. ولعله في هذا الإطار يمكننا أن نفهم كيف صار يعقوب سيداً لعيسو (تك ٢٧: ٢٩)، لكي يستفيد ذلك الابن الغبي الناقص الإدراك من قيادة أخيه الحكيمة رغم أنه لم يكن يرغب في هذا. وهذا ما قيل: «كنعان عبد لأخوته» (تك ٩: ٢٥)؛ لأن أبيه حام لم يكن حكيماً ولم يتعلم الفضيلة.

وفي هذه الدنيا فقط يصبح الناسُ عبيداً[١]، أما الذين غلبوا الفقر أو نجوا من الحرب لا يحتاجون إلى قيادة غيرهم، فهؤلاء جميعاً أحرار. وتبعاً لهذا، فعلى الرغم من أن إنساناً يقال له سيد وإنسان آخر يقال له عبد، إلَّا أننا جميعاً متساوون في المرتبة وجميعنا نحن عبيدٌ لخالقنا. أما في الحياة الأخرى، فأية عبودية يمكنك أن تشير إليها؛ لأنه عندما خلق الإنسان تطورت حياته وصار نحو العبودية.

أمَّا في السماء، فإن السمائيين لا يمارسون سيادةً على أحد، فهم لا يحركهم الطمع، بل الكل ينحني لله ويقدِّم له الاحترام الواجب كسيد، ويمجِّدونه كخالقهم طبقاً للقول: «الابن يكرم أباه والعبد سيده» (ملاخي ١: ٦). والله يطلب هذا من كل المخلوقات: «إن كنت أباً فأين كرامتي؟ وإن كنت سيداً فأين مهابتي؟» (ملاخي ١: ٦). والحياة الإنسانية إن لم يكن لها سيدٌ يشرف عليها، تتحول إلى فوضى تستدعي الرثاء. وهذا ما آلت إليه القوات السمائية التي تمرَّدت وصلَّبَت أعناقها (عصت) على الله ضابط الكل رافضةً الخضوع له، ليس لأنها من طبيعة غير مخلوقة، بل لأن سبب معصيتها كان التمرد على الخالق.

مَن ذاك الذي تدعونه حراً؟ هل هو ذاك الذي لا مَلِكَ عليه؟ هل هو الذي بلا قوة تمكِّنه من السيادة على الآخرين، أو لا يقبل الخضوع لأحد؟ ولكن لا يوجد في كافة مراتب المخلوقات أحد يمكن أن يكون في هذا الوضع.

---

(١) تعد هذه الفقرة الوحيدة في كل كتابات الآباء التي يدافع فيها باسيليوس عن العبودية في إطار واحد وهو العجز عن استخدام الحرية وانعدام الإدراك، ومع ذلك كما نرى لا يقبل باسيليوس العبودية بشكلٍ مطلق.

لذلك، فإن مثل هذه الأفكار عن الروح القدس هي تجاديف صريحة. ولو كان مخلوقاً لصار يخدم مثل العبيد؛ لأنه مكتوب «الكلُّ عبيدٌ لك» (مز ١١٩: ٩١). أمَّا إذا كان فوق كل المخلوقات، فهو شريكٌ في الملك.

الفصل الحادي والعشرون

براهين من الكتب المقدسة

على أن الروح يُدعى الربُّ

٥٢- ولكن لماذا ننال نصراً رخيصاً لبراهين نقدمها لمنازلة أسئلةٍ هزيلةٍ، مع أنه في مقدورنا أن نبرهن على المجد الإلهي للروح القدس، بشكلٍ لا يقبل الجدل، وذلك بتقديم البراهين القوية من الكتب المقدسة؟ لكن عندما نفعل ذلك لربما هاج أعداء[١] الروح القدس وارتفع صراخهم الغاضب، وسدُّوا آذانهم، والتقطوا حجارةً أو أي شيء يقع في أيديهم ليستخدموه كسلاح في هجومهم علينا.

وما تعلمناه من الرسول أنه في الشدائد «الرب يهدي قلوبنا إلى محبة الله وإلى ثبات المسيح» (٢تسا ٣: ٥). ومن هو الرب الذي يهدي قلوبنا إلى محبة الله، وإلى ثبات المسيح في الشدائد؟

لِيُجِب أولئك الذين يجعلون من الروح القدس عبداً.

لو كانت هذه الكلمات عن الله الآب لَكَتَبَ الرسول: «الذي يهدي قلوبكم

(١) Pneumatomachi أي أعداء، أو المجانين الذين لا يفهمون شيئاً عن الروح القدس.

إلى محبته»، ولو كانت عن الابن لَكَتَبَ: «وإلى ثباته»، وعليهم البحث عن الشخص المعني بهذا الكلام الذي يمكن أن يكرَّم بلقب "الرب". وثمة فقرة أخرى موازية لهذه الفقرة: «والرب ينميكم ويزيدكم في المحبة بعضكم لبعض وللجميع على قدر محبتنا لكم، لكي يثبِّت قلوبكم بلا لوم في القداسة أمام الله أبينا في مجيء ربنا يسوع المسيح مع جميع قديسيه» (١تسا ٣: ١٢ – ١٣). فأيُ ربٍّ يطلب منه بولس أن يثبِّت قلوب المؤمنين في تسالونيكي في القداسة بلا لوم في القداسة أمام الله الآب وفي مجيء ربنا؟ لِيُجِب أولئك اللذين يحسبون الروح القدس من الأرواح الخادمة المرسلة للخدمة. سوف يعجزون، ولذلك عليهم أن يسمعوا شهادةً أخرى يُوصَف فيها الروح القدس بشكلٍ متميز بـ"الرب"، وهي «أمَّا الروح فهو الربُّ»، وأيضاً «كما من الربِّ الروح» (٢كور ٣: ١٧ – ١٨). ولكي لا أُعطي فرصةً للاعتراض، سوف أقتبس كلمات الرسول نفسها: «وحتى ذلك اليوم، البرقع نفسه لا زال باقياً عند قراءة العهد القديم ولا ينزعه إلَّا المسيح، ولكن عندما يرجع (الشعب اليهودي) إلى الرب يُرفع البرقع، وأما الرب فهو الروح» (٢كور ٣: ١٤، ١٦، ١٧). ما معنى هذا القول؟

لأن كل مَن يقف عند المعنى الحرفي ويشغل نفسه بحفظ الناموس، يصبح كمن صار قلبه مغلقاً بالمعنى الحرفي اليهودي، وصار كمَن وَضَعَ برقعاً على عينيه. ويحدث هذا عندما يجهل كل مَن يقرأ العهد القديم بأن مراعاة الشريعة القديمة الخاصة بالجسد قد أُبطِلت، وصارت الشريعة القديمة رمزاً تحوَّل إلى حقائق في المستقبل عند مجيء المسيح، مثل المصابيح التي تصبح عديمة الجدوى عندما تظهر الشمس. وهكذا بظهور الحق تزول الشريعة، وتصمت النبوات؛ لأنها تحققت. ولكن الذي استطاع أن يغوص إلى أعماق معاني الشريعة، وبعد أن يعبر غموض الحرف كمَن يرى من خلال البرقع الذي على عينيه، ويصل إلى الأسرار التي لا يُنطق بها، يصبح مثل موسى الذي خلع البرقع عندما تحدث مع الله. إذاً، البرقع على وجه موسى هو إشارةٌ إلى غموض تعاليم الشريعة، أمَّا التأمل الروحي، فهو العودة إلى الرب. وهكذا كل من يقرأ الشريعة، عندما يُرفع منها المعنى الحرفي، يعود إلى الرب، أي الروح القدس، ويصبح مثل موسى الذي شعَّ من وجهه مجدٌ انعكس عليه بسبب تجلي الله.

وكما أن الأشياء التي تقع قريباً من الألوان الزاهية تكتسي بالألوان التي تشع حولها، كذلك الذي يحدِّق بثباتٍ في الروح القدس، يتجلى بمجد الروح إلى مجد فائق، ويستنير قلبه بنور الحق الذي يفيض من روح الحق. وهذا ما يصفه الرسول بأنه تحول من مجد إلى مجد، أي من مجد الروح القدس إلى المجد الذي صار لهذا الإنسان، ليس بقلة ولا بضعف ولا بعدم تمييز[١]، بل بالقدر الذي يطيقه الإنسان الذي ينيره الروح.

أفلا تخاف أيها الإنسان عندما نسمع الرسول يقول: «أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم» (١كور ٣: ١٦).

فكيف يتجاسر الرسول على أن يكرِّم مسكن العبد بلقب «هيكل»؟ وكيف يستطيع أن يعتبر الأسفار المقدسة موحى بها من الله (٢تيموثاوس ٣: ١٦)، إلَّا لأنها كُتِبَت بإلهام الروح. فعليك أن تخاف يا مَن تستعمل لغة من يهين الروح القدس.

---

(١) التمييز هنا يعني أن ما يناله الإنسان من مجد مع أنه يصير مجد الإنسان، ولكنه يبقى مجد الروح القدس.

الفصل الثاني والعشرون

تأكيد شركة الروح مع الآب والابن بسبب المساواة، ولكونه غير مُدرَكٍ

٥٣- وبالإضافة إلى ما ذكرناه، نتعرف على سمو طبيعة الروح، لا لكونه يحمل نفس الألقاب الإلهية التي تعطى للآب والابن ويعمل نفس الأعمال، بل لأنه مثل الآب والابن لا يمكن إدراكه بالعقل.

وما قاله الرب عن الآب بأنه من فوق، أي لا يمكن إدراكه بالعقل، وما يقوله الآب عن الابن ينطبق أيضاً على الروح القدس.

يقول الابن: «أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك» (يو ١٧: ٢٥)، ولا يعني بالعالم الخليقة المركبة من السماء، بل حياتنا نحن، فهي أرضية خاضعة للموت، ولكافة عوامل التغيُّر التي لا تحصى.

وعندما كان الابن يتكلم عن نفسه وقال: «بعد قليل لن يراني العالم، أما أنتم فترونني» (يو ١٤: ١٩)، كان يعني أولئك المثقلين بالحياة المادية والجسدية، ويحاولون رؤية الحق بوسائل محسوسة فقط. هؤلاء سوف يعجزون -بسبب عدم إيمانهم بالقيامة- أن يروا الرب بعيون قلوبهم.

هذا قيل عن الروح القدس أيضاً: «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، أما أنتم فتعرفونه ويكون فيكم» (يو ١٤: ١٧).

فالإنسان الجسدي الذي لم يدرِّب عقله على التأمل (عب ٥: ١٤)، بل يبقيه مدفوناً في أعماق نزوات الجسد (رو ٨: ٦)، كما لو كان غارقاً في وحلٍ، مثل هذا الإنسان عاجزٌ عن أن يتطلع إلى نور الحق الروحي.

ونفس الكلام ينطبق على العالم، أي الحياة المستعبَدة للذات الجسد، لا يمكنها أن تقبل نعمة الروح القدس، بل هي مثل العين المريضة لا تقدر أن تحتمل نور الشمس. أما الرب، فقد كان يعلِّم ويشهد عن الحياة النقية، فأعطى تلاميذه القوة أن يروا، وأن يتأملوا الروح، ولذلك قال: «الآن أنتم أنقياء بسبب الكلمة التي قلتها لكم» (يو ١٥: ٣)، أما العالم فهو «لا يقدر أن يقبله لأنه لا يراه، أما أنتم فتعرفونه لأنه يكون فيكم» (يو ١٤: ١٧). ولذلك يقول إشعياء: «الباسط الأرض وما عليها، والذي يعطي الشعب نسمة (الروح) ولكل الذين يدوسون عليها» (إش ٤٢: ٥٠). وكل الذين يدوسون على الأمور الأرضية هم الذين شُهِدَ لهم بأنهم يستحقون نعمة الروح القدس.

فماذا يجب أن يكون اعتقادنا في الروح القدس الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، بل يراه القديسون فقط، ويتأملونه عندما ينالون نقاوة القلب؟ وأيُ إكرام يمكن أن نقدمه له؟

الفصل الثالث والعشرون

تعداد صفات الروح القدس هو تمجيدٌ له

٥٤– إننا نعتقد بأن الملائكة هي كائناتٌ محدودة؛ لأن الملاك الذي وقف أمام كرنيليوس لم يكن في نفس الوقت واقفاً أمام فيلبس (أع ١٠: ٣، ٨: ٢٦). كما أن الملاك الذي خاطب زكريا عند مذبح البخور، لم يكن موجوداً في مكانه الخاص به في السماء في نفس الوقت. أمَّا الروح القدس، فقد كان يعمل في حبقوق، وفي نفس الوقت في دانيال في بابل، وفي السجن مع إرميا (٢٠: ٢ س) ومع حزقيال عند نهر خابور (١: ١) «لأن روح الرب يملأ المسكونة» (حك ١: ٧)، وأيضاً قيل: «أين أذهب من روحك ومن وجهك (حضورك) أين أختبئ» (مز ٢٩: ٧). وفي كلمات النبي: «أنا معهم يقول الرب وروحي حاضرٌ في وسطكم» (حجي ٢: ٤ – ٥). فمن هو ذلك الحاضر في كل مكان وحاضرٌ مع الله؟! وما هي طبيعته؟ هل هي تملأ الكل، أم محدودة بالمكان والزمان مثل الملائكة؟!

لا يقدر أحدٌ أن يقول إنه مثل الملائكة، فله طبيعة الله، وهو غير محدود في العظمة، قادرٌ في الأعمال، صالحٌ في عطاياه، ألا نرفعه ونمجده؟

ألا يدعونا هذا أن إلى أن نمجِّده؟

والمجد هو أن أعماله العظيمة فائقة، ولا نستطيع أن نتوقف عن أن نعدد

الصالحات التي تنبع منه، أو أن نذكر صفاته، فهي تلخص لنا مجده. لأننا عندما نمجد الله الآب وربنا يسوع المسيح الابن الوحيد، فكل ما نقدر عليه هو أن نعطي لهما المجد بتعداد القوات والأمور الفائقة التي تخص كل منهما[١].

(١) هذه الفقرة من أهم الفقرات التي يدافع فيها باسيليوس عن الروح القدس، ولا يوجد فرق في الكلام عن الروح القدس بأن له طبيعة الله ووصفه بأنه الله، وإن كان في الواقع وصف الروح القدس بأن له طبيعة الله، هو تعبير أكثر دقة من مجرد وصفه الله.

الفصل الرابع والعشرون

براهين على غباوة الذين يرفضون تمجيد الروح وبالمقارنة بالأشياء الممجَّدة في الخليقة، يتضح أن التمجيد يليق بالروح القدس

٥٥- «الإنسان يكلل بالمجد والكرامة» (مز ٨: ٥). أمَّا المجد والكرامة والسلام، فهما المواعيد التي تُعطى لكل إنسان يعمل الخير (رو ٢: ١٠)، بل يوجد مجد خاص لبيت إسرائيل «الذين لهم التبني والمجد... والشريعة» (رو ٩: ٤). ويشير صاحب المزامير إلى مجدٍ خاصٍّ به «مجدي يسبحك» (مز ٢٩: ١٢)، وأيضاً «استيقظ يا مجدي» (مز ٥٧: ٨). وحسب تعبير الرسول يوجد مجدٌ خاص بالشمس، ومجدٌ للقمر والنجوم (١كور ١٥: ٤١)، بل كانت خدمة العهد القديم، وهي خدمة الدينونة، في مجد (٢كور ٣: ٩).

فإذا كانت كل هذه الأشياء تمجَّد، فلماذا ترفضون أن يمجَّد الروح القدس؟! لكن الرسول يقول إن خدمة العهد الجديد هي خدمة مجد الروح (٢كور ٣: ٨)، فكيف يقال إن الروح القدس نفسه غيرُ جديرٍ بالمجد؟! هل يكون مجد الصديق عظيماً حسب تعبير المزامير (مز ٢١: ٥)، ولا مجد للروح القدس حسب اعتقادكم؟

كيف إذن نهرب من خطرٍ حقيقي تؤكده هذه البراهين، تجلب على أنفسنا خطية لا يمكن أن نهرب منها؟!

وإذا كان الإنسان الذي يخلص بأعمال البر، يمجِّد الذين يخافون الرب (مز ١٥)، فهل يمكن أن يرفض المجد الذي يليق بالروح؟!

يجيبون ويقولون حسناً، إنه يمجَّد، ولكن ليس مع الآب والابن.

ولكن ما السبب في أن نعطى مكانةً أخرى للروح غير المكانة التي حددها الرب، أي غير مكانة الآب والابن؟ ما هو السبب في أن نحرم شركة المجد، ذاك الذي في كل شيء مشترِك: في جوهر اللاهوت، في الاعتراف بالإيمان، في معمودية الفداء، في صنع المعجزات، في سكنى القديسين، وفي النِّعَم التي تُفاض على الذين أكملوا الطاعة؟

فلا توجد موهبة واحدة يمكن أن تعطى للخليقة بدون الروح القدس (مت ٢٨: ١٩ - ١كور ١٢: ١١ - رو ٨: ١١ - ١بط ١: ٢)، بل لا يمكن أن ينطق أحدٌ كلمةً واحدةً دفاعاً عن المسيح، إذا لم يحصل على معونة الروح حسبما تعلَّمنا من أناجيل ربنا ومخلصنا (مت ١٩: ٢٠).

ولم أعرف بعدُ شخصاً واحداً نال شركة الروح القدس، ويقبل الاستهانة بكل ما ذكرته، أو ينسى اشتراك الروح القدس في كل شيء مع الآب والابن أو يفصله عن الآب والابن.

إذن، فإن كنا نناله، فأين نضعه؟! أمع الخليقة؟ لكن كل الخليقة مستعبَدةٌ، أما الروح القدس، فهو السيد الحر كما هو مكتوب «وحيث روح الرب فهناك الحرية» (٢كور ٣: ١٧).

وما أكثر البراهين التي يمكن أن نقدمها ضد القائلين بأن الروح القدس مخلوق، ولكننا سوف نؤجل ذلك، لأننا إذا شئنا أن نقدم كل ما لدينا من براهين خاصة بهذا الموضوع لا سيما الرد على احتجاج المقاومين، سوف نضطر إلى إطالة الكلام، وهو ما يتعب القارئ. ولذلك خصصنا له مقالة خاصة[1]، حتى نظل في إطار موضوعنا هذا.

٥٦- لنفحص كل نقطة على حدة. الروحُ صالحٌ بطبيعته مثل الآب والابن، أما المخلوقات فهي تشترك في الصلاح عندما تختار الصلاح.

الروحُ يعرف كل أسرار الله (١كور ٢: ١٠ - ١١)، أما المخلوقات، فتنال إعلاناً عنها بواسطة الروح القدس.

هو يقيم الأموات ويحيي مع الله الآب الذي يخلق ويحيي الكل (١تيمو ٥: ١٣)، والمسيح الواهب الحياة "والذي أقام يسوع من الأموات سوف يحيي أجسادكم المائتة بروحه الساكن فيكم» (رو ٨: ١١)، وأيضاً «خرافي تسمع صوتي... وأنا أعطيها حياةً أبدية» (يو ١٠: ٢٧ - ٢٨)، ولكن الروح يعطي الحياة الأبدية؛ لأنه قيل «الروح حياة لكم بسبب البر» (رو ٨: ١٠)، والرب يشهد: «الروح هو الذي يحيي، الجسد لا يفيد شيئاً» (يو ٦: ٦٣)، فكيف يمكن أن تفصل الروح عن قوته الإلهية المحيية، وتنسبه إلى الخليقة المحتاجة إلى الحياة؟!

مَن هو المِمَاحِك الذي عَدِمَ المواهب السماوية، ولم يتغذَّ بكلمة الله الصالحة؟! مَن هو المحروم من الرجاء السماوي، إلَّا الذي يريد أن يفصل الروح عن اللاهوت ويحسبه مع الخليقة؟

(١) العظة ٢٤ المعروفة بالعنوان "ضد سابيليوس وأريوس وأنوميوس".

٥٧- يماحكون ويقولون إن الروح القدس فينا كمجرد عطية من الله، وإن العطية لا يمكن أن تنال ذات التكريم الذي يناله الواهب والمحسن.

وحقاً، إن الروح هو عطية الله، ولكنه عطية الحياة؛ لأن شريعة روح الحياة هي التي جعلتنا أحراراً (رو ٨: ٢). وعطية القوة «لأنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم» (أع ١: ٨). فهل لذلك السبب تستهين به؟ ألم يعطِنا الله الآب نحن البشر ابنه الوحيد عطيةً، ولذلك قيل: «الذي لم يضن بابنه، بل بذله لأجلنا، فكيف لا يهب لنا معه كل شيء» (رو ٨: ٣٢)، وفي موضع آخر قيل عن سر التجسد «لتعرف الأشياء التي وهبت لنا مجاناً من الله» (١كور ٢: ١٢)؟

وطبقاً لذلك، يصبح الذين يتَّخذون من محبة الله العظيمة وشفقته، فرصةً للتجديف أشدُّ نكراناً من اليهود. هؤلاء يقاومون الروح؛ لأنه أعطانا الحرية لأن ندعوا الله آبانا «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا صارخاً أبَّا أيها الآب". وبسبب هذه العطية يصبح صوت الروح القدس هو نفسه صوت الذين نالوه.

الفصل الخامس والعشرون

تَستَعمِل الأسفارُ المقدسة حرف الجر "في"، أو حرف الجر "الباء"، بدلاً من "مع"، وأيضًا نجد أن "واو" العطف لها نفس معنى "مع"

٥٨- يسألوننا ويقولون: كيف لم تستعمل الأسفار المقدسة في الكلام عن الروح القدس أنه ممجَّدٌ مع الآب، بل أن الأسفار تتحاشاه تماماً، وتستعمل «فيه» كتعبير مناسب.

من ناحيتي أنا أؤكد أن حرف الجر «في» لا يعني مكانةً أفضل (من المكانة) التي يشير إليها حرف الجر "مع"، بل العكس صحيح؛ لأن «في»، إذا فُهِمَت بشكلٍ سليم، تعني المكانة السامية. وهذا ظاهر -كما لاحظنا من قبل- حيث أن «في» تحل محل «مع» مثل «أدخل بيتك مع المحرقات» (مز ٦٦: ١٣)، بدلاً من «بالمحرقات»، وأيضاً: «وأخرجهم في فضة وذهب» (مز١٠٥: ٣٧)، أي أخرجهم ومعهم فضة وذهب،

وأيضاً: «أنت لا تخرج مع جنودنا» (مز ٤٤: ٩)، أي لا تخرج في جنودنا. وتوجد فقرات أخرى مماثلة تفوق الحد.

وباختصار أريد أن أعرف من هذه الفلسفة الناشئة، ما هو المجد الذي يعطيه الرسول للروح القدس، إذا استخدم «في»؛ لأن المقاومين يدَّعون أنهم وجدوا هذا التعبير في الكتب المقدسة؟ ومع ذلك، فإنني لم أجد مطلقاً ذكصولوجية تقول «المجد لك أيها الآب بابنك الوحيد في الروح القدس»، وهي الذكصولوجية التي يستعملها أعداء الروح القدس أكثر من الهواء الذي يتنفسونه. حقاً يمكن أن نجد عبارات الذكصولوجية متفرقة، ولكن لن يستطيعوا أن يقدموا لنا نصاً كاملاً من الأسفار المقدسة يُقدَّم فيه المجد للآب في الروح القدس. وهكذا إذا أوردوا برهاناً من المصادر المكتوبة، فعليهم أن يعلنوا لنا أين يجدونها. وإذا تمسَّكوا بما عندهم من عادات، فعليهم أن يقبلوا تمسُّكنا نحن بما عندنا من عادات.

٥٩– إننا نجد أن المؤمنين يستخدمون في الذكصولوجيات التعبيرين: «في» و«مع» موثِّقين أن كليهما يؤدي ذات الهدف من تقديم المجد الكامل للروح القدس. ويجب علينا أن نسد أفواه المقاومين باستعمال حرف الجر «مع»، وهو ما يتفق مع استعمال الأسفار المقدسة، ولا يهاجمها المقاومون، ويمكن أن يحل محل «الواو»، فإذا قلت: «بولس وسلوانس وتيموثاوس» (تسا ١: ١)، فإن هذا مثل "بولس مع سلوانس مع تيموثاوس». والمعية هنا ظاهرة سواء باستعمال الواو، أو «مع». وقد قال الرب نفسه: «الآب والابن والروح القدس» (مت ٢٨: ١٩). وإذا قلت الآب والابن مع الروح القدس، فهل اختلف المعنى؟! إن ارتباط أسماء الأقانيم مع بعضها البعض بالواو أو «مع» لا يغيِّر المعنى لأن الشواهد على ذلك عديدة.

وعلى سبيل المثال تقرأ: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح» (٢كور ١٣: ١٣)، «وأيضاً أنا أناشدكم باسم ربنا يسوع المسيح ومحبة الروح» (رو ١٥: ٣). وإذا استعملنا «مع» بدلاً من «الواو»، فما هو الفرق؟! أنا لا أرى فرقاً بالمرة، إلَّا

إذا كانت قواعد اللغة الجامدة تجعلنا نفضِّل واو العطف لإظهار قوة الوحدة، ونرفض «مع» على أنها أقل في تأكيد الوحدة.

ولكن لأنه يجب الدفاع عن إيماننا، فلست أظن أننا نحتاج إلى خطابٍ طويل، والجدال قائمٌ ليس على هذا الحرف، ولا على هذه الكلمة، وإنما على أمور مختلفة تماماً في القوة والمعنى.

ومع أن استعمال حروف الجر، أو «الواو» للعطف ليس مهمَّاً، فإن المقاومين وحدهم هم الذين يهتمون باصطياد كلمة أو حرف من هنا وهناك، وأحياناً من الكنيسة، ولكنني رغم اقتناعي بأن استعمال "مع" مناسب جداً، إلَّا أنني سوف أقدِّم البراهين التي تدل على أن أبائنا كان لديهم اقتناع باستعمال "مع"؛ لأنه يدحض شر سابليوس[١]، إلَّا أنه لا يختلف عن «الواو»، فالواو تحدد تمايُز الأقانيم؛ لأن واو العطف تؤكد وجود الأقانيم الثلاثة مثلما نرى في هذه العبارة: "أنا والآب نأتي إليه" (يو ١٤: ٢٣)، أيضاً: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠). وتمتاز «مع» عن «الواو» بتأكيد البرهان على الشركة الأزلية التي لا انقطاع فيها. ولعلنا نلاحظ نفس الاستعمال في الكلام عن الأمور الإنسانية. فحرف العطف «الواو» يرسِّخ العمل الواحد المشترك بين الاثنين أو أكثر، أمَّا الحرف «مع»، فيعلن الاشتراك نفسه في العمل، كما هذه العبارة: «وأبحر بولس مع تيموثاوس إلى مقدونية، أمَّا تخيكي وأونسيموس فأرسلا إلى كولوسي»، وبذلك نؤكد أن الكل قاموا بعمل واحد اشتركوا فيه. وإذا افترضنا أن العبارة قيلت: «ذهبا مع، أو أُرسلا مع"، فإن أهمية «مع» هي اشتراك كل واحد مع الآخر في العمل نفسه، وبذلك تؤكد "الواو" العمل الجماعي، أمَّا «مع» فتؤكد اشتراك كل فرد على حدة في العمل الواحد الذي اشترك فيه الكل. ومن هذا نرى أن «مع» تقضي على هرطقة سابليوس أكثر من أي كلمة أخرى، ولكنها تقضي على هرطقة أخرى مضادة تماماً لهرطقة سابليوس، أي تلك التي تفصل الابن

---

(١) سابيليوس أنكر التمايُز بين الأقانيم، وعلَّم بوجود أقنوم واحد.

عن الآب، والروح القدس عن الابن، وتدَّعى وجود فاصل زمني بين كل أقنوم[١].

٦٠- إذا قارنا ذلك بحرف الجر «في»، فإن الفرق الظاهر جداً هو ما يلي:

بينما تؤكد «مع» اشتراك كل الأطراف في عمل واحد، كما نقول «أبحروا مع»، "سكنوا مع"، و"اشتركوا مع"، يؤكد حرف الجر «في» العلاقة نفسها بين العمل المشتَرك، وبين الذين اشتركوا في العمل. لأننا على الفور نقول: «أبحروا في»، أو "سكنوا في" للدلالة على استعمال السفينة، أو السكن في المنزل. فالعلاقة نفسها هي ما يحرص حرف الجر «في» على تأكيده. هذا هو الفرق بين الاستعمالين، وإذا دقق أحدٌ في الموضوع، ربما أضاف أمثلةً أخرى. وليس لديَّ متسعٌ من الوقت لكي أبحث في استخدام حروف الجر.

لكن، طالما أن «مع» تؤكد الشركة، فعليكم أن توقفوا المعارك الضارية التي بلا هدنة ضد هذا الحرف. وعلى الرغم من الميزة التي ذكرناها والتي تجعل «مع» تعبيراً سليماً، إلَّا أن مَن يفضِّل استخدام حرف «الواو» بدلاً من «مع» في الذكصولوجيات، ويقدِّم المجد للآب والابن والروح القدس حسب نص الإنجيل وصيغة التعميد، فليفعل هذا ولا اعتراض لأحد. ومن الأفضل أن نتفق على هذا، ولكن المقاومين يفضِّلون قطع ألسنتهم على قبول حرف الواو، ويحاربوننا بلا هوادة مفضِّلين استخدام حرف الجر «في» من أجل إنقاص كرامة الروح القدس الإلهية. ولذلك يفضِّلون أن يقدموا المجد لله «في الروح»، ومن المفيد أن نشرح استخدام حرف الجر «في» بتوسع؛ حتى نؤكد أن هذا الحرف سوف يبتدأ من الاستخدام الخاطئ الذي يحاول المقاومون أن يزجُّوا به.

وسوف نرى كيف يشترك معنا حرف الجر «في» في تقديم المجد للروح القدس.

---

(١) الإشارة هنا إلى الأريوسية وما تفرَّع عنها من هرطقات. وحجة باسيليوس أن "مع" تنفي وجود فترة زمنية بين الآب والابن والروح القدس.

الفصل السادس والعشرون

استعمالات حرف الجر "في" تُناسِب الإيمان الصحيح بالروح القدس

٦١- ما أصغر وأبسط حرف الجر «في»، هكذا أراه، ولكن، ما أكثر معانيه. وكل المعاني المتنوعة تساعد على التعبير الصحيح عن عقيدتنا في الروح القدس.

تعبِّر الفلسفة[١] عن القضايا الرئيسية على هذا النحو: الشكل في المادة، فلا مادة بلا شكل، والقوة كامنة فيما تقدر عليه، والعادة تثبت في الذي يتأثر.

ولأن الروح القدس هو الذي يكمِّل الكائنات العاقلة ويعطيها القدرة على الوصول إلى غاية اكتمالها، فمن هذه الزاوية بالذات، يمكن أن نشبِّه الروح القدس بالشكل بالنسبة للكائنات؛ لأن الذي «لا يحيا حسب الجسد» (رو ٨: ١٢)، بل ينقاد «بروح الله» (رو ٨: ١٤)، يدعى ابن الله؛ لأنه يتغيَّر إلى صورة ابن الله (رو ٨: ٢٩)، أي يصبح روحانياً.

وكذلك يمكن أن نشبِّه عمل الروح القدس بقوة الإبصار في العين السليمة؛ لأن

(١) الإشارة هنا إلى أفلاطون في "حوار طيماوس"، وإلى أرسطو "ما بعد الطبيعة" (٨: ٣، ٩)، (٨: ٨، ١١).

عمله في تنقية النفس يشبه قوة الإبصار. وهذا ما جعل بولس يصلي للذين في أفسس لكي «تستنير عيونهم بروح الحكمة» (أف ١: ١٧). وكما أن الذي يتعلم الفن، يظل فيه، هكذا نعمة الروح القدس، تظل –في الذي يقبلها– حاضرةً دائماً، ولكن لا تعمل في النفس بشكل دائم. لأن الفن يظل كامناً في الفنان، ويعمل فقط عندما يسمح الفنان لقوة الفن بأن توجِّهه. هكذا الروح القدس، حاضرٌ دائماً في الذين يستحقون عمله، ولكنه يعمل حسب الاحتياج في النبوة، أو الشفاء، أو القوات الأخرى.

ويمكن أن نضيف تشبيهاً آخر، فكما أن الصحة والحرارة كامنة في الجسد مع القوات الأخرى، لذلك بشكل دائم يكون الروح القدس في النفس، لكنه لا يسكن بفاعلية في الذين –بسبب عدم ثبات إرادتهم– يجحدون النعمة التي نالوها. والمثال الواضح على ذلك نراه في شاول الملك (١صم ١٦: ١٤) وفي السبعين شيخاً من أبناء إسرائيل، ما عدا الذين ظل الروح القدس فيهما وحدهما (عدد ١١: ٢٥).

ويظل هكذا في كل مَن يُشبِه هذين الاثنين.

والروح القدس يسكن في النفس مثل الإدراك الذي يكوِّن فكرةً في القلب، وأحياناً يتحول إلى كلمة ينطقها اللسان، وهكذا يكون عمله عندما يشهد لأرواحنا (رو ٨: ١٦)، أو عندما يصرخ في قلوبنا "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤)، أو عندما يتكلم نيابةً عنَّا، كما قيل: «لستم أنتم المتكلمين، ولكن روح أبيكم هو الذي يتكلم فيكم» (مت ١٠: ٢٠).

ونحن نعتقد بأن الروح –بالنسبة لتوزيع المواهب– هو مثل الكل الحاضر في الأجزاء، لأننا جميعاً أعضاء بعضنا البعض، ولكن لكل واحد موهبته حسب النعمة التي توهَب لنا (رو ١٢: ٥ – ٦)، «ولذلك لا تقدر العين أن تقول لليد، ليس لي حاجة إليك ولا الرأس للرجلين لا حاجة إليكما» (١كور ١٢: ٢١)، وإنما الكل يكمِّل جسد المسيح في وحدة الروح، ويقدِّم كل عضو للآخر الخدمة الضرورية التي تأتي من المواهب. والله وضع الأعضاء في الجسد حسبما شاء (١كور ١٢: ١٨)، وأعضاء وُهِبَت الاهتمام

بالأعضاء الأخرى (١كور ١٢: ٢٥) حسب الشركة الروحية التي تقدِّم العطف المتبادل. ولذلك إذا تألم عضوٌ، تألمت معه باقي الأعضاء، وإذا أُكرِمَ عضوٌ، فرحت معه باقي الأعضاء (١كور ١٢: ٢٦). وكما أن الأجزاء في الكل، هكذا نحن كل فرد منا في الروح؛ لأننا جميعاً «اعتمدنا إلى جسد واحد بروح واحد» (١كور ١٢: ١٣).

٦٢- ما سوف أقوله الآن، يبدو غريباً، ولكنه مع ذلك، فهو حقٌ، فالروح يُوصَفُ عادةً بأنه مقر الذين تقدَّسوا، وسوف نرى أن هذا التشبيه (أي مقر أو مكان) لا يحط من كرامة الروح القدس، بل بالحري يمجِّده، فالكلمات التي تصف الجسد، تُستخدَم بسبب وضوحها في الأسفار المقدسة، ولكنها تكتسب معنىً روحياً. ولذلك نجد في المزامير أن الله يوصَف بأنه «كن مخلصي ومكاناً حصيناً» (مز ٧١: ٢ س)، وعن الروح قيل: «هوذا موضع لي وصخرة لأقف عليها» (خر ٣٣: ٢١ س).

وبوضوح، المكان هو الرؤيا الداخلية التي يعطيها الروح، والتي صارت لموسى، فاستطاع أن يرى الله بشكل ظاهر. وهذا هو المكان الخاص بالعبادة الحقيقية، والذي قيل عنه: «احترس من أن تصعد محرقاتك في كل موضع... ولكن في المكان الذي يختاره الرب إلهك» (تث ١٢: ١٣ - ١٤). وما هي هذه العبادة الحقيقية سوى الذبائح الروحية، أي ذبيحة التسبيح (مز ٥٠: ١٤ س)؟ وفي أي موضع تقدمها؟! في الروح القدس. وممن تعلمنا ذلك؟ من كلمات الرب نفسه: «الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق» (يو ٤: ٢٣)، وقد رأى يعقوب هذا المكان، وقال: «إن الرب في هذا المكان» (تك ٢٨: ١٦). وحقاً، إن الروح هو مكان القديسين، وكل قديس هو حقاً مكان الروح القدس؛ لأنه يقدِّم ذاته ذبيحةً وهيكلاً لسكنى الله، ولذلك قيل إنهم هيكل الله (١كور ٦: ١٩). وهكذا يتكلم بولس في المسيح: «نتكلم في المسيح في حضرة الله» (٢كور ٢: ١٧). بل والمسيح يتكلم في بولس: «أنتم تطلبون برهان المسيح الذي يتكلم فيَّ» (٢كور ١٣: ٣). وهكذا يتكلم بولس في الروح، وأيضاً الروح يتكلم فيه (١كور ١٤: ٢، ١بط ١: ١١).

٦٣- أمَّا عن صلة الروح بالمخلوقات، فقد قيل إنه فيهم بطرقٍ مختلفة (عب ١: ١)، ولكن عن صلة الروح بالآب والابن، فالإيمان الصحيح يعلِّمنا أن نقول إنه معهما أكثر من أنه فيهما. ونعمة الروح القدس الفيَّاضة في الذين يسكن فيهم الروح القدس والتي تصل إليهم، يمكن أن نقول إنها في الذين يقدرون أن يقبلوه. أمَّا كيانه الأزلي قبل الدهور وقيامه مع الابن في ذات الجوهر، فهو ما لا نستطيع أن نتأمله بدون الألفاظ التي تعبِّر عن شركته الأزلية.

وكل ما يتطلب الاتحاد الأزلي، يُعبَّر عنه بما يناسبه من صفات. ولذلك يُستخَدم حرف الجر «مع» للدلالة على عدم الانفصال. أمَّا إذا استخدمنا حرف الجر «في» فدلالةً على الوحدة. والأمثلة على ذلك نقول إن الحرارة في الحديد المحمَّى بالنار، ولا يمنع أن نقول إن الحرارة مع النار. وأيضاً الصحة في الجسد، ولا يمنع أن نقول الصحة مع النفس. ويصبح من الواضح أنه طالما أننا نقصد الشركة الخاصة والطبيعة التي لا انفصال فيها، فالتعبير المناسب جداً هو «مع»، فهو يؤكد عدم الانفصال.

أمَّا حيث تفيض نعمة الروح القدس، فلا تصبح عُرضةً للبقاء أو الضياع بسبب استعمال حرف الجر «في»، فهو استعمالٌ خاصٌّ بالنعمة التي توهَب للمخلوقات من الروح القدس. ومع أن النعمة تبقى دائماً في الذين يثبتون، لأنهم يقبلون على الخير دائماً، إلَّا أننا نتمسك باستخدام حرف الجر «في»، فالنعمة «في» الذين يشتركون في الروح.

أما إذا تأملنا في كرامة الروح الإلهية، فنقول إنه «مع الآب والابن»؛ لذلك، إذا قدَّمنا الذكصولوجية "في الروح القدس"، فهذا لا يحدد مرتبة الروح، بل هو اعترافٌ منَّا بضعفنا، وإقرارٌ بأننا لا نستطيع أن نمجِّده بذواتنا، فالقدرة على التمجيد هي «في» الروح (٢كور ٣: ٥). ونحن «في» الروح نستطيع أن نقدم الشكر لإلهنا على ما أعطاه لنا من إحسان، وعلى تطهيرنا من الشر، وسواء أخذنا قليلاً أم كثيراً، فإننا بما أخذنا نقدِّم ذبيحة التسبيح لله (عب ١٣: ١٥). وهكذا يصبح من الواضح أن أحد استعمالات حرف الجر «في» هي تقديم الشكر حسب الإيمان الصحيح في الروح القدس.

وأليس من الصواب أن يقول كل إنسان مع الرسول بولس أظن أن روح الله «فيَّ» (١كور ٧: ٤)؟ ومع أن البعض قد لا تعجبه هذه الكلمات، إلَّا أن الإنسان الذي يشهد لنفسه قائلاً: «إن روح الله فيَّ وقد صرت حكيماً بواسطة نعمة الله لذلك أنا أُمجِّده»، وأيضاً يمكن أن نقول «احفظ الوديعة الكريمة بالروح القدس الساكن فينا» (٢تيمو ١: ١٤)، وهذا يناسب دانيال الذي قيل «روح الله فيه» (٤: ٨ س)، بل وكل الذين يشبهونه في الفضيلة.

٦٤– وهناك استعمالٌ آخر لحرف الجر «في»، فكما أننا نقول إننا نرى الآب في الابن، فإننا نرى الابن في الروح، هذا نعرفه من السجود بالروح؛ لأن الروح يعمل فينا ونستنير بالنور، فنعرف معنى الكلمات التي قيلت للمرأة السامرية التي خُدِعَت بعادات بلدها، وظنَّت أن السجود لله هو في بقعةٍ محددةٍ، ولكن ربنا أرشدها إلى ما هو أفضل بقوله إن السجودَ يجب أن يكون «بالروح والحق» (يو ٤: ٢٤)، فعرَّفها أن الحق هو ذاته. وقد سبق وقلنا إن عبادة صورة الله الآب، أي الابن، هي عبادةٌ تقدَّم للآب أيضاً؛ نقول نفس الشيء عن الروح القدس؛ لأنه يعلن في ذاته إلوهية الرب يسوع المسيح. ولذلك، السجود للروح القدس، هو سجودٌ للآب والابن، فهو غير منفصلٍ عنهما. ومَن يفصل نفسه عن الروح القدس لا يستطيع أن يسجد للآب والابن، ومَن يصبح في الروح، فلا يوجد ما يمكن أن يفصله عن الله؛ لأنك لا تقدر أن تفصل النور عن المرئيات، كذلك لا يمكن أن ترى صورة الله الغير المنظور إلَّا باستنارة الروح. وطالما أنه غير مستطاع لمن يرى الصورة أن يفصلها عن النور؛ لأن النور هو الذي يسبب الرؤية، هكذا بكل يقين، نرى «بهاء مجد الله» باستنارة الروح القدس في رسم الجوهر، فالروح يرفعنا لمشاهدة ذاك الذي هو رسم الجوهر والختم (عب ١: ٣)، فنرى التطابق بين الابن والروح.

الفصل السابع والعشرون

أصل استعمال حرف "مع"، وما هو معناه في التسليم غير المكتوب في الكنيسة

٦٥– يقول المقاومون إن حرف الجر «في» يناسب تماماً كل الأفكار الخاصة بالروح القدس. ويسألوننا: لماذا يستخدمون «مع الروح» بدلاً من «في الروح»، وبذلك تصنعون عبارةً جديدةً لا فائدة منها، ولا تصرِّح الكنيسة باستخدامها؟

وقد سبق من قبل أن قلنا في هذه المقالة إن حرف الجر «في» لا يُستخدم بشكل خاص للروح القدس وحده، بل يُستخدم أيضاً للكلام عن الآب والابن أيضاً.

وأعتقد أننا شرحنا بالكفاية كيف أن استخدام حرف الجر «في» لا يُنقِصُ شيئاً من كرامة الروح القدس، بل يرفع القلب إلى العلى ولا يزعج إلَّا الذين فسدت عقولهم. وبقي أن نتتبع أصل استخدام «مع» ومعناه، وأن استخدامه منسجمٌ مع تعبيرات الأسفار المقدسة.

٦٦- العقائد والممارسات التي تقبلها وتحفظها الكنيسة، بعضها يستند على التعليم المكتوب، والبعض قبلناه سراً، وهو تسليم الرسل، وهذان هما دعامة الإيمان الصحيح، ولهما نفس القوة. وهذا لا يعترض عليه أحد، لا سيما من توفرت له خبرة بممارسات الكنيسة. ونحن لا نستطيع أن نرفض ما استقر من عادات في الكنيسة على أساس أن هذه العادات لا تستند إلى برهانٍ مكتوب، أو أن قيمتها صغيرة. وإذا رفضنا عادات الكنيسة، فسوف نجرح الإنجيل نفسه، بل نحوِّل التعليم إلى اسمٍ بلا معنى. والمثال على ما أريد أن أقدِّمه في هذا الشأن عن موضوع هام وعام: ما هو المصدر المكتوب الذي تعلَّمنا منه أن نرشم -بعلامة الصليب- الذين يثقون بربنا يسوع المسيح، ويطلبون الخلاص في «المعمودية»؟

وما هو المصدر المكتوب الذي علَّمنا أن نتجه إلى الشرق أثناء الصلاة؟

ومَن من الآباء القديسين ترك لنا -كتابةً- كلمات استدعاء الروح القدس في الإفخارستيا على الخبز والكأس؟

وكما هو معروفٌ، لا نكتفي بما كتبه الرسل، أو ما هو مكتوب في الإنجيل، بل خدمة القداس، وتبدأ وتنتهي بكلمات أضفناها لها قيمة عظمى، وتعتبر أسس الخدمة. وكل هذا مسلَّمٌ إلينا في التعليم غير المكتوب.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن تقديس مياه المعمودية والميرون، وطريقة قبول وتعميد الموعوظين، هل لها مصدر مكتوب؟!

أليس مصدر كل هذا هو ما لا يعلَن؟ أي التسليم السري؟

ما هي الكلمات المكتوبة التي علَّمتنا مِسحة الميرون؟ وأيضاً ما هو المصدر المكتوب الذي يحدد أن تكون غطسات المعمودية ثلاثة، ويمكن أن نسأل عن العادات الأخرى الخاصة بالمعمودية مثل جحد الشيطان وكل ملائكته، ما هو المصدر المكتوب الذي يعلن لنا هذا؟

أليس كل ذلك من التعليم العظيم والسرِّي غير المعلَن، والذي احتفظ به الآباء في سريةٍ تامة؛ لكي لا يعرفه المتشككون والمتطفلون؛ فيحفظون بذلك هيبة الأسرار؟ فالذي لا يجوز إعلانه لغير المعمدين هو ما لا نسمح لهم بحضوره، ولا حتى تسجيله مكتوباً.

وماذا كان قصد موسى العظيم عندما لم يسمح للشعب بدخول كل أجزاء خيمة الاجتماع؟ إن غير الأطهار يقفون خارج الأسوار المقدسة، وسمح بدخول الدار الخارجية «الرواق الأول» لمن هم أطهار.

أمَّا اللاويون، فهم وحدهم الذين سمح لهم بدخول الهيكل؛ لأنهم استحقوا أن يخدموا الله. أمَّا الذبائح والمحرقات وباقي الخدمة الكهنوتية، فقد حُفظَت للكهنة وحدهم، وسُمِحَ لواحدٍ فقط بدخول قدس الأقداس، مرةً واحدةً في السنة، وفي ساعةٍ محددة لكي يتطلع إلى قدس الأقداس في عجبٍ ودهشةٍ من المنظر. وموسى في حكمته، أدرك أن ما يقع تحت الأبصار ويسهُل الحصول عليه، مصيره الاحتقار في النهاية. أمَّا الاهتمام والحفظ، فهو حنوٌ طبيعي لما هو بعيد المنال.

وعلى نفس الدرب سلك الرسل والآباء الذين أرسوا دعائم الشرائع الكنسية وحفظوا هيبة الأسرار وكرامتها بالإبقاء عليها سراً وعدم إذاعتها؛ لأن ما يعلَن ويُعرَف لدى عامة الناس، يفقد هيبته ولا يصبح سراً، وهذا هو السبب في وجود التسليم غير المكتوب الذي فيه عقائد وممارسات لا تعلَن ولا تدوَّن حتى لا تصبح من توافه الأمور متى صارت مألوفةً للكل.

العقيدة والتعليم هما شيئان متمايزان. الأولى نحتفظ بها في صمت، والثاني نعلنه للعالم كله. والغموض الذي يحيط بالعقيدة في الكتاب المقدس هو ضربٌ من ستار السرية، فتصبح صعبة الفهم لكي يتعلم القراء الحرص، وهذا فائدة لهم. وهكذا نحن نتجه إلى الشرق عندما نصلي، ولكن قليلاً منا يفهمون أن الاتجاه إلى الشرق هو طلبٌ للوطن القديم الفردوس الذي غرسه الرب «شرق عدن» (تك ٢: ٨)، كما نصلي وقوفاً في أول

الأسبوع، وليس الكل يعرف السبب، فاليوم الأول هو يوم الأحد، أو يوم القيامة الذي نقوم[١] (نقف) فيه ويذكِّر أنفسنا بالنعمة التي أخذناها بالقيام في الصلاة، ليس فقط لأننا قمنا مع المسيح، وبذلك نطلب ما فوق (كو ٣: ١)، بل أيضاً لأن يوم الأحد هو صورة الحياة الأبدية، ورغم أنه أول الأيام إلَّا أنه يدعى في موسى (سفر التكوين) ليس الأول، بل يوماً واحداً: «وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً» (تك ١: ٥)، وهذا يعني أنه ليس الأول في الترتيب، بل الواحد الذي سوف يتكرر، ولذلك يدعى أيضاً الثامن، ويذكره صاحب المزامير كعنوان لبعض المزامير[٢]؛ لأن اليوم الثامن كعلامة للحياة الآتية هو اليوم الذي لا نهاية له، بلا مساء، وبلا غد، فهو الدهر الذي لا ينقض ولا يشيخ. والضرورة تحتِّم أن تعلَّم الكنيسة أبنائها الذين تعولهم أن يقدِّموا صلواتهم في ذلك اليوم وقوفاً حتى يتحقق القصد من التذكُّر الدائم للحياة التي بلا نهاية حتى لا نهمل الاستعداد للانتقال إليها.

وأيام الخماسين هي تذكُّر دائم للقيامة التي نتوقعها في الدهر الآتي. فاليوم الأول أو الواحد أي يوم الأحد، إذا ضربنا سبعة يكمل الأسابيع التي للخماسين. فهي تبدأ به وتنتهي به مكملة بذلك العدد خمسين، أياماً متماثلة، وهي أيضاً تشبه الأبدية؛ لأنها تنتهي من حيث تبدأ على نسق حركة دائرية. وتعلِّمنا قوانين الكنيسة أن الوقوف في الصلاة في ذلك اليوم بالذات هو وضعٌ مفضَّلٌ. وذلك واضح إذا ساغ القول من أننا نطرح الجزء الأعلى من ذواتنا[٣] خارج الحاضر، لنصل إلى المستقبل، وعلى العكس من ذلك، ففي كل مرة نسجد فيها راكعين، نقوم لكي نعبِّر بالفعل على أننا بالخطية سقطنا إلى أسفل، وأننا دعينا إلى السماء بمحبة خالقنا وتعطفه.

---

(١) القيامة من القيام، أو الوقوف، وهو سبب تأدية كل الصلوات وقوفاً.

(٢) مزامير ٦، ١١، وفي هذا الإطار نفسه نفهم معنى النص القبطي "خبزنا الذي للغد"، أي (الإفخارستيا)؛ لأن الغد هو الدهر الآتي، القيامة وحياة عدم الفساد.

(٣) الرأس، أي الفكر.

٦٧- وسوف أحتاج لوقت طويل جداً إذا حاولت أن أسرد أسراراً الكنيسة غير المكتوبة. أما عن باقي الموضوعات فلا يجوز لي أن أقول عنها أي شيء.

أمَّا عن الاعتراف بإيماننا بالآب والابن والروح القدس، فما هو المصدر المكتوب لهذه العقيدة؟ إذا كان حقاً أننا اعتمدنا، فإن التسليم الخاص بالمعمودية يحتم الإيمان والاعتراف بصيغة معروفة عند معموديتنا. ومنطقياً، علينا أن نقدِّم المجد الذي يتفق مع الإيمان الذي اعتمدنا به، فهذا ينسجم تماماً مع التسليم ومع الإيمان الصحيح الذي تقوم عليه حياة التقوى. وعلى المقاومين أن يقبلوا ما نقوله، حتى لا يكون هناك تناقض بين الذكصولوجية وصيغة التعميد نفسها. وإذا رفضوا الذكصولوجية التي نستعملها؛ لأنها لم ترد في مصدر مكتوب، فعليهم أن يبرهنوا لنا ما هو المصدر المكتوب الذي يظهر فيه الاعتراف بالإيمان، والأمور الأخرى التي ذكرناها سابقاً. فإذا كان التسليم غير المكتوب يتضمن عوائد كثيرة تؤثر بشكل واضح في «سر التقوى» (١تيمو ٣: ١٦)، فلماذا يعارضون في حرفٍ واحدٍ استلمناه مع الأمور الأخرى التي استلمناها من الآباء، وهي ثابتة لدينا في الممارسات والعادات التي تحتفظ بها الكنائس المحافظة؟

إن البراهين على صحة استعمال «مع» قوية، وأهمية هذه الكلمات ليست قليلة فهي تكمل السر[1].

٦٨- لقد شرحنا استعمال كل من حرفي «في» و «مع»، ويبقى أن أشرح الاتفاق بين الحرفين، وما يتميز به كل منهما. فهما ليسا ضد بعضهما، بل كل منهما يدعِّم الإيمان الصحيح، حرف الجر «في» يعلن لنا ما يخصنا نحن البشر، بينما «مع» تؤكد شركة الروح القدس في جوهر الله. ولذلك يمكن استخدام الحرفين؛ لأن «مع» تؤكد كرامة الروح الإلهية، و«في» تعلن النعمة التي فينا. وهكذا نقدم المجد «في الروح» و«مع الروح»، دون أن يكون هذا من عندنا، بل نعتمد فيه على تعليم الرب كقاعدة راسخة،

---

(1) سر الإيمان بوحدة جوهر الثالوث، وأزلية الروح القدس مع الآب والابن.

وبذلك تصبح كلمات الرب حقائق وثيقة الصلة بالأسرار.

هذا ما يجعلنا مضطرين من أجل صدق الإيمان، أن نجعل الاعتراف بالروح القدس الذي يقال اسمه مع الآب والابن مع الاعتراف بالإيمان في المعمودية، هو أساس الذكصولوجية التي تقدم للثالوث ومصدرها.

لقد خيَّرنا هؤلاء وعليهم أن يقولوا لنا، إما أن لا نعتمد حسب التسليم، وإما أن لا نؤمن بما نعتمد، أو لا نقدم المجد حسب الإيمان. وعلى الذي لا يقبل الإيمان الصحيح أن يشرح لنا أن الإيمان والمعمودية وتمجيد الثالوث ليست أموراً متصلة، بل هي أمور منفصلة بلا ارتباط. أما مَن ينكر الإيمان الصحيح، فعليه أن يعرف أن هذه الأفكار الجديدة هي دمارٌ شامل لكل شيء. ومع أننا شرحنا كل شيء بكفاية، إلَّا أنهم لا يكفُّون عن الثرثرة في أذهاننا بأن تقديم المجد للآب والابن مع الروح القدس ليس في الأسفار المقدسة وتعوزه الشهادة. وقد سبق وقلنا إنه لا فرق بين المجد للآب والابن والروح القدس، والمجد للآب والابن مع الروح القدس. ولا يستطيع أحد أن يمحو أو يرفض حرف الواو، فهو ثابت من كلمات الرب نفسه، ولا يوجد ما يحول دون استعمال حرفٍ آخر لا يختلف عن الواو، بل يعادله. وقد شرحنا كيف يتساوى الحرفان، والميزة التي ينفرد بها كل منهما. والبرهان الأخير هو أن الرسول يستعمل الحرفين دون أن يظهر اختلافاً في الاستعمال. فهو يقول: «باسم الرب يسوع وفي روح إلهنا» (١كور ٦: ١١)، ومرة أخرى: «تجتمعون أنتم وروحي مع قوة ربنا يسوع» (١كور ٥: ٤)، فهو لا يرى فرقاً بين ربط الأسماء بحرف الجر «في» أو باستخدام «مع».

الفصل الثامن والعشرون

المقاومون لا يقبلون الكلمات التي تستخدمها الأسفار المقدسة عن البشر الذين يملكون مع المسيح، مع أنها هي نفسها تُستخدَم عن الروح القدس

٦٩- هل يمكن أن ندافع عن استعمال آبائنا لتعبير «مع الروح»، فهم الذين استخدموا هذا التعبير قبلنا، وبالتالي هم الذين يستحقون اللوم أكثر منا. لقد استخدم الرسول نفس التعبير «وأنتم الذين كنتم أمواتاً بخطاياكم وغلف أجسادكم... أحياكم مع المسيح» (كو ٢: ١٣)، فهل أعطى الله للشعب كله وللكنيسة هبة الحياة مع المسيح؟ وهل الحياة مع المسيح ليست للروح القدس؟ وإذا كان من الكفر أن نفصل الحياة مع المسيح عن الروح القدس، أليس من الصواب إذاً أن نعترف بأن الروح والمسيح متحدان

معاً؟

أليس هذا تبلداً في الشعور لا يُقاس، أصيب به هؤلاء الذين لا يعترفون بأن القديسين مع المسيح؟ وإذا كنا نعلم أن بولس الذي كان غائباً في الجسد، كان حاضراً مع الرب (٢كور ٥: ٨)، وبعد الانتقال هو أيضاً مع المسيح (فيلبي ١: ٢٣)، فكيف لا يسمحون بأن يكون الروح القدس مع المسيح، وهم في نفس الوقت يسمحون للبشر بأن يكونوا مع المسيح؟ إن الرسول يصف نفسه بأنه عامل مع الله في تدبير الإنجيل (١كور ٣: ٩)، فهل سوف يتهموننا بالكفر، إذا قلنا بأن الروح القدس عاملٌ مع الله، وهو الذي به يثمر الإنجيل في كل الخليقة تحت السماء (كو ١: ٦)؟ واضحٌ أيضاً أن حياة الذين يثقون بالرب مستترة مع المسيح في الله، وعندما يظهر المسيح الذي هو حياتنا، سوف نظهر نحن أيضاً معه في المجد (كو ٣: ٣ – ٤). فإذا كان الروح هو روح الحياة الذي حررنا من ناموس الخطية، ألا يكون مع المسيح سراً في الحياة المستترة؟ ألا يكون معه في ظهور المجد العتيد أن يعلَن في القديسين؟

نحن ورثة الله ووارثون مع المسيح (رو ٨: ١٧)، فهل للروح شركة في عمل الله والمسيح؟

مكتوبٌ «الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أبناء الله» (رو ٨: ١٦ – ١٧)، فهل سنصل مثلهم لدرجة أن نسمح للروح بالشهادة على شركته مع الله، وهي الشهادة التي تعلمناها من الرب؟

لقد وصلنا إلى قمة الغباوة، إذا كنا بالإيمان بالمسيح الذي هو إيمان بالروح القدس (غلا ٥: ٥)، نرجو أن نقوم معه ونجلس معه في السماويات، حينما يتغير جسد تواضعنا من الحالة الطبيعية إلى الحالة الروحية، ثم نرفض أن نعطي للروح أي شركة في المجد أو في أي شيء آخر قبلناه منه (أف ٢: ٦ – فيلبي ٣: ٢١ – ١كور ١٥: ٤٤).

وماذا عن العطايا التي أخذناها من الذي لا يكذب، بل أعطى حسب الوعد

لكل مَن يؤمن ويستحق، ألن نسمح ولو بواحدة منها للروح القدس، كما لو كانت فوق استطاعته؟ إذا كنت أنت بحسب استحقاقك «مع الرب»، وتتوقع أن تكون في السحاب لكي تقابل الرب في الهواء وتكون معه دائماً (١تسا ٤: ١٧)، فهل تعتبر الذي يحسب الروح القدس مع الآب والابن قد سقط في خطية الكفر؟ وهل بعد الذي قلناه تستطيع أن تنكر أن الروح هو مع المسيح؟

٧٠– إنني أخجل من إضافة شيء إلى ما ذكرت. أنت تتوقع أن تمجَّد مع المسيح؛ لأننا إذا تألمنا معه نتمجد معه (رو ٨: ١٧)، ومع ذلك ترفض أن تمجِّد «روح القداسة» مع المسيح، كما لو كان الروح القدس غير مستحق أن ينال كرامةً مثل الكرامة التي سوف تنالها (رو ١: ٤).

أنت ترجو أن تملك مع المسيح (٢ تيمو ٢: ١٢)، ولكنك مع ذلك تحتقر روح النعمة (عب ١٠: ٢٩)؛ لأنك تريد أن تجعله في مرتبة العبد والتابع. وأنا أقول هذا لا لكي أُبيِّن كم يجب علينا أن نمجد الروح القدس، بل لكي أُبيِّن عدم عدل الذين يهربون من شركة الروح مع الابن والآب، كما لو كانوا يهربون من الكفر. مَن يمكنه أن يرى هذه الأمور دون أن ينتحب؟ لأن ما يحدث الآن، لو شرحناه لغلامٍ صغير؛ لأدرك على الفور أن الخطر العظيم الذي يهددنا هو ضياع الإيمان. إن ما لا جدال عليه أصبح موضع شك. نعترف بالإيمان بالروح ثم نتشاجر حول اعترافنا!

نعتمد، ثم نحارب المعمودية. ندعوه رئيس الحياة، ثم نحتقره ونعامله كعبد مساو لنا. نقبله مع الآب والابن، ثم نرفضه كما لو كان جزءاً من الخليقة. وهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يُصلُّون (رو ٨: ٢٦)، إذا تكلموا عن الروح باحترام ورعدة، يظنون أنهم قدَّموا ما يجب عليهم، ولكنهم سرعان ما يتراجعون، إذا ظنوا أنهم تجاوزوا حدود الاحترام. يا ليت هؤلاء يندبون بعضهم، لأننا مهما قلنا، لا نملك القوة على التعبير عن شكرنا على العطايا التي نأخذها، فالروح فوق الإدراك، ولذلك هو يحكم على كل حديث بالقصور، وبالعجز، كما هو مكتوب: «مجِّدوه على قدر ما تستطيعوا»، ومع

ذلك سيظل أرفع. عظِّموه على قدر طاقتكم. لا تكلوا لأنكم لن تدركوه (سيراخ ٣٣: ٣٠). حقاً، ما أرهب الحساب الذي سوف تؤدَّونه عن هذه الأقوال؛ لأنكم سمعتم من الله الذي لا يكذب إن مَن يجدِّف على الروح القدس ليست له مغفرة (لو ١٢: ١٠).

الفصل التاسع والعشرون

مشاهير رجال الكنيسة الذين استخدموا "مع" في الكلام عن الروح

٧١- إن الإجابة على الاعتراض بأن تعبير «مع الروح» لا يستند إلى مصدر مكتوب، تؤكد أنه لو كان هذا هو الموضوع الوحيد الذي لم يدوَّن، لجاز لنا أن نرفضه. ذلك أن الكثير من الأسرار التي نقبلها ونمارسها لا يوجد لها سندٌ مكتوب، فلماذا نرفض «الذكصولوجية» «مع الروح» ونقبل الباقي؟ إنني أعتقد أن التمسك بالتسليم غير المكتوب هو عادة رسولية «أمدحكم لأنكم تذكرونني في كل أمر وتحافظون على التسليم الذي سلمتكم إياه» (١كور ١١: ٢)، وأيضاً «تمسكوا بالتسليم الذي تعلمتوه سواء شفاهة أو مكتوباً» (٢تسا ٢: ١٥).

وأحد هذه الممارسات «الذكصولوجية» التي لا زلنا نستعملها، والتي وضعها الذين وضعوا أساسات الكنيسة، وسلَّموها للذين بعدهم، وانتشر استعمالها، وتأصَّلت بمرور الوقت. وكما في المحكمة، إذا لم نستطع تقديم الوثائق اللازمة، واستطعنا أن نقدم عدداً ضخماً من الشهود، ألا تحكم لصالحنا؟ أعتقد أنك تحكم لصالحنا؛ لأنه على فم شاهدين أو ثلاثة تثبت كل كلمة (تث ١٩: ١٥).

وإذا استطعنا أن نبرهن لكم على أن زماناً طويلاً قد مر على استخدام

الذكصولوجية، الأمر الذي يؤكد قِدمها واستقرارها في الكنيسة، ألا يكفي هذا لإثبات براءتنا في ساحة المحكمة؟ إن العقائد القديمة لها وقارٌ خاص، فهي توحي بهيبة القديم. وعندما أُقدِّم قائمة الشهود الذين استخدموا «مع»، فإن الزمن الطويل الذي يفصل بيننا وبين هؤلاء الشهود يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار. لأن استخدام هذه الذكصولوجية لم يبدأ بنا، وكيف يحدث هذا؟ لأننا بالمقارنة بالتاريخ القديم الذي استُعملت فيه كلمة «مع» نكون حسب تعبير أيوب «أبناء الأمس» (٨: ٩)[١]. ومن ناحيتي، إذ كان يجب عليَّ أن أعبِّر عن رأيي، فإنني أعتز بهذه الكلمة كتراثٍ من الآباء. وقد استلمتها عن إنسان عاش حياةً طويلة في خدمة الله، وهو الذي عمَّدني وقبلني في خدمة الكنيسة[٢].

وعندما فحصت –على قدر استطاعتي– إذا كان الرجال القديسون الذين عاشوا قبلنا قد استخدموا الكلمة التي يعترضون عليها، وجدت رصيداً هائلاً من البراهين على صحة الذكصولوجية. وقيمة هذا الرصيد ليست في قِدمه فقط، ولكن بسبب ما تمتَّع به هؤلاء من معرفة دقيقة ليست متوفرة في أيامنا. وقد وجدت أن هؤلاء الشهود الأمناء قد استعملوا حرف العطف «الواو» أو «مع» دون أن يسبب هذا اختلافاً في الإيمان أو المعنى.

٧٢– نبدأ بمن هو مشهور، أي إيريناوس (+ ٢٠٠)، وقبله إكليمنضس الروماني (+ ١٠٠)، وديونيسيوس الروماني (+ ٢٦٩)، والذي أدهشني هو ديونيسيوس السكندري الذي كتب في رسالته الثانية إلى سميه عن الاعتقاد والدفاع عنه، ويختم ديونيسيوس بهذه الكلمات: «ونحن الذين نتمسك بكل ما استلمنا من الشيوخ الذين عاشوا قبلنا، الكلمات والممارسات التي تُعلِّمنا أن نقدِّم الشكر مستخدمين نفس

---

(١) من الواضح أن التسليم غير المكتوب يعتمد على شهادة التاريخ، أي قِدَم الممارسة، ثم وجود شهود من الآباء على صحة التسليم.

(٢) الأسقف ديانيوس عمَّد باسيليوس حوالي عام ٣٥٧ عند عودته من أثينا وكرَّسه قارئاً. ويتحدث عنه باسيليوس بكل وقار، رغم أنه اختلف معه وتركه في عام ٣٥٩، راجع الرسالة ٥١ من رسائل باسيليوس.

الكلمات التي استخدموها. وفي ختام رسالتنا إليكم، نقدم المجد والقوة لله الآب والابن ربنا يسوع المسيح مع الروح القدس من الآن وإلى الأبد". ولا يستطيع أحد أن يدَّعي بأن هذه الفقرة بالذات مزوَّرة. وإلَّا ما كان قد أكَّد أنه استلم الكلمات والممارسات من الذين سبقوه، والتي تؤكد تقديم المجد للآب والابن مع الروح القدس، وهو لا يمانع في استخدام «في الروح»، فهي شائعة ومألوفة، أمَّا «مع الروح» فقد كانت تحتاج إلى تأكيد.

وفي منتصف مقالته ضد أتباع سابليوس يقول ديونيسيوس: «لا يكفي الكلام عن الأقانيم الثلاثة، واعتراضهم على الثالوث هو القضاء على الإيمان بجملته». وأيضاً يقول: «الوحدة الإلهية هي تثليث الأقانيم». أما إكليمنضس الروماني، فإنه يقول بأسلوب القدماء: «الله الحي والرب يسوع المسيح والروح القدس».

وبعد، علينا أن نسمع إيريناوس الذي عاصر أيام الرسل[1]، ويذكر الروح القدس في كتابه ضد الهرطقات: «لقد وصف الرسول الذين يندفعون إلى شهواتهم بدون ضبط للنفس بأنهم جسدانيون، لأنهم لا يرغبون في الروح القدس». وفي فقرة أخرى يقول إيريناوس: «شرح الرسول أن جسداً ودماً لا يرثان ملكوت السموات". وإذا ظن أحدٌ أنه يجب أن نستشهد بيوسابيوس القيصري بسبب كثرة اطلاعه، فإنني سوف أكتفي بكلماته التي استخدمها في مقالته وهو يرد على أسئلة خاصة بتعدد الزوجات في العهد القديم. يقول في افتتاحية مقالته: «إننا ندعو الله القدوس إله الأنبياء، ووالد النور بمخلصنا يسوع المسيح مع الروح القدس».

٧٣– وأوريجينوس أيضاً في شرحه للمزامير، تجده يستخدم في الذكصولوجيات تعبير «مع الروح القدس». ومع أنه لم يكن على صواب دائماً في كل ما قاله عند الروح

---

(١) استلم إيريناوس الإيمان من بوليكارب، وهو بدوره كان تلميذ يوحنا الرسول (تاريخ الكنيسة، يوسابيوس القيصري ك ٥: ف ٢٠). وأشار إيريناوس في كتابه ضد الهرطقات إلى أنه أقرب من عُرِفَ من الناس إلى عهد الرسل. وهكذا تستند الخلافة الرسولية على التاريخ.

القدس، إلَّا أنه كثيراً ما يدافع عن وقاره. وبسبب قوة العادات الكنسية وثباتها، كان يتكلم عن الروح القدس بما يتفق مع الإيمان الصحيح. وإذا لم أكن مخطئاً، فإن أوريجينوس يقول في الكتاب السادس من شرحه لإنجيل يوحنا: «إننا نقدم السجود للروح القدس بكل وضوح. إن الغسل بالماء هو إشارة إلى تطهير النفس من كل أدناس الشر، ولكن ما هو أهم من ذلك كله، هو حضور الثالوث نفسه أثناء استدعاء أسماء الأقانيم، فهو أصل كل بركة وينبوعها». وأيضاً في شرحه لرسالة رومية: «القوات المقدسة من الملائكة تستطيع أن تقبل الابن الوحيد وإلوهية الروح القدس». وما أفهمه هو أن قوة ما رسخ في الكنيسة تجعل البعض يكتبون ما يتعارض مع آرائهم الخاصة. وبالإضافة إلى أوريجينوس، نجد أن صيغة الذكصولوجية نفسها معروفة للمؤرخ يوليوس الإفريقي.

يقول يوليوس في كتابه (تاريخ العصور): «نحن الذين عرفنا هذه الكلمات لا نجهل نعمة الإيمان، بل نشكر الآب الذي منحنا نحن خليقته بيسوع المسيح ربنا مخلص العالم، الذي له المجد والعظمة مع الروح القدس إلى الأبد"[١]. وما تبقى من الأدلة المكتوبة يمكن أن يطعن فيه الخصوم بالتزوير؛ لأن الكلمة التي نبحث عنها هي كلمة واحدة، وهي «مع»، وهي يمكن أن تتغير، أما الذي اقتبسته هنا، فهو ما لا يمكن الطعن فيه؛ لأن الوثائق التي تظهر فيها هذه النصوص معروفة.

ولديَّ برهانٌ آخر يبدو كما لو كان عديم الأهمية، ولكن أقدمية هذا البرهان تجعلني أسجِّله هنا طالما أنني متهمٌ بالتجديد، والواقع أنني لست كذلك. لقد استحسن آبائنا أن لا يُشعلوا المصابيح في صمت، بل استحسنوا أن يشعلوا المصابيح ويقدموا الشكر. ومَن الذي وضع كلمات الشكر؟! لا يمكن الإجابة على هذا السؤال؛ لأننا لا نعرف. والشعب منذ زمن بعيد يقول هذه الصلاة، ولم يعترض أحد على الكلمات، أو

---

(١) وضع يوليوس كتابه من الخليقة حتى عام ٣٢١م. ولم يبقَ من هذا الكتاب سوى شذرات قليلة. ومن الواضح أن هذه الذكصولوجية هي خاتمة الكتاب.

اتهم الذين يرددون هذه الكلمات بالكفر: «نسبح الآب والابن وروح الله القدوس»[١].

ومن يعرف نشيد أثينوجينوس الذي وضعه وهو يسرع لكي يكمَّل بالنار، وتركه لأصدقائه هدية وداع. فإنه يعرف فكر الشهداء عن الروح القدس الذي لا يحتاج إلى نصٍّ مكتوب.

٧٤- وأين نضع غريغوريوس العجائبي والكبير[٢] مع أقواله؟ ألا نحسبه مع الرسل والأنبياء، لأنه عاش مثلهم بنفس الروح، ولم يتخلَّ مطلقاً في حياته كلها عن طريق القديسين، ويتمسك على الدوام بمبادئ الحياة الإنجيلية؟ إنني على يقين من أننا نظلم الحق نفسه إذا لم نحسب مع شعب الله، هذه النفس التي أضاءت مثل شعلة عظيمة في كنيسة الله. لقد كان شريكاً للروح القدس في عمله، فنال قوة على الشياطين مع موهبة التعليم، فجذب الأمم لطاعة الإيمان (رو ١: ٥)، حتى أنه عندما أُقيم أسقفاً كان قد تسلَّم سبعة عشر مسيحياً فقط، ولكنه علَّم الشعب كله في المدن والقرى معرفة الله. وبقوة اسم المسيح غيَّر مجاري أنهار، وأمر بركة ماء كانت سبب شجار بين الأخوة أن تجف، فجفَّت[٣]، وكانت قدرته على النبوة عظيمة، حتى أنها تضاهي الأنبياء العظام. والمجال لا يسمح بأن نحصر معجزاته هنا. وكثرة ما ناله من مواهب وعجائب ومعجزات أعطاها له الروح القدس بوفرة حتى لقبه أعداء الكنيسة «بموسى الثاني». وكل ما فعله بالنعمة سواء بالقول أو بالفعل، كان مثل نور ساطع وعلامة على قوة السماء غير المنظورة التي رافقته. ولا يزال إلى يومنا هذا موضع احترام الشعب في كل المنطقة التي خدم

---

(١) في الطقس البيزنطي، والنص الكامل نُشِرَ في دائرة معارف الآثار المسيحية، المجلد الأول: ٦٣٤ (أيها النور المفرح لمجد الآب المقدس الذي بلا موت. يا يسوع المبارَك القدوس والسمائي لقد جئنا إلى غروب الشمس، ونرى نور المساء، نسبح الله الآب والابن والروح القدس. إنه يليق دائماً أن نسبحك بأصوات الحمد، يا ابن الله واهب الحياة لأن الخليقة كلها تمجدك).

(٢) أسقف قيصرية الجديدة وأحد تلاميذ العلاَّمة أوريجينوس (+ ٢٧٠).

(٣) القصة الكاملة موجودة في حياة غريغوريوس العجائبي.

فيها، وذكراه لا تزال حيةً في الكنائس مثل شجرة دائمة الاخضرار لم تفقد حيويتها رغم مرور السنين، ولم تُضِف كنيسته شيئاً جديداً إلى الممارسات أو الكلمات أو الأسرار التي سلَّمها لها. وحقاً، إن قِدم ممارسات هذه الكنيسة تجعل بعض طقوسها تبدو كما لو كانت ناقصة[١]، والذين خلفوه في إدارة الكنيسة لم يحتملوا إضافة أي شيء جديد لما سلَّمه غريغوريوس.

ومن الأمور التي سلَّمها غريغوريوس، الذكصولوجية التي يدور الجدال بشأنها الآن، والتي احتفظت بها الكنيسة مستندةً في ذلك إلى صحة وقوة التسليم. ويستطيع كل من يكلف نفسه السفر إلى هذه الكنيسة أن يتأكد مما أقول.

وتشهد على صحة الذكصولوجية كتابات أسقفنا فرمليانوس (- ٢٣٢م)، وأيضاً ملاتيوس الشهير الذي كان يستخدمها، كما يشهد بذلك الذين عاصروه. ولكن لماذا أستشهِد بالمصادر القديمة؟ لأن المؤمنين في الشرق (سوريا) أصبحوا يُعرَفون من غير المؤمنين بواسطة علامة واحدة، وهي الذكصولوجية، التي صارت علامة على الإيمان الصحيح.

وقد سمعت من شخصٍ كلداني يعرف لغة قومه، وله إيمانٌ صحيح، أنهم في تلك البقعة لا يعرفون إلَّا هذه الذكصولوجية، ولا يسمحون بغيرها، بل عند استعمال الذكصولوجية لا تسمح لهم لغتهم (السريانية) التي لا يستخدمون غيرها إلَّا باستعمال حرف «الواو» أو ما يعادله.

ونحن الكبادوكيون، عندما نستخدم لهجة بلادنا، لا نستعمل إلَّا ما لدينا من تعبيرات سبق وأعطاها لنا الروح القدس عند بلبلة الألسنة، وهي لا تختلف في معناها عن الشرقيين.

---

(١) من المؤكد أن نقد باسيليوس مصدره رفض الكنيسة استعمال الألحان المتبادَلة التي يردد قسمٌ من الشعب جانباً ويجاوبه القسم الآخر.

وماذا عن الغرب كله من ايليريا حتى حدود بلادنا؟ ألا يكفي هذا الإجماع على استخدام هذه الكلمة «مع الروح»؟

٧٥- وبعد أن استعرضنا هذا الإجماع، كيف أُتَّهم بأنني مجرد صائغ لكلمات حديثة؟ لقد أقمت الدليل على أن الذين وضعوا هذه الكلمة هم الرسل، والذين خلفوهم، وشعوبٌ بأسرها، ومدنٌ أيضاً، والممارسات الكنسية القديمة التي لا تعي الذاكرة تاريخها لقِدَمها، وأناسٌ هم أعمدة الكنيسة تميَّزوا بمعرفة دقيقة ونالوا المواهب الروحية.

إن الجيش العام الذي ينازلني انتشر في كل مدينة وقرية وحتى الأطراف النائية يطعنونني بالكلام. وهذا محزن ومؤلم لمن يسعى في سبيل السلام، ولكن مَن يصبر على هذه المحن ينال مكافأةً عظيمة. وباستثناء الحزن والصبر لا يهمني ماذا يحدث. ليلمع السيف، ولتُسن الفأس، وتشتعل نار الآتون أكثر من آتون بابل، ولتصبح كل أدوات التعذيب حاضرة، فلا يخيفني سوى عدم المبالاة بانذار الرب بعدم المغفرة للذين يجدفون على الروح القدس (مت ١٢: ٣١).

والقراء الذين سيقرأون ما كتبت، سوف يجدون دفاعاً مجيداً عن الذكصولوجية، وهي عزيزة جداً على قلبي ومألوفة للقديسين وثابتة من طول الاستعمال منذ أن كُرِز بالإنجيل إلى يومنا هذا، بل صارت مستحسَنة في الكنائس كتعبير عن التقوى والقداسة.

ولكن أمام كرسي القضاء الإلهي، ماذا أعددت من دفاع؟

لقد أعددت هذا: إن ما قادني أول الأمر إلى تمجيد الروح هو الكرامة التي أعطاها له الآب عندما أشركنا مع الآب في المعمودية. وثانياً ما قد يحصل عليه كلٌّ منا من معرفةٍ في سر انضمامنا إلى الكنيسة. وعلاوة على ذلك، الخوف من التهديد بالدينونة التي تزيل من عقولنا أية فكرة عن احتقار الروح والاعتقاد الخاطئ. ونحن نستطيع أن نقول كل هذا، لكن ماذا يقول المقاومون؟ فإنهم لا يعبِّرون عن إكرام للرب، ولا يخافون تهديداته. فما هو تبرير تجديفهم؟ يا ليتهم يعودون الآن عما هم فيه. ومن ناحيتي سوف

أطلب بلجاجة من الله الصالح أن يملك سلامه في قلوب الكل (كو ٣: ١٥).

فعلى هؤلاء الناس الذين ابتلعهم كبرياؤهم ونظَّموا صفوفهم لمحاربتنا، أن يهدئوا بروح الوداعة والمحبة. أما إذا وصلوا إلى حالة التوحش الحيواني وصار من المستحيل اعادتهم إلى الهدوء، فليعطنا الروح القدس أن نحتمل في صبر كل ما يدبِّرونه لنا. أما نحن الذين لنا «حكم الموت في أنفسنا» (٢كور ١: ٩)، فالآلام من أجل الإيمان محتَمَلة، أما ما لا نحتمله، فهو أن نفشل في الدفاع عن الإيمان. والمصارع لا يشكو من الجراح التي تصيبه في الساحة، وإنما يشكو إذا عجز عن الوصول إلى ساحة النزال. ولعل هذا هو وقت صمت الحكيم الذي أشار إليه سليمان (الجامعة ٣: ٧)، فطالما أن الحياة معرضة للعواصف الهوجاء، فالكلام ضد العاصفة لا يجدي. وحتى الذين أدركوا الإيمان وامتلأت عقولهم بما في الكلمة الإلهية، فإنهم يواجهون الأكاذيب مثل العيون المعرضة للغبار. إن الأصوات الغريبة تثقُل على آذان الناس، والضجة تجعل كل شيء يتزعزع ويوشك على السقوط، فما جدوى الصراخ؟

الفصل الثلاثون

حالة الكنائس في الوقت الحاضر

٧٦– بماذا نشبِّهُ حالتنا الحاضرة؟ إنها تشبه معركةً بحرية نشبت بسبب منازعات قديمة، يحاربها قومٌ مملؤون بحقدٍ مميت، ولهم خبرة في القتال البحري، ومشتاقون للحرب. انظروا إلى هذه الصورة المرسومة أمام عيونكم. الأساطيل تُسرع بالهجوم. ويتشابك الكل في قتالٍ رهيب، يدوِّي فيه الغضبُ المتفجر، والسفن تدفعها عاصفةٌ في حركة كرٍّ وفر وظلمة كثيفة تسقط من السحاب وتغطي كل شيء، فتضيع صيحات الرجال وتختلط، حتى أنك تعجز عن التمييز بين العدو والصديق. وتكمُل تفاصيل المشهد بالأمواج العاتية في شكل دوامات هائلة. وتنهمر الأمطار الشديدة من السحاب، وترتفع الأمواج إلى فوق. ومن الاتجاهات الأربعة تنطلق الرياح العاصفة صوب نقطةٍ واحدة؛ مماً يجعل سفن الأسطول تتلاطم. أما المقاتلون، فقد تحول بعضهم وصاروا خونةً، أو انتقلوا إلى صفوف الأعداء في ساعة اشتداد الحرب. بينما البعض ترك كل شيء واعتصم بسفينته، خوفاً من العاصفة، أو بدأ في ذبح معارضيه، أمَّا الحسد والطمع في السلطة وشهوة السيادة، فقد قسَّمت البحَّارة إلى أحزابٍ متصارعة. وتأمل، فبجانب كل هذا، الصراخ الغريب الذي تختلط فيه الأصوات، ويعلوا على صوت أمواج البحر الهادر مع صوت القتال والتكسير وتصادم السفن، وصيحات المقاتلون وهم يصرخون معبِّرين عن هياجهم أو آلامهم. كل هذا يجعل كلمةً من قائدٍ أم ملَّاحٍ لا تُسمع بالمرة، الفوضى والاضطراب هائلان، حتى أن اليأس من الحياة يعطي التصريح بارتكاب كل أنواع الشرور.

أضف إلى ذلك أن الكل ضُرِبَ بجنون العظمة، فلا يكُفُّون عن القتال، كلٌّ يحاول الحصول على الأفضل، في الوقت الذي تغرق فيه السفينة مسرعة إلى الأعماق.

٧٧- إذا تحولنا الآن من الصورة الخيالية إلى الواقع الحزين، فسوف نرى كيف ينطبق الوصف الخيالي الذي قدَّمناه على الواقع الذي نعيشه. ألم تنفصل الجماعات الأريوسية وتحولت إلى جماعات معادية لكنيسة الله؟ كان أريوس وجماعته فقط يحاربون الكنيسة، ولكن عندما صارت الحرب علانيةً، وبعد نزاع طويل وشاق، انقسموا إلى جماعات مختلفة متصارعة لا يمكن حصرها، وسار بينهم روح التحزب والشك حتى خيَّمت البُغضة على كل شيء.

وبأي عاصفةٍ في البحر يمكن أن نشبِّه اضطراب الكنائس؟ لقد أزيلت كل الحدود التي وضعها الآباء. كلُّ أساس وعقيدة تزعزع كما لو كان فاسداً وبلا أساس. إننا نهاجم بعضنا البعض، ندوس بعضنا البعض، وإذا لم يجرحنا عدونا أولاً، أصابتنا ضربات رفاقنا وجرحتنا. ومَن يسقط بواسطة العدو يدوسه زميله في الصراع. وما يجمع الكل في وحدة هو البُغضة للعدو، ولكن ما أن يغيب العدو عن بصرنا، حتى نكتشف أن العدو بجانبنا، ومَن يمكنه أن يقدم قائمةً بالخسائر والغرقى؟ البعض غرق بواسطة الأعداء المختفين في العمق، والبعض لأنه لم يحذر خيانة رفاقه، والبعض قتله نزع السلطة منه.

إننا نرى كنائس بأسرها مثل سفينةٍ كاملة الطاقم والبحارة تندفع نحو الصخور وترتطم بها وتتناثر بفعل الاصطدام بالهراطقة، بينما البعض من أعداء الروح والخلاص، تسلَّموا الدفة وجعلوا من الإيمان حطاماً غارقاً. ثم جاءت الاضطرابات التي يثيرها أمراء العالم، فسقطت شعوبٌ بعنفٍ شديد لا مثيل له في العواصف أو الزوابع. أما أنوار العالم الذين أقامهم الله لينيروا لنفوس الناس، فقد طُرِدوا من بيوتهم[١] فغطَّت الظلمة الكئيبة وحلَّ الخوف في الكنائس، والرعب من انحلال المسكونة، وتداعيها عَمَّ كل مكان؛ لأن

---

(١) الإشارة إلى الأساقفة الذين طُرِدوا من كراسيهم، مثل ملاتيوس أسقف إنطاكية، ويوسابيوس أسقف ساموساطا، وبيلاجيوس أسقف اللاذقية (تاريخ الكنيسة، ثيؤدوريت ك ٤: ف ١٢).

الرؤساء أفرطوا في حسد بعضهم البعض، ونسى الكل المسئولية. واشتعلت العداوة الشخصية، وهي أكثر خطورة من الحروب؛ لأنها بذاتها تُشعل نار الحرب بين الشعوب، وتجعل الفوز الشخصي هو الهدف الذي يسعى وراؤه الرؤساء، وبذلك يُضحُّون بما هو عام ويهم الجماعات، وذلك بدوره يؤثر على الحياة الروحية؛ لأن الانشقاق والتناحر يجعل الناس تنسى المكافأة التي تنتظر الكل في المستقبل. وصار الكل في سفينة واحدة يبحث عن طرقٍ للقتل وإزاحة الآخرين من الطريق. وصراخٌ حادٌّ مشحون بالأطماع يتصدى لصراخٍ آخر مماثل، وعندما امتلأت الكنيسة كلها بالصراخ، أصبح من المستحيل تمييز الأصوات، وعزَّ على أي إنسان في وسط ذلك الضجيج الذي لا مثيل له أن يميِّز صوت العقيدة أو يستمع إلى التعليم الصحيح، فقد عمَّت الضوضاء الرهيبة وتعثَّر الفهم.

وفي وسط هذه الفوضى التي لا مثيل لها، يوجد الذين يخلطون بين أقانيم الثالوث وحُمِلوا أسرى إلى اليهودية. وفي الجانب الآخر يوجد الذين يخلطون بين الطبيعة الإلهية والطبائع المخلوقة وينتقلون إلى الوثنية. هذا كله يحدث، دون أن تهدِّئ هؤلاء الكتب الإلهية، كما أن تسليم الرسل لا يحقق الوفاق بينهم، وأصبح الواحد لا يطلب من صراحة الآخر سوى أن يتكلم كما يشاء، أما الاختلاف في الرأي، فإنه يكفي ليكون سبباً كافياً للعداوة، والتعهد بالتحالف، أصبح يجمع الناس على تكوين أحزاب متصارعة.

وصار كل واحد لاهوتياً[١] على الرغم من أن حياته الداخلية ملوَّثةٌ ببقع لا يقدر أن يحصيها. والنتيجة أن المبتدعين يجدون الأتباع بوفرة، الذين هم على استعداد للاستسلام لكل الخيالات. والذين لا يصلحون حتى للتمثيل على المسارح يقامون في الكنيسة لكي يدمِّروا تدبير الروح القدس، ويزرعون الانقسامات بين الرئاسات الكنسية، فصارت الممارسات الخاصة بأسرار الإنجيل -بسبب الفوضى وعدم الضبط- مجالاً لطلب الرئاسة والمناصب الكبرى في الكنيسة، والذين يعلنون عن أنفسهم يشقون الطريق بكل عنف للحصول على أعلى المناصب في الكنيسة، ويحدث الآن أن شهوة التسلط امتدت

---

(١) Theologos أي لاهوتي. وباسيليوس ينكر وجود هؤلاء بسبب الدنس الذي يعيشون فيه.

للشعب نفسه، وجعلته في فوضى شاملة، وعجز عن التمسك بالنظام الكنسي.

أما وعظ الرؤساء، فقد صار عقيماً وبلا فائدة، لأن كل فرد يظن في جهله، أنه لا يليق به أن يسمع أو يطيع، بل أن يعطي الأوامر لغيره.

٧٨- لهذه الأسباب اعتبرتُ الصمتَ أفضل من الحديث؛ لأنه لا يوجد صوتٌ بشري قوي يمكنه أن يُسكِت هذه الضوضاء. وهذا الوضع جعل كلمات الحكيم صادقة جداً كلمات الحكيم تسمع في هدوء (الجامعة ٩: ١٧). وبالتالي أصبح السكوت أفضل. كما أن كلمات النبي منعتني «ليسكت الحكيم في ذلك الزمان لأنه زمان سوء» (عاموس ٥: ١٣). وقد تحقق هذا الآن، البعض يرمي بجاره أرضاً، والبعض يدوس على مَن يسقط، وغيرهم يصفق فرحاً لما يراه. ولا يوجد من يُشفق على الساقطين ويمد لهم يد المساعدة مع أن الشريعة القديمة جعلت من يرى دابة غريمة ساقطةً تحت حملها ولا يساعدها مُذنباً (حز ٢٣: ٥). ولكن الأمر ليس كذلك في أيامنا، لماذا؟ لأن المحبة قد بردت والاتفاق الأخوي قد انتهى، بل أن اسم الوحدة صار غير معروف، والنصائح الأخوية لم تعد تقال، ولا توجد تقوى مسيحية، ولم نعد نرى دموع الشفقة، لا يوجد بالمرة من يساعد ضعيف الإيمان (رو ١٥: ١)، بل تعاطفت العداوة بين الأشقاء، فصار كل واحد منهم يفرح بسقطة قريبه أكثر مما يفرح بنجاحه. وصارت الحالة الآن مثل حالة انتشار وباء؛ لأن الأصحاء يعانون من المرض مثل المرضى تماماً، فقط وصلتهم العدوى من جراء اتصالهم بالمرضى. وهذا يشبه ما يجري بين بعضنا البعض بسبب ما صار بيننا من عداء. وأَسَرتْنا الكراهيةُ، فسقطنا في الشر، ولم يعد ثمة فرق بيننا. فيجلس القساة في مجالس القضاء ليحكموا على الساقطين، وأما الذين يعيشون حسب التقوى، فأن أعداءهم والذين بلا عواطف هم الذين يحكمون عليهم. وهكذا تمكَّن منا الشر، وسقطنا في حفرةٍ حتى صرنا أشد قساوةٍ من الحيوانات التي رغم ذلك، تتألف مع الحيوانات الأخرى التي من نفس النوع، إلَّا أننا أصبحنا أكثر إنحطاطاً منها؛ لأن حربنا القاسية قائمة مع نفس النوع الذي تنتمي إليه.

٧٩- لهذه الأسباب آثرتُ الصمتَ، ولكن المحبةَ جعلتني أتجه إلى الاتجاه الآخر؛ لأنها «لا تطلب ما لنفسها» (١كور ١٣: ٥)، وهي تسعى للتغلب على كل صعوبات الظروف الحالية. وتعلَّمتُ هذا الدرسَ من الفتية الثلاثة الذين كانوا في الآتون في بابل (دا ٣: ١٢)، لأنهم كانوا وحدهم وبلا معين. وهكذا علينا أن نقف نحن وحدنا لكي نقوم بما علينا من واجب، وكما رَفَعَ هؤلاء من أعماق اللهيب في الآتون صوت التسبيح والشكر لله غير عابئين بالقوات الضارة وأعداء الحقيقة، بل كانوا يشجعون بعضهم بعضاً، رغم أنهم كانوا ثلاثة فقط، هكذا نحن لا نعبأ بالسحابة الكثيفة من أعدائنا، بل ثقةً في معونة الروح، ولذلك نتكلم بالحق بكل جرأة، ولولا هذه الوقفة لوجد المجدفون على الروح القدس شجاعةً أكبر في الهجوم على العقيدة القديمة؛ ولأن الروح القدس يقف بجانبنا في هذا الصراع، وجدنا فيه القوة والرفيق المناضل. ولذلك لم نتأخر عن الدفاع عن التعليم الذي تسلَّمناه من الآباء واحتفظت به الكنيسة سليماً؛ لأنه انتقل إلينا في سلسلةٍ لا انقطاع فيها من التسليم الشفوي، ثم أن قوةً أخرى حرَّكتني للكتابة، وهي ما تتمتع به أنت من رصانة وهدوء واتزان؛ لأنك لم تنشر ما كُتِبَ لكل الناس، ليس لأن ما كتبت لا يستحق النشر، بل لكي تتجنب إلقاء الدرر أمام الخنازير (مت ٧: ٦).

لقد أنجزتُ ما يجب إنجازه، وإذا وجدتَ أن ما ذكرتُ يكفي، فليكن هذا خاتمة النقاش حول هذا الموضوع. أما إذا وجدت أن بعض النقاط تحتاج إلى بحثٍ آخر، فأرجوك أن لا تتأخر في متابعة البحث بكل اهتمام مع إضافة الأسئلة الخاصة بالنقاط غير الجدلية. وسواء بواسطتي أم بواسطة آخرين، فإن الرب سوف يكمِّل عملنا، ويجعل كل الأمور واضحة بواسطة المعرفة التي يمنحها الروح لمستحقيها.

آمين

تمت الترجمة في يناير ١٩٦٨ والمراجعة في يناير ١٩٧٩ – ديسمبر ١٩٨٠

والمراجعة الأخيرة في إبريل ٢٠١٤

بركة القديس باسيليوس معلم المسكونة وأب الكنيسة الجامعة تكون معنا.

دكتور

جورج حبيب بباوي